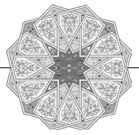

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا

إضاءات
من السيرة النبوية

ح حسن موسى الصفار، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن بن موسى بن رضي
إضاءات من السيرة النبوية. / حسن بن موسى بن رضي الصفار، القطيف، ١٤٤٢هـ
٢٣٨ص، .. سم
ردمك: ٨-٦٧٤٩-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٤٢/٤٥٧٣
رقم الإيداع: ١٤٤٢/٤٥٧٣
ردمك: ٨-٦٧٤٩-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م
القطيف - المملكة العربية السعودية

أطياف للنشر والتوزيع
Atiyaf For Pub. & Dist.
المملكة العربية السعودية - القطيف - تلفاكس: 00966138549545
atyaf.qatif@gmail.com

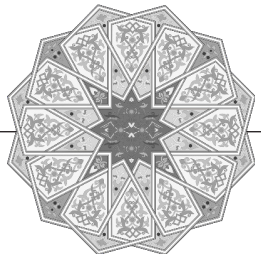

إضاءات
من السيرة النبوية

حسن بن موسى الصفار

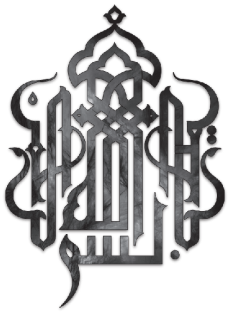

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا

المحتويات

المحتويات ٧

مقدمة ٩

إضاءة أولى: الأول في قائمة العظماء

منابع العظمة المحمدية ١٧

الآلام والصعوبات في حياة الأنبياء والأولياء ٢٥

أمّ المؤمنين خديجة مثلٌ أعلى ٣١

خيركم لأهله ٣٥

يغمر ابنته بالحنان والتكريم ٤١

إضاءة ثانية: معركة التغيير

المجتمعات والأفكار الجديدة ٤٩

الحصار والمقاطعة ٥٥

القدس المسرى والمعراج ٦١

المواجهة مع اليهود ٦٩

تطورات العلاقة بين المجتمعات المسيحية والإسلامية ٧٩

الإسلام والحضارات الأخرى قطيعة أم تفاعل ٨٩

إضاءة ثالثة: صناعة التحول

تغيير العقلية القبلية..... ١٠١
إثارة العقول ومواجهة الخرافات..... ١١١
نهج القيادة النبوية..... ١١٧
احتواء التوترات والتشنجات الاجتماعية..... ١٢٣
التنافس في ميدان القيم..... ١٣١
العلاقات الاجتماعية بين الرحمة والقسوة..... ١٣٧
منهجية الاستقطاب ومنهجية التنفير..... ١٤٣
بشاعة الإرهاب وسمعة الإسلام..... ١٤٩
الحريات الدينية حقٌّ أساس..... ١٥٥
كرامة الإنسان في الهدي النبوي..... ١٥٩
حرمة الأديان وحرمة الإنسان..... ١٦٣
المجتمعات الحرة ومكافحة الفساد..... ١٧١
الشخصية المتشنجة والفهم الخطأ للدين..... ١٧٧
سفك الدماء في بلاد المسلمين..... ١٨٣
المزايدة في الدين..... ١٨٧

إضاءة رابعة: خلق عظيم

القيادات الدينية وأخلاق التعامل..... ١٩٧
أخلاق الرسول بين التأسي والانبهار..... ٢٠٧
فليتّسع صدرك..... ٢١٣
الاحترام والإكرام خلق حضاري..... ٢١٩
احترام الناس..... ٢٢٥
قيادة التحول الأخلاقي..... ٢٣١

مقدمة

لم تحظَ شخصية في التاريخ الإنساني بمثل ما حظيت به شخصية النبي محمد ﷺ، من اهتمام بتاريخ حياته وتوثيق سيرته.

فالمصدر الأول والأساس لسيرة النبي ﷺ هو القرآن الكريم، وهو الكتاب الإلهي الخالد الذي تعهّد الله تعالى بحفظه وصونه، وقد تضمّن القرآن الكريم مبادئ دعوة النبي ﷺ ومعالم رسالته، كما تحدث عن ملامح شخصيته، ومفاصل تاريخ حياته، والمنعطفات المهمة في سيرته، ومعظم الوقائع والأحداث في حركته الرسالية.

لكنّ ما تناوله القرآن الكريم من السيرة النبوية، جاء في سياق منهجيته المميزة في عرض القضايا والوقائع التاريخية، بالتركيز على موقع العبرة والدرس، وتبيين الحكم والموقف، بما يحقق الهدف القرآني الأساس، وهو الهداية والتنوير.

واهتمّ آل بيت رسول الله ﷺ وأصحابه بحفظ ونقل ما سمعوه من حديثه وكلامه، وما عايشوه وشاهدوه من تفاصيل حياته الخاصة والعامة. ثم تناقلت أجيال الأمة المتعاقبة ذلك التراث النبوي العظيم، عبر علمائها ومفكريها وكتّابها، من المحدِّثين والفقهاء والمؤرخين.

وأصبح لتراث النبوة أفق واسع من التخصصات العلمية، والاتجاهات المعرفية، التي أثرت الحضارة الإسلامية، والحركة الثقافية في الأمة، وشكلت تطورًا نوعيًا في مسار المعرفة الإنسانية.

ولأنّ هذا التراث النبوي تم ضبطه وتناقله ونشره بجهد بشري، فمن الطبيعي أن تلحقه بعض الآفات، وأن تظهر فيه بعض الثغرات ونقاط الضعف والخلل.

خاصة وأنّ مرحلة التدوين للحديث والسيرة النبوية جاءت متأخرة زمانًا عن عهد رسول الله ﷺ، مما يعرّض النقل الشفهي والسماعي لآفة النسيان واحتمالات الخطأ والاشتباه. إضافة إلى وجود دواعٍ سياسية ومصلحية للوضع والتزوير والتحريف، فيما ينقل من حديث رسول الله ﷺ ووقائع سيرته وحياته.

لكنّ علماء الأمة بذلوا جهودًا مضنية لوضع معايير ومقاييس، وتنظيم قواعد وضوابط، لفحص هذا التراث الضخم الذي يضمّ مئات الآلاف من الأحاديث والروايات والنصوص التاريخية المنقولة. وفرز ما يتمتع بمستوى الاعتبار والصحة، عمّا يتضح زيفه، أو يشك في اعتباره وصحته.

وما تزال هذه الجهود العلمية متواصلة مستمرة في بحث وتحقيق التراث النبوي، ضمن مدارس المذاهب الإسلامية المختلفة في اجتهاداتها وتوجهاتها، التي تتفق على مرجعية السنة النبوية إلى جانب القرآن الكريم.

ومما انفردت به السيرة النبوية الشريفة عن تاريخ كلّ الشخصيات الأخرى، احتواؤها على أدقّ التفاصيل في حياة رسول الله ﷺ الشخصية والاجتماعية، وكأنموذج لهذا الاستيعاب المدهش، نشير إلى أحد كتب السيرة النبوية، وهو كتاب

(سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) لمصنفه الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢هـ، الذي استخلصه من أكثر من ثلاثمئة كتاب، حسبما ذكر في مقدمته، وقسّمه إلى نحو ألف باب، وقد طبع مؤخرًا في اثني عشر مجلدًا، يزيد مجموع صفحاتها على ٦٠٠٠ صفحة.

وحين نقرأ عناوين أبواب هذا الكتاب نجد مثلًا: ثلاثة وعشرين بابًا، استغرقت ١٢٠ صفحة تقريبًا مخصصة لصفات جسم النبي ﷺ عضوًا عضوًا، كرأسه وشعره، وجبينه، وحاجبيه، وعينيه، وسمعه، وأنفه، وخديه، وفمه، وأسنانه، ولحيته، وعنقه، وظهره، وصدره، وبطنه، ويديه، وإبطيه، وساقيه، وفخذيه...

كما أفرد لصفاته المعنوية أربعةً وعشرين بابًا زادت صفحاتها على ١٢٠ صفحة، كالحديث عن حلمه وعفوه، وحيائه، ومداراته وصبره، وبرّه وشفقته ورحمته، وتواضعه، وشجاعته، وكرمه وجوده، وزهده وورعه، وهيبته ووقاره، ومزاحه ومداعبته، وضحكه وتبسمه...

وخصص خمسة أبوابٍ لطريقة النبي ﷺ في كلامه وتحريك يده حين يتكلم أو يتعجب، ونكته في الأرض بعود، وتشبيكه أصابعه وتسبيحه، وتحريكه رأسه، وعضّه لشفته، وضربه يده على فخذه عند التعجب.

كما خصص أبوابًا لطريقة جلوسه واتكائه ومشيه، وأبوابًا في ذكر مأكولاته ومشروباته، وطريقته في الأكل والشرب، وأبوابًا حول نومه ويقظته، وأبوابًا في سيرته ﷺ في لباسه وذكر ملبوساته، وأبوابًا حول بيته وما فيه من أثاث وتجهيزات، وأبوابًا حول دوابه التي يمتطيها والأنعام التي كان يقتنيها، إلى أبواب أخرى متعددة فيما يتصل بحياته الشخصية.

أما عن حياته الاجتماعية، ففي الكتاب عشرات الأبواب عن شؤونه العائلية، في ذكر زوجاته وأبنائه وبناته، وعن نسبه وأسرته وأقربائه، وعشرات الأبواب حول أصحابه.

والمساحة الأوسع في الكتاب تشغلها مئات الأبواب عن سيرته في الدعوة وتبليغ الرسالة، ومواجهة مكائد الأعداء والمناوئين، وإدارة المعارك والغزوات، ورسائله إلى الملوك، واستقباله الوفود، وقيادة الأمة، وإدارة المجتمع في مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والقضائية.

هذا كتاب واحد من مئات ـ إن لم يكن آلاف ـ الكتب التي صنفت في السيرة النبوية، منذ بدأ التدوين في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، على يد محمد بن إسحاق المطّلبي (مدني توفي ١٥٠ هـ- ٧٦٨م) ثم استمرت مسيرة الكتابة والتدوين في السيرة النبوية دون انقطاع، بحيث لا يكاد يخلو عصر أو جيل في تاريخ الأمة من ظهور مدونات في السيرة النبوية، إلى عصرنا الحاضر، حيث يذكر الباحثون: أنّ ما صنّف في هذا العصر في سيرة النبي محمد ﷺ يفوق عددًا ما وضعه القدامى خلال قرون.

وما يلفت النظر أكثر، هو الإقبال الشديد في هذا العصر على ما يكتب عن النبي محمد ﷺ، فبعض هذه الكتب تنفد نسخ طبعتها خلال شهور من نشرها، وبعضها تكررت طباعتها أكثر من عشر مرات في سنوات معدودة.

كلّ ذلك يكشف عن عمق انتماء هذه الأمة لدينها، وعن جاذبية شخصية النبي محمد ﷺ وعظيم تأثيره على النفوس.

ويمكن القول: إنّ هذا الاهتمام الكبير المتواصل في أجيال الأمة بالسيرة النبوية، ينبعث من المنطلقات التالية:

أولًا: كون السيرة النبوية مصدرًا أساسًا للمعرفة الدينية والتشريع الإسلامي، إلى جانب القرآن الكريم، فقول رسول الله ﷺ وفعله وتقريره حجة شرعية، تُستنبط منها الأحكام، وتُؤخذ منها المعارف الدينية، ضمن الأصول والقواعد العلمية المقررة.

ثانيًا: لأنّ الاطلاع على السيرة النبوية، ومعرفة أحوال رسول الله ﷺ، هو الطريق

للتأسي به، والاقتداء بهديه، والتخلّق بأخلاقه، وذلك ما يجب أن يسعى إليه ويحرص عليه كلّ مسلم. يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٢١].

ثالثًا: إنّ نفوذ محبة رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين، وعشقهم لشخصيته، وإكبارهم لمقامه، يدفعهم إلى الاهتمام بكلّ ما يرتبط بحياته وسيرته. وهذا أمر فطري وجداني، حيث ينجذب الإنسان إلى ذكر من يحبه ويعظّمه، ويحرص على الاحتفاظ بذكرياته وصوره وآثاره. كما تهتم المجتمعات بتاريخ عظمائها ورموزها وشخصياتها البارزة، فتخلّد ذكراهم، وتحفظ تراثهم وآثارهم، بكتابة الكتب وصناعة الأفلام عنهم، وإقامة المتاحف الخاصة بهم وبمقتنياتهم.

وهناك عامل آخر يفسّر كثافة الاقبال والاهتمام بالسيرة النبوية في هذا العصر، هو تحفّز الأمة للنهوض من واقع التخلف، ومواجهة التحديات الخطيرة التي فرضت نفسها على الأمة.

وذلك يتطلب استعادة الثقة بالذات، وانبعاث روح التضحية الصمود، وامتلاك إرادة التغيير والإصلاح، وهذا ما تريد الأمة استلهامه من التجربة النبوية الرائدة.

إنّ السيرة النبوية الشريفة تمثل أروع أنموذج في التاريخ البشري للنهوض والتغيير والتقدم، فقد كان المجتمع في الجزيرة العربية يعيش واقع التخلف والانحطاط، يسوده الجهل، وتحكمه العصبيات، وتمزقه الحروب والنزاعات، وفي زمن قياسي حقق النبي محمد ﷺ نقلة عظيمة في ذلك المجتمع، وأحدث فيه تغييرًا جذريًا، ارتقى به إلى أفق الحضارة التقدم، فأصبح أمة رائدة في موقع القيادة والتأثير على جميع الأمم.

فكيف يمكن للأمة اليوم أن تستوحي من تلك التجربة النبوية خارطة طريق لنهضتها من جديد؟

إنّ عالم اليوم يختلف كثيرًا عن عالم العصر النبوي، ولا يمكن أن تقاس الحياة الحاضرة بما قبل قرن واحد من الزمن، فضلًا عن خمسة عشر قرنًا. لذلك فإنّ البحث في السيرة النبوية ليس عن الوسائل والأساليب والأدوات التي كانت مناسبة لزمنها وعصرها، بل عن تلك الروح الوثّابة، والعقل المبدع، والإرادة الصلبة، والقيم الحضارية، والمبادئ الإنسانية. وذلك هو لبُّ وجوهر التجربة النبوية، وهو ما يُستلهم من هدي رسول الله ﷺ وسيرته العطرة.

وفي هذا الكتاب شحنات ضوء من شعاع تلك السيرة النبوية الهادية، إنّها إضاءات على بعض القيم والمفاهيم التي تزخر بها السيرة النبوية، والتي نحتاج إلى هديها والاستنارة بها، من أجل إعادة صياغة نفوسنا وأفكارنا وسلوكنا الاجتماعي، بما يحرّرنا من حالة الاستسلام والجمود، ويخلصنا من أسر الأنانية القاتلة، والعصبيات المقيتة، ويؤهلنا لبناء إنسان حضاري ومجتمع رشيد.

وكانت مواضيع هذا الكتاب في الأصل مادة مكتوبة لأحاديث ومحاضرات ألقيتها في مناسبات ترتبط بذكريات من السيرة النبوية، ثم جمعتها بعد شيءٍ من التنقيح والترتيب، لأقدمها بين يدي القارئ الكريم، أرجو أن تكون أداءً لبعض حقّ رسول الله ﷺ، وإسهامًا في حركة الوعي والتنوير، ومن الله تعالى أرجو القبول والتوفيق.

حسن بن موسى الصفار

١١ صفر ١٤٤٢هـ

٢٨ سبتمبر ٢٠٢٠م

إضاءة أولى

الأول في قائمة العظماء

شكّلت المكانة العظيمة التي حظي بها نبينا الأكرم محمد ﷺ حالة فريدة في التاريخ البشري، وللحديث عن منابع العظمة لنبينا محمد ﷺ فإنه يمكننا الحديث عن أربعة منابع رئيسة:

المنبع الأول: الاختيار الإلهي

كانت الخاصية الأولى للنبي ﷺ أن الله اختاره واجتباه وقرّبه إليه دون سائر البشر. فكما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون في هذا المجتمع البشري من أبناء آدم قدوات تتكامل فيهم صفات الخير والكمال، وهم الأنبياء والرسل، فهم الشريحة الأكمل من أبناء البشرية، فكل صفات الخير والفضل والكمال تتجسد في حياتهم وسيرتهم، إلا أنه سبحانه فاضل بين هؤلاء الأنبياء أنفسهم في الدرجات والمكانة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وقد شاء الله تعالى أن يكون أفضل هؤلاء الرسل والأنبياء هو نبينا محمد ﷺ.

شاءت الإرادة الإلهية أن يكون النبي الأكرم أفضل خلق الله، حتى بين الأنبياء أنفسهم، فضلًا عن سائر البشر. وحين يقول ﷺ عن نفسه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[١]، فإن ذلك لم يكن في مقام الافتخار، وإنما في مورد بيان الحقيقة، وذكر النعمة التي أمره الله تعالى أن يتحدث بها تبعًا للآية الكريمة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، لذلك أبان هذه الحقيقة. فقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم» أي إنه أحب الخلق إلى الله وأفضلهم عنده وأكرمهم عليه، فإذا كان أكرم الناس أتقاهم عند الله وفقًا للآية الكريمة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فهل هناك من البشر من ينافس رسول الله في تقواه؟، لا شك أنه أتقى الناس، فهو أكرم الناس عند الله تعالى.

إنّ اختياره ﷺ من قبل الله تعالى دون سائر البشر، ترتب عليه أمور عديدة في الدنيا والآخرة. ومن ذلك ما تحدث عنه ﷺ بقوله: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[٢]، أنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة حينما يبعث الناس، وتشير الروايات إلى أن الأمم من أتباع الأنبياء السابقين يأتون إلى أنبيائهم طالبين منهم الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى، من آدم إلى نوح إلى كل الأنبياء، لكن لا يتجرأ حينها أي نبي من الأنبياء على طلب الشفاعة من الله قبل نبينا محمد ﷺ، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَزَادَ عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ: فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ البَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهُمْ»[٣]، فهو أول شفيع ومشفع في أمته، وأول من يفتح له باب الجنة، وأول من يدخل الجنة كما ورد عنه ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتفْتِحُ، فَيَقُولُ

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج ١٦، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص ٣٢٥.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل. مسند أحمد، ج٢، ص٥٤٠.

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري: كتاب الزكاة، حديث ١٤١٦.

الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»[1].

نسأل الله أن يدخلنا معه الجنة بشفاعته.

المنبع الثاني: عظمة الرسالة

شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل رسالة نبينا الأكرم ﷺ الرسالة الأكمل إلى البشرية. لقد جاء الرسل السابقون لأقوامهم برسالات سماوية، لكن الله تعالى شاء أن يجعل رسالة الإسلام بصيغتها ونسختها التي جاءت على يد رسول الله ﷺ هي الرسالة الأكمل التي توجه إلى البشرية، في أفضل أزمنة نضجها وتكاملها. وحينما يقرأ العلماء والمفكرون والقانونيون تشريعات الإسلام في مختلف المجالات، يدركون سرّ عظمة هذه الرسالة الخالدة، التي تأخذ بعين الاعتبار مختلف أبعاد شخصية الإنسان وجوانب حياته، فهذه الرسالة تهتم بالروح كما تهتم بالجسد، وتنظّم شؤون الدنيا ولا تنسى الآخرة، وتؤكد محورية العقل دون إغفال للعاطفة، علاوة على الاهتمام بالذات والآخرين، فهي رسالة التكامل والتوازن، والرسالة التي تصلح للإنسان في كل الأزمنة والأمكنة حينما يفهمها الإنسان حق فهمها.

المنبع الثالث: سمو الأخلاق

لقد تميز النبي ﷺ بأروع الأخلاق، وأنبل السلوك، وسط مجتمع مفكك جاهلي، سمته القسوة والعنف والعداوة. ولعلّ القيمة الأسمى لهذه الأخلاق التي تحلى بها رسول الله ﷺ، أنها برزت في قوم كانوا يعيشون في بؤرة التخلف وقاع الانحطاط، وكانوا يعيشون الجفاء والجفاف، وكانت حياتهم شقية تعيسة، وقد تعامل رسول الله ﷺ مع هؤلاء الناس على ما هم عليه من القسوة والجفاء والجفاف، بأروع خلق وأنبل سلوك، لينتشلهم وينقذهم، حتى إن الله تعالى حينما أراد أن يثني على نبيه ﷺ وأن يذكر أهم صفة في سيرته، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

لقد مثّل النبي ﷺ حالة فريدة نادرة، في مجتمع جاهلي متخلف. إذ أنه عندما

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم: كِتَابُ الْإِيمَانَ، حديث ٣٢٤.

يعيش الإنسان في مجتمع له مستوى من التحضر والأخلاق العامة، فسينعكس ذلك على أخلاقه وسلوكه، والعكس بالعكس. لقد اتسم مجتمع الجاهلية بالقسوة البالغة عند الناس تجاه بعضهم بعضًا، على المستوى الفردي والمجتمعي، من حيث تفشي الحروب والغزو والاقتتال، فقد كانوا يعيشون أشبه بحياة الغابة، فالقوي فيهم يأكل الضعيف، والتعاطي بينهم في منتهى الفظاظة والغلظة، ويأتي رسول الله ﷺ فيرسي بينهم تعاملًا أخلاقيًا ونبلًا رفيعًا قلّ نظيره، بالرغم من سيل الاتهامات وكيل الشتائم التي نالها منهم.

ففي ذهابه ﷺ من مكة المكرمة إلى الطائف كان أهل الطائف يؤذونه، حتى لم تبقَ إساءة لم ينلها منهم، من سبّ وشتم، كان أطفالهم وسفاؤهم يمشون خلفه وهم يقولون ساحر، كذاب، مجنون، وكانوا يقذفونه بالحجارة حتى أدميت قدماه، وأصابه التعب الشديد، فلجأ إلى بستان ليستريح، وفي ذلك الوضع، وهو على تلك الحالة المزرية، تهبط عليه ملائكة الله فيخاطبه ملك الجبال: «إنّ الله أمرني ألّا أفعل شيئًا إلّا بأمرك إن شئت دمدمت عليهم الجبال، وإن شئت رميتهم بالحصباء، وإن شئت خسفت بهم الأرض، قال: يا ملك الجبال، فإني أأني بهم لعله إن يخرج منهم ذرية يقولوا لا إله إلّا الله، فقال ملك الجبال: أنت كما سمّاك ربك رؤوف رحيم»[1] وجاءته ملائكة الرياح والمطر ومختلف القوى التي بها يسير الله الكون والحياة، ولكنه ﷺ وبرغم ما أصابه من المشركين من الألم النفسي والجسدي، تسامى على آلامه وجراحاته، ورفع بصره إلى السماء، وبدلًا من أن يدعو عليهم، دعا لهم بقوله ﷺ: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[2]، فأي نفس هذه النفس، وأي خلق هذا الخلق؟.

لقد برز الخلق النبوي النبيل في أعظم تجلياته عند تعامله مع ألدّ أعدائه الذين طالما حاربوه وقتلوا خلّص أصحابه. فبالرغم من الحروب والمعاناة التي عاناها من

(١) جلال الدين السيوطي. الدر المنثور في التفسير بالمأثور. ج٣، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٢) تفسير الرازي. ج١، ص٢٥٥.

قريش، فإذا به يجمعهم يوم دخل مكة فاتحًا وخاطبهم بقوله: ما تروني فاعلًا بكم؟ قالوا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم. فبادرهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء[1].

بل إنّ أحد أبرز أعدائه وهو أبو سفيان جاءه يقول: يا رسول الله، لقد عفوت عن الجميع وأنا واحد منهم، ولكن لأنني بارز في قومي أريد ميزة منك يا رسول الله، فإذا به ﷺ يتجاهل كل ما صنعه أبو سفيان من مساوئ، ويقول: ألا ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وهكذا الحال مع عبدالله بن أبي، رأس النفاق في المدينة، الذي فعل ما فعل تجاه رسول الله ﷺ، وعندما حضره الموت طلب من رسول الله قميصه حتى يكفن به، ولم يقبل بالقميص الخارجي، بل طلب القميص الذي يلاصق جسم رسول الله ﷺ، فيلبي له الرسول حاجته. هذه هي الأخلاق العظيمة الفاضلة التي استطاع من خلالها النبي ﷺ أن يغيّر وجه التاريخ.

المنبع الرابع: الإنجاز الكبير

لقد حقق النبي ﷺ في زمن قياسي ما اعتبر الإنجاز الأكبر في التاريخ. ولقد أدهش ذلك الإنجاز المفكرين والباحثين في حياة رسول الله ﷺ، لذلك وجدنا باحثًا أمريكيًا وهو الدكتور مايكل هارت حينما كتب كتابه سنة ١٩٧٨م عن المئة الأوائل في تاريخ البشرية، وضمنه أنبياء وفلاسفة وعلماء ومخترعين وقادة سياسيين، فإنه فاجأ الجميع بأن وضع على رأس القائمة اسم نبينا محمد ﷺ. فما الذي دفع هذا الرجل الأمريكي المسيحي أن يجعل هذه الشخصية العظيمة لنبينا على رأس القائمة؟

دعونا نقرأ ما يقول هذا الباحث في مقدمة كتابه: (إنّ اختيار المؤلف لمحمد ليكون على رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيرًا من القراء إلى حد أنه قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقاد المؤلف أن محمدًا ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح

(١) عز الدين علي الشيباني(ابن الأثير). الكامل في التاريخ، ج ٢، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي)، ص٢٥٢.

بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي). ويضيف الباحث: «لقد أسس ونشر محمد أحد أعظم الأديان في العالم وأصبح أحد أبرز الزعماء السياسيين العظام، وفي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا على وفاته، فإن تأثيره لا يزال قويًا وعارمًا».

والدكتور «مايكل هارت» ليس إلا واحدًا من عدد من الباحثين والمفكرين الغربيين الذين أقرّوا بهذه الحقيقةالتاريخية. ويأتي في طليعتهم الفيلسوف الأمريكي المؤرخ «ول ديورانت» مؤلف موسوعة «قصة الحضارة» والذي عبّر عن هذه الحقيقة بقوله: «وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنساناً غيرة حقق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم، وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، ديناً سهلاً واضحاً قوياً، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»[1].

وإننا حين نتحدث عن شخصية رسول الله ﷺ العظيمة يجب أن نؤكد أربعة أمور:

(١) ويليام جيمس ديورانت. قصة الحضارة، ج١٣(عصر الإيمان)، طبعة ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الفكر)، ص٤٧.

أولًا: ضرورة القراءة المتجددة لسيرته. وحينما نقرأ سيرة رسول الله ﷺ في هذا العصر فسوف نكتشف ما لم يكتشفه العلماء السابقون، علينا أن نعيد قراءة سيرته ﷺ على نحو متجدد ومنفتح على روح العصر الذي نعيش، كما قرأها من سبقنا بأزمان طويلة وفقًا لعصورهم وظروفهم.

ثانيًا: تربية الأجيال من أبنائنا على هديه وسيرته. ما أروع أن يحفظ الإنسان بعض القصص من سيرة رسول الله ﷺ وهي كثيرة لكي يتحدث عنها مع أبنائه وعياله، فمن حق أبنائنا الذين ينفتحون الآن على ألوان القصص وبمختلف الأساليب، من حقهم علينا ومن حق نبينا علينا، أن نربيهم على قصص السيرة النبوية وعلى أحداث السيرة.

ثالثًا: الاقتداء بهديه والتزام رسالته. فلا يكفي أن نعجب بسيرة الرسول ﷺ وننبهر بسيرته، وإنما واجبنا إطاعته تبعًا لآي الذكر الحكيم ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾، فهو ﷺ أسوة لنا كما ورد في الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

رابعًا: إيصال رسالته وهديه للعالم. فالبشرية مع تقدمها العلمي والتكنولوجي الهائل في هذا العصر، في حاجة ماسّة للقيم الروحية، والمبادئ الأخلاقية، وهذا ما تفيض به سيرة النبي محمد ﷺ وتعاليمه وتوجيهاته، وحين تصل لشعوب العالم بأسلوب علمي، ولغة عصرية، وعرض مناسب، سيجدون فيها ما يملأ الفراغ الروحي، ويسدّ الخواء النفسي، ويعالج الجفاف الأخلاقي، الذي يعاني منه إنسان هذا العصر.

وأكبر شاهد على هذه الحقيقة التقارير التي تتحدث عن انتشار الإسلام في المجتمعات الأخرى، وخاصة في المجتمعات الغربية، حيث تشير التقارير إلى أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا في تلك المجتمعات، مما أثار قلق بعض الجهات التي صارت تحذر من أسلمة أوروبا، وهو ما يدفع تلك الجهات إلى تشويه سمعة

الإسلام، والإساءة إلى شخصية النبي محمد ﷺ، عبر الأفلام والصور الكاريكاتورية والكتابات المسيئة.

والدفاع عن شخصية النبي محمد ﷺ يكون بعرض سيرته الحقيقية العطرة، ونشر مفاهيم دينه الصحيحة.

نلحظ في حديث القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله، أنه يعرض صور المعاناة التي تحملها الأنبياء وواجهها الأولياء، فهم ليسوا أفرادًا نشأوا في حياة الترف والرخاء، وإنما هم أفراد صقلتهم المعاناة، وأنضجتهم التحديات.

ففي الحديث عن نبي الله موسى عليه السلام تحكي لنا آيات القرآن الكريم كيف أن أمه كانت وجلة عند الحمل به؛ لأن فرعون كان يترصد حوامل النساء من بني اسرائيل فيقتل أبناءهم، ويستحيي نسائهم، فعندما ولدته أمه كانت خائفة عليه، حتى أوحى الله تعالى إليها أن تلقيه في النهر في تابوت، والتقطه جنود فرعون، فقد كان مهددًا بالقتل، إلّا أن الله سبحانه وتعالى أحاطه برعايته وعنايته، وهكذا فيما بعد واجه المشاكل والصعوبات، حتى أصبح في منطقته ومدينته يعيش الخوف والوجل، وأصبح في المدينة خائفًا يترقب، واضطر للخروج منها.

وفي الحديث عن نبي الله عيسى ﷺ تخبرنا الآيات القرآنية عما أثارته طبيعة ولادته من دون أب، من الشكوك وظنون السوء.

وكذلك في الحديث عن نبي الله يوسف ﷺ يستعرض القرآن الكريم كيف أن إخوته حسدوه وألقوه في غيابة الجبّ، وبعد ذلك بيع واشتري بثمن بخس، واستخدم في قصر عزيز مصر، ثم تعرض لتلك المحاولات من زوجة العزيز حتى سجن.

وهكذا يتحدث القرآن الكريم أيضًا عن بلاء نبي الله أيوب ﷺ.

النبي محمد ومعاناة نشأته

وفي الحديث عن نبينا محمد ﷺ، نرى أن الله سبحانه وتعالى يذكره بما واجهه في بداية حياته، حيث كان يتيمًا، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ مات عنه أبوه وهو جنين، وكان مسافرًا للتجارة في قافلة قريش، وحينما أتت القافلة من الشام إلى المدينة تمرّض عبد الله، وهو في ريعان شبابه فمات، والنبي حمل في بطن أمه فولد ﷺ يتيمًا لم يرَ أباه، عاش في كنف جده عبد المطلب، وفي أحضان أمه آمنة رضوان الله عليها، لكن القضاء والقدر كان له بالمرصاد أيضًا، فحينما بلغ السادسة من عمره فقد أمه، فأصبح بلا أب ولا أم، ولليتم تأثير على نفس الإنسان وعواطفه ومشاعره، فتكفل به جده عبد المطلب ﷺ وقام بدور الأب ودور الأم، فكان يحب رسول الله ﷺ ويقربه إليه، لكن عبد المطلب هو الآخر غادر الحياة بعد سنتين، وكان النبي ﷺ في الثامنة من عمره، هكذا عاش النبي حياة اليتم مرة بعد أخرى، وما فيها من مرارة وجرح للأحاسيس والمشاعر، لذلك يمتن الله عليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ قام أبو طالب ﷺ برعايته وحمايته منذ أن كان في الثامنة من عمره، وهكذا واكبته عناية الله سبحانه وتعالى، بعد أن عاش مرارة اليتم المتكرر.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، والضلال هنا بمعنى عدم العلم والمعرفة بالقرآن والشريعة؛ لأن القرآن الكريم لم يكن من عند رسول الله ﷺ إنما هو من عند الله، وقد أوحى الله تعالى إليه في الوقت المحدد الذي أراده الله سبحانه

وتعالى، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القرآن وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[سورة يوسف، الآية:٣]، الضلال ليس بالمعنى المصطلح في مقابل الهداية، وإنما بمعنى أن القرآن بعدُ لم يوحَ إليه، وأن الشريعة لم تنزل إليه.

ويقول تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، فقد كان رسول الله فقيرًا، لا مال له، لم يترك له أبوه إلّا شيئًا قليلًا من المال، وكفيله أبو طالب كان فقيرًا أيضًا، وكان يصعب عليه إعاشة أبنائه وعائلته.

لماذا الحديث عن معاناة الأنبياء

هكذا عاش رسول الله ﷺ حالة اليتم، وفي أوضاع الفقر. ولكن لماذا يتحدث القرآن الكريم عن هذه الصور في حياة الأنبياء والأولياء؟ هذا ما نريد أن نقف عنده لنأخذ العبرة والعظة:

أولًا: لتقرير طبيعة الحياة؛ وأنها تشتمل على المعاناة، فلا يسلم من معاناتها أحد، حتى الأنبياء والأولياء يواجهون هذه الطبيعة في الحياة، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ﴾ أي في معاناة، ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾.

يتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء والأولياء وأنهم عانوا وواجهوا الصعوبات من أجل أن تتقرر هذه الحقيقة أمام أعين الناس، ولا يتوهمون أن للحياة حالة وطبيعة أخرى، هذه هي طبيعة الحياة، والأنبياء والأولياء يخضعون لهذه الطبيعة التي أراد الله تعالى أن تكون الحياة على أساسها.

ثانيًا: لتبديد شكوك الإنسان وسوء ظنه بربه، في بعض الأحيان يواجه الإنسان مشكلة عاطفية أو صحية أو اقتصادية أو اجتماعية، فيتذمر ويصل به الأمر إلى حدِّ عتاب الله سبحانه وتعالى، لماذا يصنع الله بي هكذا؟ هل لأن الله لا يحبني؟ هل لأنه يكرهني؟ هل لأنه يريد أن يؤذيني؟ تمر هذه الخواطر والهواجس على نفس الإنسان،

وكما يقول القرآن الكريم: ﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾؛ لأن الله سبحانه وتعالى كتب له حياة فيها نوع من الضنك والضيم في فترة او اخرى، لذلك يصبح عنده هذا الهاجس، ونحن نسمع عن كثير من الناس حينما يبتلى بمرض، ويكون المرض مؤلمًا مزمنًا، تكون هذه الهواجس في نفسه، يرى الآخرين أصحاء فيعاتب الرب، يا ربّ إن هؤلاء يعيشون الصحة والعافية لماذا تجعلني أنا أسير المرض؟ لماذا تصيبني بهذا الابتلاء؟

والإنسان حينما يبتلى بالفقر والحاجة، ويرى الآخرين لديهم الأموال والثروات يتجه إلى الله سبحانه وتعالى معاتبًا، يا رب، لماذا تعطي أولئك وتحرمني؟ ما ذنبي حتى أكون فقيرًا؟ وهكذا من يمر بمشكلة عاطفية، أو مشكلة اجتماعية، قد تكون مثل هذه الهواجس في نفسه.

على الإنسان أن يكون بصيرًا واعيًا، المسألة لا ترتبط بأن الله يحبك أو يكرهك، الله تعالى يحب كل خلقه، وكل عباده، لكن المسألة ترتبط بتقدير الله وحكمته، أنت لا تعرف الأسرار ولا تعرف الخفايا؛ لأن هذا الابتلاء خير وثواب لك، وكما ورد في النصوص والأحاديث أن القدر المتيقن أن الإنسان المبتلى في الدنيا يعوضه الله سبحانه وتعالى عن بلائه في الدنيا برخائه في الآخرة، وإذا خيّر وكان يحسن الاختيار، ماذا يختار الإنسان، هل أنت ستعيش في هذه الدنيا مدة محددة وتنتقل إلى دار هي الحياة الخالدة الباقية، تريد أن تتأذى هنا وترتاح هناك أم العكس؟ الإنسان يريد من الله الخير في الدارين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ ولكن لو كان بين الخيارين فإن العاقل سيختار الصبر على البلاء المحدود في هذه الدنيا، من أجل أن ينال ثواب الله ورضاه في الآخرة.

لذلك على الإنسان أن يقرأ سير الأنبياء والأولياء، ويرى المعاناة التي تحملوها، لو كان الابتلاء والمحنة كراهة أو إهانة من الله تعالى، لما حدث ذلك للأنبياء والأولياء.

نصوص كثيرة توجه الإنسان أن يكون حسن الظن بربه، ولا يكون سيئ الظن بربه، مع الناس قد يخالجك سوء ظن، ولكن مع الله هل يحق لك أن تسيء الظن في الله، وهو الذي خلقك وأوجدك وإليه مصيرك؟ ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله»[١].

عليك أن تطمئن وأن تعتقد أن ما يصيبك من الله هو خير، عليك أن تكون راضيًا بقضاء الله وقدره، ولا يعني هذا ألّا يسعى الإنسان لمواجهة الظروف الصعبة وتبديلها، هذا بحث آخر، نحن نتكلم فيما لا يستطيع الإنسان تبديله وتغييره، عليه أن يحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس من عبد يظن بالله خيرًا إلّا كان الله عند ظنه به»[٢]، وعنه ﷺ أنه قال: «فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه»[٣].

المحنة وفرص الاستفادة

ثالثًا: على الإنسان أن يستفيد من المحن ومن مواجهة التحديات بتفجير طاقاته وصقل شخصيته وإرادته، الأنبياء والأولياء شاء الله أن يمروا بالمحن من أجل أن تصقل شخصياتهم وأن تظهر ملكاتهم الفاضلة أمام الناس، كيف يتعرف الناس على الشخص العظيم، والشخص المثالي؟ إنما يتعرفون عليه حينما يرون مواجهته للتحديات، ويرون حسن إدارته لمشاكل الحياة، لذلك تتجلى شخصيته وكفاءته، فعلى الإنسان أن يسعى ليحوّل المحنة إلى منحة، هذه المحنة التي تمر عليك اعتبرها منحة لصقل شخصيتك وإنضاجها ولتفجير كفاءاتك وقدراتك، وهذا ما رأيناه في حياة البارزين والقادة، كيف أن الصعوبات والتحديات والمحن هي التي صنعت

---

(١) علاء الدين علي المتقي الهندي. كنز العمال. ج ٣، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص١٣٦.

(٢) بحار الأنوار. ج٦٧، ص٣٨٤.

(٣) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة. ج١٥، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث)، ص٢٣٠.

منهم شخصيات قوية صامدة، ودفعتهم لتفجير طاقاتهم وقدراتهم، الحاجة أُمُّ الاختراع كما قيل، الإنسان الذي يولد وفي فمه ملعقة من ذهب غالبًا لا يجد حاجة للسعي وللجد وللاجتهاد؛ لأنه يعيش مرفّهًا وكل شيء متوفر له.

نرى الآن في المجتمعات الأخرى التي تنتخب زعماءها ورؤساءها كيف ينتخب الرئيس في أمريكا؟ أو في أي مكان آخر؟ ينتخب بعد أن يرى الناس سيرته، وكفاءته، وقدرته، وخاصة من خلال ما تقتضيه عملية الانتخاب من لقاءات ومناظرات.

والتحديات التي يمر بها الإنسان الذي يرشح نفسه للرئاسة أو المقام، والتي يواجهها هي التي تبرز كفاءته وقدرته أمام الناس، هكذا ينبغي أن يفكر الإنسان في حياته، لا يفكر أن يعيش حياة الرفاهية والرخاء، فهي غالبًا تصيب الإنسان بالتبلد والكسل، حيث لا يسعى لتفجير طاقاته وقدراته، ليس هذا على نحو التعميم، ولكن من حيث المعظم والغالب، وعلى الناس أفرادًا ومجتمعات وخاصة المجتمعات التي تتعرض لصعوبات، عليها أن تستفيد من محنتها في تفجير طاقاتها وكفاءاتها، وترتقي إلى مستوى التحدي، هذا ما تريد الآيات الكريمة والسيرة الشريفة للأنبياء والأولياء أن توحي لنا به، أن نتعامل مع المشاكل كحالة طبيعية في هذه الحياة التي لا تخلو من المشاكل والصعوبات، وألّا نسمح للهواجس السلبية السيئة وسوء الظن تجاه الخالق سبحانه وتعالى أن تتسلل إلى نفوسنا، الله رحيم بعباده، وهو أرحم بك من كل أحد، أرحم بك وأرأف عليك حتى من نفسك، وأخيرًا أن نتحدى المشاكل والصعوبات بتفجير الطاقات والمواهب والكفاءات.

أمّ المؤمنين خديجة مثلٌ أعلى

لأمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد فضل عظيم وحقٌّ كبير على كلّ مسلم يعتزّ بدينه؛ وذلك لدورها الكبير والأساس في نصرة هذا الدين، في بدايته الحرجة. هذه المرأة يجب الاحتفاء بها، ويجب أن تُجلّى شخصيتها كقدوة وكمثل أعلى للنساء، إنها امرأة لم تقبل لنفسها أن تكون في الهامش، وإنما أخذت موقعًا في مجتمعها، وكان لها تأثير على مسيرة التاريخ.

كانت خديجة ﵂ تحترف التجارة، وقد كونت من هذه التجارة الواسعة ثروة عظيمة، وامتدت تجارتها إلى الشام حيث كان النبي ﷺ أحد المسافرين ضمن نشاطها التجاري إلى بلاد الشامّ. إن إدارتها لهذا التجارة الواسعة، وخاصة في ذلك الوقت، تكشف عن نفسية تمتلك مواصفات قيادية، وفهمًا للواقع العام في المجتمع.

إضافة إلى ذلك، أنها اكتشفت مبكرًا الشخصية العظيمة لرسول الله ﷺ بنباهتها وبإدراكها. عرفت أن هذا الشخص ليس شخصًا عاديًّا، وأنه متميز في سلوكه وأخلاقه وحركته، لذلك هي من خطبته لنفسها كما ورد في التاريخ. ولا ينسى لها الإسلام ورسوله موقفها في تصديق رسول الله ﷺ وشدّ عزيمته، حينما حدثها ﷺ عن بداية نزول الوحي، وكان يعيش الرهبة لذلك الموقف، قالت له: «كلّا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتُقري الضيف وتُعين على النوائب»[1]، اكتشفت هذه الأخلاق المهمة في شخصية رسول الله ﷺ، واستنتجت منها أن شخصًا يحمل هذه الأخلاق، ويجسّد هذه القيم، لا يخزيه الله، ولا يسير في طريق الضلال أبدًا، لذلك سارعت وبادرت إلى التصديق بنبوته، فكانت أول من أسلم من النساء.

خديجة القدوة

خديجة قدوة في تكريس الحياة لخدمة الأهداف السامية. فهي لم تنشغل بما انشغلت به بقية النساء من اللهو والزينة والمكاسب الوقتية الآنية، وإنما وظفت ثروتها ومكانتها الاجتماعية في خدمة الرسالة والمبدأ، أعلنت أن كلّ ما تملك من خدم ومال تحت تصرف رسول الله ﷺ.

قريش لم تكن راضية ومرتاحة لانطلاق دعوة الإسلام؛ لذلك اتخذوا موقفًا من النبي وممن سانده، فخديجة تلك المرأة المحترمة المقدرة في المجتمع، نالها الحصار وقوطعت، حتى إنّ بعض الروايات التاريخية تتحدث أنها عند ولادتها لم يحضرها أحد من النساء؛ لأنها كانت مقاطعة من قبل نساء مجتمعها، بعد أن كانت لها مكانة في أوساطهن! كلّ ذلك لأنها أيّدت ودعمت رسول الله ﷺ، وكانت تمثل السند النفسي الكبير للنبي ﷺ، قال ابن إسحاق: وَكَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أَوَّلَ مَنْ آمَنْ باللَّه وَبِرَسُولِهِ، وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَ مِنْهُ. فَخَفَّفَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ، لَا يَسْمَعُ شَيْئًا

(١) صحيح البخاري. ج١، ص٦، حديث٣.

مِمَّا يَكْرَهُهُ مِنْ رَدٍّ عَلَيْهِ وَتَكْذِيبٍ لَهُ، فَيُحْزِنُهُ ذَلِكَ، إِلَّا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا، تُثَبِّتُهُ وَتُخَفِّفُ عَلَيْهِ، وَتُصَدِّقُهُ وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ»[1].

وجدير بالمرأة المسلمة أن تتخذ من خديجة قدوة في مساندة الزوج. الذي يكافح في دروب الحياة ويواجه المشاكل، فيحتاج من الزوجة أن تقوم بدور الداعم له في مواجهة الآلام والمشاكل. ففي بعض الأحيان، حينما لا تكون الزوجة واعية، فإنها تضيف إلى زوجها آلامًا بطريقتها السلبية في التعامل. على الزوجة أن تدرك أن زوجها وهو يقبل إلى البيت بعد كدحه اليومي، يحتاج إلى دعمها ومساندتها، فعليها أن تستقبله بما يخفف عنه تلك المعاناة، وبما يريحه نفسيًّا وخاصة إذا كان يحمل همًّا رساليًّا اجتماعيًّا. أمّ المؤمنين خديجة كانت تقوم بهذا الدور لرسول الله ﷺ، فهي اكتشفت عظمته، ووضعت كلّ إمكاناتها المادية والاجتماعية في دعمه ماديًّا ونفسيًّا، ويمكننا أن ندرك أهمية دورها، إذا عرفنا الفراغ الذي تركته في حياة رسول الله ﷺ بعد وفاتها، حيث تألم وتأثر كثيرًا لفقدها الذي جاء في نفس العام الذي توفي فيه عمّه الرؤوف المدافع عنه أبو طالب عليه السلام، حتى أطلق رسول الله ﷺ على ذلك العام عام الحزن.

في قلب رسول الله ﷺ

لكلّ ذلك فإن رسول الله ﷺ عرف لخديجة هذا القدر والمكانة، وتحدّث عنها في أكثر من حديث ومورد، حتى يبين مكانتها للأجيال المقبلة من أبناء الأمة، ولتكون أنموذجًا يقتدى به في مسيرة الحياة.

إنّ الزوج إذا منحه الله زوجة صالحة وفية كما هو شأن غالب الزوجات، فتلك نعمة عظيمة؛ لأنها تنجب للإنسان ذريته وأبناءه، وتتحمّل عناء الحمل والولادة ومخاطرها، وأعباء التربية وأتعابها، كما أنها الستر عليه كما يقول تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج ٢، ص ٣٠٠.

لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

النبي ﷺ كان يتحدث كثيرًا عن مكانة خديجة وفضلها، حتى إنّ بعض نسائه غرن منها، ماتت خديجة لكن ذكرها كان حيًّا في قلب رسول الله ﷺ. تقول عائشة: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ حَتَّى يَذْكُرَ خَدِيجَةَ فَيُحْسِنُ الثَّنَاءَ عَلَيْهَا، فَذَكَرَهَا يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ فَأَدْرَكَتْنِي الْغَيْرَةُ، فَقُلْتُ: هَلْ كَانَتْ إِلّا عَجُوزًا فَقَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا، فَغَضِبَ حَتَّى اهْتَزَّ مُقَدَّمُ شَعْرِهِ مِنَ الْغَضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «لا وَاللهِ، مَا أَبْدَلَنِي اللهُ خَيْرًا مِنْهَا، آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي فِي مَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ مِنْهَا أَوْلادًا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لا أَذْكُرُهَا بِسَيِّئَةٍ أَبَدًا[1]. وفي نصٍّ آخر تقول عائشة: «ما غِرتُ على أحدٍ من نساءِ النبي صلَّى ﷺ ما غِرتُ على خديجةَ، وما رأيْتُها، ولكن كان النبيُّ ﷺ يُكثرُ ذِكرَها»[2].

ومن عرفان رسول الله ﷺ لفضل خديجة، أنه كان حينما يذبح الشاة يسأل عن صديقات خديجة فيهديها لهنّ وفاءً لخديجة. وقد ورد أنه «أتى جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ اللهِ، هذه خديجةُ قد أَتَتْ، معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أَتَتْكَ فاقرأْ عليها السلامَ مِن ربِّها ومنِّي، وبشِّرْهَا ببيتٍ في الجنةِ مِن قَصَبٍ لا صَخَبٌ فيه ولا نصبٌ»[3].

وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»[4]

هكذا كانت أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد سلام الله عليها ورزقنا شفاعتها وثبتنا على محبتها ومحبة ذريتها.

---

(١) يوسف بن عبدالبر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص١٨٢٤، حديث٣٥٧.

(٢) صحيح البخاري. ص٤٩٢، حديث٣٨١٨.

(٣) المصدر نفسه. ص٤٩٣، حديث٣٨٢٠.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج١، ص٧٥٢، حديث٢٦٦٨.

خيركم لأهله

تمثل العائلة الدائرة الاجتماعية الأقرب للإنسان. فمتى ما كانت الأجواء السائدة في العائلة طيبة، كان الإنسان أكثر سعادة وسرورًا، أما إذا كان الوسط العائلي مليئًا بالتوترات، فهذا يجعل حياة الفرد أكثر انزعاجًا ونكدًا.

فهناك ما يريح الإنسان ويسرّه، وهناك ما يزعجه ويؤذيه، وكلما كان الوضع السار أقرب إلى الإنسان جعله أكثر سرورًا، والعكس بالعكس. وذلك يشبه تمامًا تعاطي الإنسان مع مصادر الروائح، فالرائحة الطيبة العطرة يرتاح لها الإنسان ولذلك يقربها من أنفه، وعلى العكس من ذلك إذا شمّ رائحة كريهة فإنه يحاول أن يبتعد عنها لأنها تؤذيه. من هنا ينعكس تأثير العائلة على الفرد على نحو مباشر؛ لأنها الدائرة الأقرب له، فهو يعيش معها تحت سقف واحد، وتتشابك مصالحه معها، ويتأثر بوضعها، كما تتأثر العائلة بوضع أيّ فردٍ من أفرادها.

لقد وردت العديد من النصوص المؤكدة على الاهتمام بالعائلة على نحو خاص. ذلك لأن سلامة الوضع العائلي سينعكس إيجابًا على السلامة النفسية والصحية للفرد.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[١].

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من حسن بره بأهله زاد الله في عمره»[٢]، ومضمون ذلك أن علاقة الإحسان والبر بالعائلة تؤدي بطبيعة الحال لارتياح الإنسان مع عائلته، وهذا ينعكس على حياته العامة، وفاعليته وعطائه في الدراسة والعمل، وحتى الأخلاق والتعامل مع الآخرين، فالحالة العائلية السليمة منها يتعلم الإنسان، وتتعزز عنده الأخلاقيات والسلوكيات والآداب العامة. إذ يتأثر الفرد بالسلوك والأخلاق السائدة داخل عائلته.

الأجواء الإيجابية في الأسرة

إن مسؤولية صناعة الأجواء الإيجابية داخل الأسرة تقع على عاتق جميع أفرادها. فليس من الصحيح تقاذف المسؤولية، سواء بين الزوج والزوجة أو الأولاد، إن الجميع مسؤول عن توفير الأجواء الإيجابية. من هنا جاء الخطاب النبوي موجهًا للجميع، فقال ﷺ: «خيركم ـ يعني أكثركم خيرًا ـ خيركم لأهله»، وتأتي أهمية هذا الحديث النبوي، انطلاقًا من مشكلة شائعة مفادها، إصابة بعض الناس بالازدواجية في الشخصية، فمثل هؤلاء غالبًا ما يتقمص مع الناس دور الشخصية اللطيفة الطيبة، فيما يتقمص داخل المنزل ووسط العائلة شخصية أخرى مغايرة.

في بعض الأحيان، نسمع عن شكاوى عائلية ضد أشخاص معروفين في الأوساط العامة بحسن الأخلاق، فكيف تشكو منهم زوجاتهم وعوائلهم!، وعند

(١) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (الرياض: مكتبة المعارف)، حديث ٢٨٥.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي. ج٨، طبعة٥٠٤١هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص١٨٤، حديث٢٦٩.

الفحص سرعان ما يتبين أن هناك ازدواجية في الشخصية لدى هذا الشخص أو ذاك، تدفعه باتجاه التعاطي على نحو مختلف داخل الأسرة عنه في خارجها، الأولى أن تكون شخصية المرء مع أهله أفضل منها مع الناس، وبذلك يفخر رسول الله ﷺ «وأنا خيركم لأهلي». ومثل ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام «لا يكن أهلك أشقى الخلق بك»[١].

ثمة العديد من التوجيهات الإسلامية التي ترمي لإنجاح العلاقات العائلية، ومنها:

الاهتمام بالعلاقة مع العائلة

تشدد التعاليم الإسلامية على إيلاء الفرد اهتمامًا أكبر بحسن علاقته بالعائلة، أكثر من علاقته مع الناس. غير أن البعض يمارس العكس، كما لو كانت العلاقة مع العائلة شيئًا كماليًا! وهذا بخلاف تعاليم الإسلام التي توجه الإنسان إلى أن يعطي هذا الجانب أهمية كبيرة، بل إن بعض النصوص ترى أن حسن العلاقة مع العائلة أفضل من كثير من العبادات، والأعمال الصالحة. فقد ورد عن رسول الله ﷺ «جلوس المرء عند عياله أحب إلى الله تعالى من اعتكاف في مسجدي هذا»[٢]، وعنه ﷺ «أعظم الناس حقًا على المرأة زوجها»[٣]، فالمرأة التي تهتم بالزيارة وحضور المجالس الدينية وكثير من العبادات، عليها أن تعلم أن أعظم الناس حقًا عليها هو زوجها، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «لا شفيع للمرأة أنجح عند ربها من رضا زوجها، ولما ماتت فاطمة عليها السلام قام عليها أمير المؤمنين عليه السلام وقال: اللهم إني راضٍ عن ابنة نبيك»[٤]. وكأن غرضه عليه السلام أن يبين أن حالة رضا الزوج عن الزوجة له أهميته قصوى حتى بالنسبة لامرأة عظيمة كفاطمة الزهراء عليها السلام. وورد عنه ﷺ «ويل لامرأة أغضبت زوجها وطوبى لامرأة رضي

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة. الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، تحقيق مؤسسة نهج البلاغة، دمشق، كتاب ٣١.
(٢) أبي الحسين ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري. تنبيه الخواطر، ص١٢٢.
(٣) كنز العمال. ج١٦، ص٣٣١، حديث ٤٤٧٧١.
(٤) بحار الأنوار. ج٧٨، ص٣٤٥.

عنها زوجها»[١].

وكذلك على الجانب الآخر، فقد شددت النصوص على ضرورة اهتمام الرجل بأهله. فقد ورد عن رسول الله ﷺ «أوصاني جبريل عليه السلام بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلّا من فاحشة مبينة»[٢]، وفي حديث عنه ﷺ «من كانت له امرأة تؤذيه لم يقبل الله صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعينه وترضيه.... وعلى الرجل مثل ذلك الوزر إذا كان لها مؤذيًا ظالمًا»[٣]. لقد جاءت جميع هذه النصوص لغرض تأكيد أهمية العلاقات العائلية وأولويتها في حياة الأفراد.

الخدمة داخل العائلة

إن أحد عوامل نجاح العلاقة العائلية، هو بلوغ أفراد الأسرة حدّ التباري في خدمة بعضهم بعضًا. وذلك بأن يعمل الرجل على خدمة زوجته وأبنائه، فيما تقوم الزوجة والأولاد بخدمة الأب. يقول النبي ﷺ فيما روي عنه: «لا يخدم العيال إلّا صديق أو شهيد أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة»[٤]، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «إذا سقى الرجل امرأته الماء أُجر»[٥]، وورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إن أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله»[٦]. فلا ينبغي للرجل أن يجلس في البيت وكأنه جلالة الملك يأمر وينهى فقط؛ لأن في خدمته لعياله أجرًا كبيرًا.

التنازلات المتبادلة

على غرار باقي العلاقات، تبقى العلاقة العائلية خاضعة لمعايير العلاقات البشرية بما يعتريها من أخطاء. فوقوع الأخطاء من أفراد العائلة هو أمر طبيعي نتيجة الغفلة

(١) وسائل الشيعة. ج٢٠، ص٢١٤، حديث٢٥٤٥٧.
(٢) الكافي. ج٥، ص٥١٢، حديث٦.
(٣) الحاج آقا حسين الطباطبائي البروجردي. جامع أحاديث الشيعة، ج٢٠، ص٢٥٤، حديث ٨٠٤.
(٤) الميرزا حسين النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل. ج١٣، ص٤٩، حديث١٤٧٠٦.
(٥) كنز العمال. ج١٦، ص٢٧٥، حديث٤٤٤٣٥.
(٦) الكافي. ج٤، ص١١، حديث ١.

أو نحو ذلك، لذلك ينبغي للفرد من العائلة أن يكون مرنًا في تقبل الأخطاء، وليس من الصحيح أن يتحلى بعض الناس بالمرونة في تقبل أخطاء الآخرين خارج البيت، فيما يصعب عليه تقبل ذلك من أفراد عائلته، فهذا خطأ كبير. فقد ورد في هذا الصدد عن الإمام الباقر عليه السلام القول: «إني لأصبر من غلامي هذا ومن أهلي على ما هو أمر من الحنظل، إنه من صبر نال بصبره درجة الصائم القائم ودرجة الشهيد»[١]. إن على الإنسان أن يتحلى بمزيد من التحمل تجاه المشاكل العائلية. وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا ومن صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر أعطاه الله ثواب الشاكرين»[٢].

وقد ضرب صلى الله عليه وآله أروع الأمثلة في التعامل مع أسرته، ومن ذلك ما رواه أبو يعلى بسند لا بأس به وأبو الشيخ بن حيان بسند جيد قوي عن عائشة أنها قالت: كان في متاعي خف وكان على جمل ناج وكان متاع صفية فيه ثقل، وكان على جمل ثقال فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب»، قلت: يا لعباد الله، غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله صلى الله عليه وآله قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أم عبدالله، إن متاعك فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل، فأبطأ الركب فحولنا متاعها على بعيرك وحولنا متاعك على بعيرها، قالت: فقالت: ألست تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أوفي شك؟ أنت يا أم المؤمنين يا أم عبدالله، قالت: قلت: ألست تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وآله، فهلا عدلت، وسمعني أبو بكر وكان فيه غرب، أي حدة، فأقبل عليَّ فلطم وجهي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مهلًا يا أبا بكر»، فقال: يا رسول الله، أما سمعت ما قالت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه»[٣]. والشاهد فيه موقف رسول الله صلى الله عليه وآله من زوجته وكيف تلمّس لها العذر.

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٥، ص٢٦٤، حديث٢٠٤٥٨.

(٢) محمد بن علي بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه. ج ١، الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ص١٦.

(٣) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. ج٩، ص٧١.

ينبغي أن يتحلى المرء بالمرونة في علاقاته العائلية وألّا يقف متصلبًا عند الأخطاء. فتحمل الأخطاء هو أحد عوامل قيام الحياة العائلية السعيدة، أما إذا تمسك كل طرف في العائلة بموقفه المتعنت من الآخر، واختار التعامل بشدة مع الطرف المخطئ، هنا لا تنتظم الحياة العائلية. ولذلك يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. والمودة هي المحبة، بينما الرحمة تعني العطف والشفقة في حالة الضعف والحاجة، لذلك على كل منا أن يهتم بصناعة جوٍّ سعيد في عائلته، وأن يجعل هذه الدائرة في حياته الأكثر اهتمامًا في تعامله والأوفر نصيبًا من إحسانه.

يغمر ابنته بالحنان والتكريم

الأحاديث التي ترويها مصادر الحديث من مختلف المذاهب عن رسول الله ﷺ في حق ابنته فاطمة الزهراء أحاديث كثيرة، وحينما يقف الإنسان أمامها متأملًا فإنه يستطيع أن يستنتج منها الكثير. ومن هذه الأحاديث نذكر ما يلي:

- ورد عن أم المؤمنين عائشة قالت: «ما رأيتُ أحدًا أَشْبَهَ سَمْتًا ودَلًّا وهَدْيًا برسولِ اللهِ في قيامِها وقعودِها من فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالت: وكانت إذا دَخَلَتْ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قام إليها فقَبَّلَها وأَجْلَسَها في مَجْلِسِهِ»[1]. وزاد الحاكم في رواية أخرى، وكانت إذا دخل عليها رسول الله ﷺ قامت إليه مستقبلة وقبلت يده[2].

(١) محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي. سنن الترمذي. ج٤، ص٥٣٩، حديث ٣٨٧٢.

(٢) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٦٠.

- وورد عن عبدالله بن الزبير عن رسول الله ﷺ قال: «إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها، وينصبني ما أنصبها»[١].
- وعن أسامة بن زيد عنه ﷺ: «أحب أهلي إليَّ فاطمة»[٢].
- وعن علي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجاب: يا أهل الجمع، غضوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد حتى تمرّ»[٣].
- وفي حديث أخرجه البخاري عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»[٤].
- وعن علي عليه السلام أن النبي ﷺ قال لفاطمة عليها السلام: «أَلَا تَرْضَينَ أن تكوني سيِّدةَ نساءِ أهلِ الجنَّةِ»[٥].
- وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل ملك من السماء فاستأذن الله أن يسلّم عليَّ فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[٦].
- وعن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: «إنَّ اللهَ يغضبُ لغضبكِ، ويرضى لرضاكِ»[٧].
- وفي حديث عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: «فداك أبي وأمي»[٨].

---

(١) كنز العمال. ج١٢، ص١٠٧.
(٢) المستدرك على الصحيحين. ج٢، ص٦.
(٣) المصدر نفسه. ج٣، ص١٦٦، حديث٤٧٢٨.
(٤) صحيح البخاري. ج٢٩، ص٤٨٠، حديث ٣٧٨٧.
(٥) علي بن أبي بكر الهيثمي. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٢، طبعة ١٤٠٦هـ، (مؤسسة المعارف)، ص٣٢١.
(٦) كنز العمال. ج١٢، ص١١٠.
(٧) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص١٦٧، حديث٤٧٣٠.
(٨) المصدر نفسه. ج ٣، ص ١٧٠، حديث٤٧٤٠.

■ وعن محمّد بن قيس قال: أنه ﷺ قال عنها: «فِدَاهَا أَبُوهَا»[1].

هذه الأحاديث الكثيرة يمكننا أن نستنتج منها أمورًا:

مكانة فاطمة:

الأول: إظهار مكانة فاطمة وعظمتها؛ لأنّ الرسول لا ينطق عن الهوى، كلامه ليس من باب العاطفة، لو لم تكن فاطمة مستحقة لهذا القول منه لما قاله، إذًا نحن نستطيع أن نفهم من هذه الأحاديث شيئًا من مقام فاطمة الزهراء ﷺ بمقدار استيعابنا لا كلّ قدرها ومقامها، ويكفي أنها في المباهلة كانت ممثلة لجميع نساء الأمة بنص الآية الكريمة: ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ وكانت للرسول ﷺ تسع زوجات، ولديه عمّات وصحابيات جليلات، لكنه خرج بابنته فاطمة لتمثل كل نساء الأمة.

الحق مع فاطمة

الثاني: تزكية سيرة ومواقف الزهراء ﷺ؛ لأن هذه الأحاديث تدلّ على أن مواقف الزهراء وكلامها صحيح وحق، فهي تزكية لكل مواقفها وسيرتها، وهذا يعني أننا حينما نقرأ في التاريخ عن أيّ خلاف بين فاطمة وبين أيّ أحد آخر، لا بُدّ أن يكون الحق معها؛ لأن الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها، وأحب الناس لرسول الله ﷺ فهل يمكن أن يقع الخطأ في مواقفها؟ وحينما نقرأ ما حصل بعد وفاة رسول الله ﷺ من مطالبة الزهراء بفدك علينا أن نعلم أن هذه الأحاديث تستدعي تزكية مواقف السيدة الزهراء وأن قولها يمثل الحق.

نموذج للتربية السليمة للفتيات:

الثالث: هذه الأحاديث تشير إلى منهج التربية السليم للبنات، فإن الإسلام جاء في بيئة كان الناس ينظرون فيها للبنت نظرة دونية، فالولد الذكر هو المفضل، ويوثق القرآن الكريم هذا المشهد الجاهلي بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ

(١) أبي جعفر محمد بن علي بن شهرأشوب. مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص١٢١.

وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وجاء رسول الله ﷺ ليقود البشرية إلى المنهج الصحيح، ويدشن عهدًا جديدًا للتعامل مع المرأة، كان العرب يعيشون حياة المعارك والحروب، فيعطون الأولوية لكل ما يمثل قوة لهم، وهذا مصدر اهتمامهم بالأولاد الذكور لحاجتهم إليهم في الحروب والمعارك، بينما قد تصبح المرأة عبئًا على القبيلة في الحروب حينما تسبى.

إضافة إلى المفاهيم الجاهلية والآراء السلبية التي كانت عندهم عن المرأة، حتى جاء الإسلام برسالة جديدة نسف بها هذه النظرة الدونية للمرأة، بل وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تميّز موقع المرأة حيث كان ﷺ يبارك لمن تكون بكرها بنتًا، وهذا ما نستفيده من رواية الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عن رسول الله ﷺ: «من يُمْنِ المرأة أن يكون بكرها جارية»[1].

ولأن البنت لديها مخزون كبير من العاطفة، تهيئة للدور الذي تقوم به باعتبارها الأم التي تلد وتربي الأجيال، لذلك فإنها في مرحلة التربية والتنشئة بحاجة إلى الكثير من الرعاية والحنان، ولنا في رسول الله ﷺ في تعامله مع بضعته الزهراء أسوة حسنة، فأحاديثه التي تبيّن جانبًا من عظمة ومكانة الزهراء، تمثل أنموذجًا لتربية الفتيات ومراعاة مشاعرهن. يروي ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج وليبدأ بالإناث قبل الذكور»[2]؛ لأن البنات يحتجن إلى رعاية عاطفية في تنشئتهن أكثر من الصبيان.

إن دول العالم الإسلامي ومجتمعاته كان يجب أن تكون سبّاقة في حسن التعامل مع المرأة، وفي إجلالها وتكريمها، لكن يبدو أن رواسب الجاهلية لا تزال تتوارث في مجتمعاتنا، لذلك تعاني المرأة إلى الآن من النظرة الدونية، فلا يزال موضوع مشاركة

(١) مستدرك الوسائل. ج١٤، ص٣٠٤.
(٢) وسائل الشيعة. ج٢١، ص٥١٤.

المرأة في الشأن العام، ومكانتها في المجتمع، فيه الكثير من التهميش والإجحاف، وهذا مخالف لتعاليم الدين.

البعض من الناس يرون أن الدين يأمر بذلك، وأن الدين يريد للمرأة أن تكون في موقع أدنى من الرجل، ولكن عند البحث الموضوعي، والخروج من التقاليد والأعراف، لا نرى صحة لهذا الرأي والتوجه، ومن المؤسف جدًا أن معظم شعوب العالم غادرت تلك الحالة لكننا لا نزال نناقش هل يصح للمرأة أن تقود السيارة أم لا؟ هل يجوز لها أن تشارك في الانتخابات البلدية أو المجالس البرلمانية أم لا؟

علينا أن نتساءل: لماذا لا تشارك؟ وما المانع في ذلك؟ أليس ما يتخذ من قرارات تنعكس على حياتها ومصيرها؟ لماذا للرجل حق المشاركة ولا يكون ذلك للمرأة؟

حتى في الجانب الاجتماعي فإن البنت تعيش حالة من الكبت خلافًا للولد الذكر، الذي ينعم بمجالات كثيرة للترفيه عن نفسه كالنوادي الرياضية، وأماكن التنزه، وقيادة السيارة، وما شابه، وكذلك الحال في المجال الوظيفي فإن فرص الولد أكثر بكثير من البنت. أفلا يكون هذا الكبت مدعاة لكثير من المشاكل التي تقع فيها الفتيات؟

ماذا تعمل البنت في هذا العصر مع انفتاحها على العالم وهي تشعر بالدونية؟ كتب عليها أن تكون مكبوتة مزوية في البيت، إضافة إلى تعرضها في كثير من الأحيان إلى حياة القسوة والجفاء العاطفي، وهذا ما يلجئ بعضًا من الفتيات إلى اتخاذ طرق خاطئة، والتعرض للابتزاز من قبل ذوي النفوس الضعيفة.

وتتحدث الصحف المحلية عن تكرر حالات هروب فتيات من منازلهن، فما الذي يدفع فتاة أن تهرب من بيت أسرتها؟ لولا وجود دافع لذلك، ولو لا أنها تفقد الدفء والحنان والأمن في البيت.

ونسمع عن ظاهرة أخرى وهي إقدام فتيات على الانتحار!، كما تكشف عن ذلك الإحصائيات من قبل المستشفيات المحلية، التي تشير إلى إقدام فتيات على الانتحار بين الرابعة عشرة والعشرين من العمر، حيث تصلهم بعض الأحيان في كل أسبوع من

حالة إلى حالتين!

أفلا يكشف هذا عن نوع من الإهمال للبنات؟

حينما نقرأ روايات تعامل النبي مع ابنته الزهراء ﷺ، فعلينا أن نهتم ببناتنا وحسن التعامل معهن، وعلى المجتمع أن يوفّر فرصًا يستطيع من خلالها الاستفادة من طاقات الفتيات وإبراز قدراتهن، حتى يشاركن في بناء المجتمع.

إضاءة ثانية

معركة التغيير

المجتمعات والأفكار الجديدة

في يوم المبعث النبوي الشريف، هبط رسول الله ﷺ من غار حراء وهو محمّل بأعباء رسالة عظيمة في مجتمع جاهلي، يعرف ﷺ مدى عناد ذلك المجتمع، ومدى الجهل المتفشي فيه. ولكن الله تعالى كلفه أن يقوم بهذه المهمة، وأعلمه أنها مهمةٌ ثقيلة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية٥]، وكان رسول الله ﷺ مهيئًا ومستعدًا لتحمل أعباء هذه الرسالة العظيمة.

نريد هنا أن نتحدث عن موقف الناس تجاه البعثة النبوية في ذلك العصر، وأساسًا موقف الناس تجاه الأفكار الجديدة الهادية.

عبر التاريخ كانت هناك أفكار هادية مفيدة تُطرح على المجتمعات البشرية من أحد مصدرين: إما من تطور عقل الإنسان وتجربته، وإما من الوحي. وغالبًا ما كانت هذه الأفكار الهادية الجديدة تواجه في البداية إعراضًا وإنكارًا، وقلّ أن تجد دعوةً من دعوات الرسل والأنبياء أو المصلحين استُقبلت في أيامها الأولى بالترحيب والتجاوب، بل على

العكس من ذلك عادة ما تواجه بالتكذيب والاستهزاء والصدّ، ولكن بعد مدةٍ من الصمود والاستقامة والمواجهة قد تصل تلك الدعوة الإلهية أو تلك الأفكار الإصلاحية إلى مستوى من القبول والنجاح، وقد لا تصل.

وهنا نسلط الضوء على طبيعة موقف المجتمعات من الأفكار الجديدة، حيث تنطلق المعارضة والتحفّظ غالبًا من الأسباب التالية:

أولًا: موقف اللامبالاة

أكثر الناس لا يُبالون تجاه الدعوات والأفكار التي تُطرح في عصورهم ومجتمعاتهم، مهما كانت نوعية الفكرة والدعوة المطروحة، سواءً على الصعيد الديني أو السياسي أو الاجتماعي، وقلَّ أن تجد في بداية طرح الأفكار تجاوبًا أو تفاعلًا، إذ إن أكثر الناس غير مبالين ولا يجدون أنفسهم معنيين بما يُطرح من أفكار لانشغالهم بأمور حياتهم.

وفي السيرة النبوية العطرة نجد أن رسول الله ﷺ عندما بدأ بتبليغ رسالته وُوجه بالإعراض وعدم التجاوب من أكثرية الناس، وكانوا يتعمدون إظهار اللامبالاة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[سورة فصلت: الآية ٢٦]، وكان بعضهم يستقبل الزائرين لمكة ليُقنعهم بأن يضعوا قطنًا في آذانهم حتى لا يسمعوا كلام رسول الله ﷺ، لتتجدد المعاناة التي تحملها نبي الله نوح عليه السلام من قومه كما يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [سورة نوح: الآيات ٥-٧].

في مقابل هذه الحالة كان هناك أفراد تجاوزوا حالة اللامبالاة، وتلقوا الدعوة بإيجابية وتفاعل، ويتحدث التاريخ في سيرة الصحابة عن بعض الأصحاب الذين بحثوا عن الدعوة، كسلمان الفارسي رضي الله عنه الذي تفيد المصادر التاريخية أنه كان يتوقع

انبثاق دعوة الهية آنذاك.

وكأبي ذر الغفاري ﵁ الذي لم يكن من سكان مكة إذ إن قبيلة غفار تعيش على طريق الشام، وكان شبابها معروفين بقطع الطرق، وبمجرد أن وصل خبر الدعوة لأبي ذر اهتمّ بالموضوع، وأرسل أخًا له يُقال له أنيس ليأتيه بالخبر، فذهب إلى مكة واستمع لكلام رسول الله ﷺ وعاد إلى أخيه، فسأله: ما سمعت يا أخي؟ قال: سمعت كلامًا يأخذ باللبّ، ويُذهل العقل، فيه أمرٌ بمعروف ونهيٌ عن منكر. قال له: وما هو؟ فلم يتمكن من أن يقرأ عليه كل الذي سمعه، فأصرّ أبو ذر أن يذهب بنفسه ليطّلع مباشرة على الأمر، كانت الظروف في مكة صعبة، وكان لا يعرف من يسأله عن الأمر، مضى إلى الحرم الشريف واضجع فيه، فمر عليه علي بن أبي طالب ﵇ وهو غلام، فقال له: أرى الرجل نائمًا هنا، كأن ليس لك عشيرة، ودعاه لضيافته. وسأله: ما الذي جاء بك إلى مكة؟ قال: سمعت أن هناك من يدّعي أنه رسول. فقال علي ﵇: على الخبير وقعت، والله إنه لنبي حقًّا. قال: فأوصلني إليه. فجاء به إلى رسول الله ﷺ، قال: أنشدني مما عندك. قال ﷺ: لست بشاعر، ولا أنشد الشعر، ولكنه كلام الله، وبدأ ﷺ يقرأ عليه آيات من القرآن الكريم، ويشرح له الإسلام، فانفتح قلب أبي ذرٍّ للإسلام وأسلم في مجلسه، وكان من أوائل من أسلموا.

يقول أبو ذر: سألني رسول الله ﷺ من أي القبائل أنت؟ قلت: من غفار. يقول: فنظر في وجهي متعجبًا لما يعرف عن قبيلة غفار. فقال له الرسول ﷺ: اذهب إلى قبيلتك وتكتم عن قريش، قال: ولماذا أتكتم عن الحق؟ فكان أول صوتٍ يُعلن الإسلام في المسجد الحرام وفي شوارع مكة هو صوت أبي ذر الغفاري. وتحمل بذلك أذى كبيرًا من قريش، إلّا أن العباس بن عبد المطلب حذّر قريشًا من قبيلة غفار لكيلا تتعرض قوافلهم للسرقة، وبذلك تركوه يمضي لقبيلته. فانطلق لقبيلته (غفار) ونشر دعوة النبي ﷺ وأسلمت قبيلته، كما تحرك إلى القبيلة المجاورة وهي قبيلة (أسلم) وأسلمت، وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة جاء أبو ذر ومعه حشدٌ كبير من قبيلة (غفار) وقبيلة (أسلم).

إنّ على الإنسان أن يفتش عن الحق، ويبحث عن الحقيقة، ولا ينبغي أن تحجزه عنها سحب الاعتراضات والإشاعات، فغالبًا ما تواجه دعوات الحق والأفكار الجديدة الصحيحة بالمعارضة والرفض.

كما أنّ على ذوي الأفكار الجديدة أن يكونوا موضوعيين في توقعاتهم من مجتمعاتهم، فلا يتوهمون سرعة الإقبال والنجاح لآرائهم، فيصابون بالخيبة والإحباط، بل يتحلون بالصبر والاستقامة فذلك هو طريق الإصلاح والتغيير.

ثانيًا: حالة الاسترسال

حيث يتمثل كثير من الناس مقولة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف: الآية ٢٢]. فيعيش هؤلاء حالة من القناعة والإشباع بما لديهم من الأفكار والقناعات بشكلٍ لا يشعرون معها بالحاجة إلى الجديد، فيسترسلون مع الحالة السائدة في المجتمع. لكن هذه الحالة خطأ؛ لأنه ليس دائمًا ما هو سائد صحيح، وقد يكون صحيحًا في زمن أو ظرفٍ معيّن، والأزمنة والظروف تتغير فتحتاج الأفكار والقناعات إلى تجديد وتغيير وإصلاح.

من هنا كانت المجتمعات البشرية في حاجة دائمة إلى التجديد والإصلاح، في أفكارها وآرائها وأنماط حياتها؛ لأنّ البقاء على وضع وحالة راكدة ليس شيئًا سليمًا، فطبيعة الحياة فيها تغير وتطور، لذلك نرى توالي الأنبياء، فمع تغير الزمان والمجتمعات ينزل الله تعالى شرائع جديدة. وكذلك الحال في تعاليم الإسلام نجد أن باب الاجتهاد مفتوح، لتغير وتطور طبيعة الحياة، مما يستدعي حدوث تغير وتطور في بعض الآراء والأفكار.

ولو تأملنا وجدنا في أوضاعنا الدينية آراء كانت سائدة، وعندما طُرحت آراء جديدة رُفضت في البداية، لكن بعد مدة من الزمن تلاشى الرأي السابق، وأصبح الرأي الجديد الذي كان مرفوضًا هو السائد.

ثالثًا: عدم الثقة بالنفس

كثيرٌ من الناس لا يسعون للانفتاح على الآراء والأفكار الجديدة؛ لعدم ثقتهم بأنفسهم لتقويم هذه الأفكار ومناقشتها، فقد منح الله تعالى الإنسان عقلًا، فعليه أن يُعمل عقله، ولا يعني هذا أن يقبل الإنسان كل فكرةٍ جديدة دون دراسة وبحث، وإنما عليه البحث والتمحيص، ليحدّد موقفه من أي فكرة، والله تعالى يصف المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٨]، ولفظة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ تُفيد تقصد الاستماع لا أن يكون ذلك مجرد صدفة، و ﴿الْقَوْلَ﴾ يعني الآراء والأفكار، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ من خلال إعمال عقولهم.

رابعًا: الخوف من الاعتراض

قسمٌ من الناس قد يقتنعون بصحة الأفكار الجديدة، لكنهم يخشون من إعلان اقتناعهم لمعارضة الناس لها، وبالتالي يضطر هؤلاء ألّا يتعاطوا مع الأفكار الجديدة خوفًا من مواجهة الاعتراض الموجود عند الناس.

وهذا ما واجهه كثيرون في بداية الدعوة الإسلامية، لكن الواعين تجاوزوا هذه الحالة، وفي طليعة أولئك مصعب بن عمير ﷺ وهو من أفضل الشباب الذي كانوا يتمتعون بالدلال والرفاه من قبل أسرهم، وكان معروفًا بأنه أعطر فتى في قريش، ولما سمع عن الإسلام أصبح يبحث عنه ويتقصَّاه إلى أن أسلم، مع أن أباه وأمه كانا من أشد أعداء الإسلام في ذلك الوقت، لذلك أخفى عنهما إسلامه، ولكن هناك من أفشى أمره إلى أبويه، فواجهته أمه بالحقيقة، فاعترف لها بذلك، وانهالت عليه توبيخًا وتقريعًا وهددته بأنها لن ترضى عنه، فقال لها: يا أمّاه، لا تشقي على نفسك، فإني قد آمنت ولن أترك الدين الحق، فلم تقبل أمه منه ذلك، وسجنوه في البيت، وقتّروا عليه في الطعام، لكنه أصرّ على موقفه، وبعد ذلك هرب من بيت والديه. وذات يوم كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه وقد أقبل مصعب يلبس ثوبًا باليًا، ويظهر عليه آثار الجوع، فدمعت عينا رسول الله ﷺ وتأثر الأصحاب، وقال ﷺ: كان مصعب وما في مكة ولد أعزّ منه على أبويه، ولكنه ترك كل ذلك حبًّا لله ولرسوله.

إنّ الإنسان الواعي يتحمل الضغوط ويلتزم الحق، بعيدًا عن رضا الناس أو عدمه.

رسول الله ﷺ واجه هذه الحالة في المجتمع لكنه صبر ممتثلًا قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[سورة المزمل: الآية١٠]، إذ قالوا عنه: ساحر، مجنون، كذّاب، مفتري، وهذه الحالة واجهها جميع الأنبياء والرسل والمصلحين، يقول تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [سورة فصلت:الآية ٤٣]. وعلى المصلحين أن يعرفوا أن هذا هو الطريق، فعليهم ألّا يضعفوا أمام الإشاعات والدعايات والاتهامات، فهي حالة طبيعية يواجهها جميع المصلحين.

وفي الآية الكريمة معنى مهم جدًا، يقول تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، فالمصلح حينما يطرح آراءه وأفكاره الإصلاحية في المجتمع، وتحصل حالة الاعتراض عليه، فهنا يتوجب عليه أن يهجر المجتمع، ولكن ذلك لا يعني مقاطعة المجتمع أو الهروب منه، لأن ذلك ما يرنو له المناوئون، بل يكون هناك إصرار على التداخل والتعاطي والتواصل مع الناس، والهجر الذي تسميه الآية الكريمة بالهجر الجميل يعني عدم التأثر بالدعايات والإشاعات التي تُطرح، فيكون هجران المصلح للمجتمع متمثلًا في عدم الركون إلى الجوانب السلبية وعدم التأثر بها، وألّا تنمو لديه مشاعر العداء والبغض والكراهة لأبناء المجتمع، بل يواصل دعوتهم برفق ومحبة وسعة صدر.

وهكذا كان رسول الله ﷺ إذ تحمّل وصبر فكتب الله تعالى لرسالته النصر والظفر.

الحصار والمقاطعة

المقاطعة الاقتصادية سلاح قديم جديد، طالما استعمله الأقوياء الظالمون ضد الضعفاء المظلومين، لفرض إرادتهم عليهم، ودفعهم للاستسلام لهيمنتهم. وقد يشهر المظلومون هذا السلاح تجاه ظالميهم في بعض الظروف، حينما يكونون في موقعية تتيح لهم ذلك، لممارسة نوع من الضغط على الطرف الآخر.

فالمقاطعة أداة ووسيلة في ميدان صراع الإرادات، وساحات المعارك، وكأي سلاح آخر، لا بُدّ من إتقان استخدامه في مواقعه المناسبة.

قريش تفرض المقاطعة

نقرأ في السيرة النبوية: أنّ قريشًا فرضت الحصار والمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية على بني هاشم، لالتزامهم حماية الرسول ﷺ، فقد فشلت أساليب المشركين الدعائية في الحدّ من انتشار دعوة الإسلام، حيث اتهموا النبي ﷺ بالجنون والسحر والكذب، ومارسوا ضده

مختلف أنواع الضغوط النفسية، والإيذاء الشخصي، لكنه ﷺ كان صامدًا ثابتًا، وكانت أخلاقه وصدق رسالته عامل تأثير وجذب حتى للمناوئين والمخالفين، ففي كل يوم يزداد عدد المسلمين، وتتسع رقعة الاستجابة للدين، وهناك عناصر نوعية متميزة في المجتمع القرشي أخذت تنضم إلى صفوف المؤمنين بالدعوة، كما أنّ هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة، واستقبال النجاشي لهم، ورفضه محاولات وفد قريش إليه لطلب طردهم، فتح أمام الدعوة أفقًا للانتشار، وحقق لها اختراقًا معنويًا وسياسيًا كبيرًا.

كلّ ذلك أثار حنق قريش وقلقها من تقدم الدعوة الإسلامية، ودفع زعماءها للتفكير بجد في التخلص من وجود النبي ﷺ، بحبسه أو التنكيل به، أو تصفيته جسديًا.

حماية أبي طالب

من المعروف تاريخيًا أن النبي ﷺ ولد يتيمًا، حيث مات أبوه عبدالله، وهو جنين في بطن أمه آمنة بنت وهب، والتي ماتت عنه ﷺ وهو في السادسة من عمره، وكفله عند ولادته جده عبد المطلب، ولكنه مات هو الآخر، والنبي ﷺ في الثامنة من عمره، فتولى كفالته ورعايته عمه أبو طالب شيخ البطحاء، وأبرز أبناء عبد المطلب.

وأجمع المؤرخون وكتاب السيرة النبوية، على عظيم محبة أبي طالب لرسول الله ﷺ، وتفانيه في رعايته وحمايته، منذ صغره وحتى بعثته وإعلانه الدعوة، حيث وقف أبو طالب إلى جانبه بكل ثقله ونفوذه الاجتماعي، ورفض كل مساومات قريش وضغوطها، ووضع حياته وحياة أسرته من الهاشميين تحت وطأة الضغوط والأعباء الاجتماعية والاقتصادية، دفاعًا عن رسول الله ﷺ وحريته في تبليغ الرسالة.

وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»[١].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مختصر سيرة الرسول ﷺ:

«وأما أبو طالب فهو الذي تولى تربية رسول الله ﷺ من بعد جده كما تقدم، ورقَّ عليه رقة شديدة، وكان يقدمه على أولاده. قال الواقدي: قام أبو طالب ـ من سنة ثمان من مولد رسول الله ﷺ إلى السنة العاشرة من النبوة، أي ثلاثًا وأربعين ـ يحوطه ويقوم بأمره، ويذب عنه، ويلطف به. وقال أبو محمد بن قدامة: كان يقر بنبوة النبي ﷺ، وله في ذلك أشعار، منها:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤيًا وخصا من لؤي بني كعب
بأنا وجدنا في الكتاب محمدًا ... نبيًا كموسى خُطَّ في أول الكتب
وأنّ عليه في العباد محبةً ... ولا خير ممن[٢] خصه الله بالحب

ومنها:

تعلَّم خيار الناس أنّ محمدًا ... وزير لموسى والمسيح ابن مريم
فلا تجعلوا لله ندًا وأسلموا ... فإنّ طريق الحق ليس بمظلم»[٣]

لكن الشيخ محمد بن عبدالوهاب يقرر بعد نقله لهذه النصوص عدم إسلام أبي طالب!!

تحت الحصار

وقف أبو طالب وخلفه بقية الهاشميين سدًا منيعًا يحول بين المشركين وبين النيل من رسول الله ﷺ وتصفيته جسديًا، وأعلن أبو طالب موقفهم الصامد في قصيدة

(١) عبد الملك بن هشام. السيرة النبوية، ج٢، طبعة ١٩٩٤م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٣٠.
(٢) وردت في بعض المصادر: ولا حيف في، أو: ولا شك في.
(٣) الشيخ محمد بن عبد الوهاب. مختصر سيرة الرسول ﷺ، طبعة ١٤١٨هـ، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد)، ص٦٥.

مطولة أشبه بالبيان السياسي، أخذت مداها في الانتشار، وصداها في منتديات قريش، ومن أبياتها:

كذبتم وبيت الله نُبزي محمدًا ... ولما نطاعن دونه ونقاتل
ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهًا ليس عنه بغافل[1]

لذلك قرّر زعماء المشركين فرض مقاطعة اقتصادية واجتماعية على النبي ﷺ وأسرته المحامين عنه، والملتفين حوله، بزعامة أبي طالب.

وعقدوا اجتماعًا بدار الندوة، ووقعوا ميثاقًا يلتزمون بموجبه مقاطعة بني هاشم، فلا يبتاعون منهم شيئًا ولا يبيعونهم، ولا ينكحون إليهم ولا يُنكحونهم، وألّا يؤاكلونهم ولا يكلموهم، وكتبوا بذلك صحيفة وقّع عليها أربعون من زعماء قبائل قريش، وعلقوها في جوف الكعبة، لتأكيد التزامهم بتنفيذها. حتى يسلّم بنو هاشم رسول الله ويتخلوا عن حمايته.

فجمع أبو طالب بني هاشم ـ عدا أبي لهب الذي انضم إلى المشركين ـ وحملهم مسؤولية الدفاع عن الرسول ﷺ، وتعاقدوا جميعًا على رفض طلب قريش، والصمود أمام تآمرها.

وخرجوا من مكة ليقيموا في فسحة بين جبالها تعرف بشِعب أبي طالب، فيها بعض البيوت المتواضعة، والسقائف البسيطة.

وبث أبو طالب رجالًا منهم على نقاط مرتفعة للمراقبة والحراسة تحسبًا لأي هجوم مباغت.

وبدأت المقاطعة أوائل السنة السابعة للبعثة، واستمرت ثلاثة أعوام حتى منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة.

(١) السيرة النبوية لابن هشام. ج١، ص٣٠٩.

ولإحكام الحصار كان أبو جهل، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط، يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة، فمن رأوه معه ميرة وطعامًا نهوه أن يبيع بني هاشم شيئًا، وهددوه بنهب أمواله إن خالف ذلك.

كما وضعت قريش جواسيس على طريق الشِعب حتى لا يصل إليهم طعام سرًّا، لكن أم المؤمنين خديجة عليها السلام رتّبت مع ابن أخيها حكيم بن حزام، وأبي العاص بن الربيع، وهشام بن عمرو، أن يسّربوا كميات من الطعام تحت جنح الظلام، إلى بني هاشم، مقابل مبالغ طائلة. وكانت المحاولات تنجح في بعض الأحيان.

وتشير بعض المصادر إلى أن خديجة وأبا طالب أنفقا كل ثروتهما أثناء الحصار للتغلب على صعوباته[1].

بالطبع هناك أربعة أشهر حرم، يحترمها العرب فيما بينهم، وتتوقف خلالها الاعتداءات، ليأمن حجاج البيت، وأسواق الأدب والتجارة، وهي: شهر رجب وذي القعدة وذي الحجة ومحرم، فكانت فرصة النبي ﷺ والهاشميين للخروج من الشِعب، حتى يعرض النبي ﷺ دعوته على الناس، وليشتري بنو هاشم ما يحتاجون من مؤن.

لكن ضغوط المشركين كانت تلاحقهم أيضًا، حيث كان أبو لهب يصيح بالتجار: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئًا، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم. فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافًا، وكان الوليد بن المغيرة يقول: أيّما رجل منهم وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه، حتى كان المسلم لا يكاد يجد ما يشتريه لعياله.

فعاش الهاشميون مع نسائهم وأطفالهم فترة حرجة قاسية، كانوا يعانون فيها الجوع وفقدان مختلف احتياجاتهم الحياتية، وكان أطفالهم يتضورون ويصرخون

(١) الشيخ جعفر السبحاني. سيرة سيد المرسلين، ج١، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (بيروت: دار البيان العربي)، ص٥٠٧.

جوعًا، حتى اضطر الرجال والنساء إلى أكل أوراق الشجر اليابس، ليدرأوا به غوائل الجوع.

انهيار المقاطعة

ثبات النبي ﷺ، وصمود أبي طالب عليه السلام، واستقامة الهاشميين، والأخبار التي كانت تنتشر عن معاناتهم، أحدثت ردود فعل معارضة للمقاطعة في أوساط قريش، وظهرت أصوات ومواقف تدعوا لإعادة النظر في جدوى الحصار والمقاطعة على بني هاشم.

ونزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره أن الأرضة (دودة بيضاء شبه النملة) أكلت جميع ما في صحيفة المقاطعة المعلقة في الكعبة، عدا كلمة (باسمك اللهم). فأخبر النبي ﷺ عمّه أبا طالب عليه السلام. فقال أبو طالب: أربك أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: نعم.

فانطلق أبو طالب من ساعته مع عصبة من بني هاشم، باتجاه مجلس قريش، فرحبوا به ظانين أنه بصدد التفاوض على الاستسلام، والتراجع عن موقفه. لكنه فاجأهم بقوله: إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني: أن الله تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم دابة الأرض، فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم، وظلم وجور، وترك اسم الله، فإن كان حقًا فارجعوا عمّا أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم، وإن كان باطلًا دفعت محمدًا إليكم لتفعلوا به ما شئتم، فوافقوا على ذلك، وتناولوا الصحيفة من جوف الكعبة فوجدوا الأمر كما أخبرهم.

وهكذا انتهى الحصار، وفشلت ضغوط قريش، وخرج النبي ﷺ وأبو طالب عليه السلام والهاشميون برؤوس مرفوعة، ومعنويات عالية، رغم معاناتهم الشديدة القاسية.

القدس المسرى والمعراج

حينما تكون أرض مهبطًا لوحي اللَّه تعالى لفترات طويلة من الزمن، وحينما تكون منبتًا وموئلًا لأكبر عدد من الأنبياء والرسل، وحينما تجمع الديانات السماوية على تعظيمها، ويحتد الصراع والتنافس بين أتباع الأديان على امتلاكها، فذلك يعني تميزًا خاصًا وشأنًا كبيرًا لهذه الأرض عند الله تعالى وفي أنظار الناس.

وهذا هو واقع بيت المقدس كما كانت تسمى سابقًا منذ الفتح الإسلامي، أي البيت المقدس المطهّر الذي يتطهر به من الذنوب. وقبل ذلك كان يطلق عليها اسم (إيلياء) أي بيت الله، وقد ورد هذا الاسم في العهد العمري الذي كتبه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لأهلها عند الفتح. حتى استقرت تسميتها بـ(القدس).

والقدس هي البقعة التي أجمع معتنقو الديانات الكبرى الثلاث: المسلمون والمسيحيون واليهود على تقديسها وبذل الغالي والرخيص من أجلها. وعنها تحدث القرآن الكريم والإنجيل والتوراة.

ولم تلعب مدينة من المدن القائمة على وجه هذه البسيطة الدور الذي لعبته مدينة القدس في التاريخ، إنها وإن لم تكن من المدن التجارية المهمة، ولا من المدن الزراعية أو الصناعية الأساسية على رغم وقوعها بين البادية في الشرق، والبحر من الغرب، إلّا أنها كانت على مرّ الدهور مطمح أنظار الغزاة والفاتحين فحوصرت مرارًا، وهدمت تكرارًا، وهجرت، وأعيد بناؤها ثماني عشرة مرة في التاريخ، ولكنها بالرغم من هذا كله ظلت قائمة في هذا الوجود، وظلّ اسمها مذكورًا في طليعة المدن والبلدان، ذلك لأنها مقدسة في نظر جميع الأديان[١].

ويمتد تاريخ القدس إلى أكثر من ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كما يرجح المؤرخون، حيث بناها اليبوسيون، وكانوا رهطًا من بطون العرب الأوائل، نشؤوا في صميم الجزيرة العربية، وترعرعوا في أرجائها، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية، واستوطنوا أرض فلسطين، فكان اليبوسيون هم بناة القدس الأولون، بينما طرأ الوجود اليهودي العابر على القدس في مطلع القرن الثامن عشر قبل الميلاد[٢].

مهد الرسالات والأنبياء:

ليس من باب الصدفة ولا من الأمور العفوية الاتفاقية، أن تكون أرض القدس مهبطًا لوحي الله تعالى على أكثر أنبيائه، وأن تنبثق منها الرسالات الإلهية، وأن ينشأ ويعيش فيها عدد كبير من الأنبياء والرسل، بل وتصبح مثوى لهم ومحلًا لقبورهم ومدافنهم.

لا بُدّ وأن يكون ذلك باختيار إلهي، يدل على شأن وفضل منحه اللهُ تعالى لتلك البقعة من الأرض، وشاءت حكمته تعالى أن يوجه الأنظار لقداستها وعظمتها.

فعن ابن عباس رضي الله عنه في الحديث عن رحلة نبي الله موسى عليه السلام إلى القدس قال: الأرض المقدسة وهي فلسطين، وإنما قدّسها؛ لأنّ يعقوب عليه السلام ولد بها،

(١) جعفر الخليلي. موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم القدس، ج١، ص٤٩.
(٢) المصدر نفسه. ص٥٤.

وكانت مسكن أبيه ـ أي موسى ـ إسحاق ويوسف عليهم السلام ونقلوا كلهم بعد الموت إلى أرض فلسطين[١].

وقد ورد أن الله تعالى تاب على داود وسليمان في أرض القدس، وبشر الله زكريا بيحيى فيها، وولد المسيح وتكلم في المهد، وانطلقت دعوته، وأنزلت عليه المائدة من السماء في أرض القدس.

ورفع الله المسيح من الأرض من بيت المقدس إلى السماء، وينزل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ببيت المقدس عند ظهور الإمام المهدي آخر الزمان، وماتت مريم ببيت المقدس.

وهاجر إبراهيم من بابل العراق إلى بيت المقدس، وفي بيت المقدس قبور الأنبياء إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وداود، وسليمان، وموسى، وسواهم من الأنبياء، وقبور العديد من زوجات الأنبياء ونسائهم كسارة زوجة إبراهيم، وريقة زوجة إسحاق، وليقا زوجة يعقوب.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: البيت المقدس بنته الأنبياء، وسكنته الأنبياء ما فيه موضع شبر إلّا وقد صلى فيه نبي أو أقام فيه ملك[٢].

آيات في فضل القدس:

وإظهارًا لفضل هذه القطعة المباركة، وتعظيمًا لشأنها، تحدث القرآن الكريم عن قداستها ومكانتها في آيات عديدة.

فالقدس مسرى رسول الله ﷺ ومنها عرج به إلى السماء، وحينما يتحدث القرآن عن قضية الإسراء والمعراج، يؤكد على فضيلة القدس، فالرسول ﷺ أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لكن البركة والفضيلة لا تنحصر في المسجد الأقصى وإنما تشمل كل أراضي القدس من حوله.

(١) بحار الأنوار. ج١٣، ص١٧٨.
(٢) موسوعة العتبات المقدسة. ص٢٧٣.

يقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[سورة الإسراء، الآية: ١].

«إن تعبير الآية ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ تفيد بأنه علاوة على قدسية المسجد الأقصى، فإن أطرافه أيضًا تمتاز بالبركة والأفضلية على ما سواها، ويمكن أن يكون مراد الآية البركة الظاهرية المتمثلة بما تهبه هذه الأرض الخصبة الخضراء من مزايا العمران والأنهار والزراعة، ويمكن أن تحمل البركة على قواعد الفهم المعنوي فتشير حين ذاك إلى ما تمثله هذه الأرض في طول التاريخ، من كونها مركزًا للنبوات الإلهية، ومنطلقًا لنور التوحيد، وأرضًا خصبة للدعوة إلى عبودية الله»[1].

وفي حديث القرآن الكريم عن هجرة نبي الله إبراهيم عليه السلام ونبي الله لوط عليه السلام إلى القدس يقول الله تعالى مؤكدًا امتياز هذه الأرض بالبركة الشاملة الدائمة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنبياء، الآية ٧١].

ويمنحها القرآن الكريم صفة القداسة على لسان نبي الله موسى عليه السلام حين يدفع قومه ويحرضهم على فتح القدس وإنقاذها من الجبابرة المشركين، يقول تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾[سورة المائدة، الآية ٢١].

وعند دخول بني إسرائيل للأرض المقدسة، يبشّرهم الله تعالى بما في هذه الأرض من الخصائص المادية والمعنوية، ففيها يتوفر العيش الرغيد، وتنال مغفرة الله تعالى، لمن يدخلها ساجدًا خاضعًا لشريعة الله، طالبًا العفو والغفران من الله، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة البقرة، الآية ٥٨].

المسجد الأقصى:

وهو أبرز معلم في القدس، كان مصلى الأنبياء، ولا تزال بعض محاريبهم قائمة فيه، وإليه أُسري برسول الله ﷺ، ومنه عرج به إلى السماء، وكان قبلة المسلمين

(١) ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج٨، ص٣٤٦.

الأولى، وهو ثالث الحرمين الشريفين.

أخرج البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيّ مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: ثم المسجد الأقصى[١].

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أربعة من قصور الجنة في الدنيا: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد بيت المقدس، ومسجد الكوفة»[٢].

وعنه عليه السلام: «صلاة في بيت المقدس تعدل ألف صلاة»[٣].

والأحاديث الواردة عن أحداث الإسراء والمعراج تظهر الكثير من فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيت المقدس حمله جبرائيل على البراق، فأتيا بيت المقدس، وعرض عليه محاريب الأنبياء وصلى بها[٤].

الفتح الإسلامي للقدس:

وإدراكًا من المسلمين لأهمية القدس، ومكانتها عند الله تعالى، ولما تمثله لهم من قيمة معنوية كبيرة، فقد كانوا يتطلعون إلى أن ترفرف عليها أعلام الإسلام، وتصبح تحت عناية ورعاية الدولة الإسلامية، فحاصرتها جيوش المسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، تحت قيادة أبي عبيدة، ووقعت بعض المعارك حول أسوارها، فقبل أهلها الصلح شريطة أن يتم ذلك على يد الخليفة عمر، وأن يحضر الخليفة نفسه عقد هذا الصلح، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك، وجاء في كتاب (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل – للقاضي مجير الدين الحنبلي): أن الخليفة عمر حين تلقى كتاب أبي عبيدة استشار رؤساء المسلمين في أمر حضوره تسليم القدس، وتعهده وجاهًا

(١) صحيح البخاري. حديث ٣٤٢٥.
(٢) وسائل الشيعة. ج٥، ص٢٨٣، حديث ٦٥٥٦.
(٣) المصدر نفسه. ص٢٨٩، حديث ٦٥٧٣.
(٤) بحار الأنوار. ج١٨، ص٣٣٦.

لسكانها المسيحيين، فعارض ذلك جمع من الصحابة منهم عثمان بن عفان، لكن علي بن أبي طالب أشار على الخليفة بالموافقة على طلبهم، وأخذ عمر برأي علي، واستخلفه مكانه في المدينة، وسار نحو الشام، وصالح أهالي القدس، وكتب لهم عهدًا خاصًا، يضمن لهم فيه حريتهم الدينية وممارسة شعائرهم وتقاليدهم، وتوفير الأمن والأمان. وأصبحت القدس تحت حكم الإسلام سنة ٦٣٦م الموافق سنة ١٦هـ[١].

واهتم المسلمون بتعظيم القدس ومسجدها الأقصى، وكان الخلفاء يتبارون في إبداء الرعاية والاهتمام بتلك البقعة المباركة، حيث تم تجديد وترميم المسجد وقبته التاريخية المعروفة بقبة الصخرة، أكثر من مرة، كما كان المسلمون يتفانون في الدفاع عن تلك الأرض المقدسة، وصد الغارات التي استهدفتها من الصليبين، وإذا ما نجح عدو في الاستيلاء على القدس، فإن روح الجهاد والمقاومة كانت تبقى مشتعلة متقدة في نفوس المسلمين حتى يتم تحرير المقدسات، وتطهيرها من دنس سيطرة الأعداء، كما حصل حينما انتهزت أوروبا فرصة ضعف الدولة العباسية، والدولة الفاطمية وتمزق العالم الإسلامي إلى دويلات هزيلة، فجهزت الحملات الصليبية التي واكبتها تعبئة دينية ضد الإسلام والمسلمين، واستولوا على القدس عام ١٠٩٩م فما هجعت عيون المسلمين ولا استقرت نفوسهم حتى حققوا النصر باستعادة القدس وطرد الصليبين المحتلين في موقعة حطين الشهيرة سنة ١١٨٧م.

العدوان اليهودي الصهيوني:

أواخر القرن التاسع عشر الميلادي تبلورت في أوساط اليهود فكرة إنشاء كيان قومي خاص بهم، بعد أن اشتدت عليهم ضغوط المجتمعات التي كانوا يعيشون بينها وخاصة في أوروبا الشرقية، وذلك بسبب طبيعتهم العنصرية والسلوكيات التي انبثقت منها. وكان ثيودور هرتزل هو المؤسس الأول للصهيونية الحديثة، الذي ألف كتابًا

(١) موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم القدس. ج١، ص٨٣.

بعنوان (الدولة اليهودية) رافضًا فكرة ذوبان اليهود في ثقافات الدول التي يعيشون فيها، وداعيًا إلى توحيد جهود اليهود لبناء دولة خاصة بهم وطرح أمام اليهود خيارات عديدة كأماكن محتملة لتحقيق هذا الهدف منها الأرجنتين، أوغندا، قبرص، سيناء، فلسطين واعتبرها المكان الأمثل، لما في التراث اليهودي من تقديس لهذه الأرض، الذي تحوّل إلى أوهام وأساطير، تغذّي فكرة اختصاصهم بهذه الأرض وأحقيتهم بالسيطرة عليها، إلّا أنّ هرتزل لم يعتبر فلسطين هي الخيار الوحيد، ولم يستثن الخيارات الأخرى، وإنما حصل ذلك بعد وفاته، حيث رأى اليهود أن الأوضاع التي يمر بها المسلمون قد تساعدهم على تحقيق فكرتهم في فلسطين أفضل من أيّ مكان آخر، فكتب (ناحوم جولدمان) مركّزًا على فلسطين: «لأنّ فلسطين هي ملتقى طرق أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولأنّ فلسطين تشكل بالواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكلّ قوى العالم، ولأنها المركز الاستراتيجي للسيطرة على العالم»[1].

وضغط اليهود على بريطانيا وكانت الدولة الأقوى لمساعدتهم على تحقيق مطامعهم في فلسطين، فأصدرت بريطانيا وعد بلفور عام ١٩١٧م تتبنى فيه هذا الهدف اليهودي العدواني.

وأنشأ اليهود لهم مؤسسات على مستوى العالم كالوكالة اليهودية والصندوق القومي اليهودي لجمع المال، وتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين، واستملاك أراضيها، كما تضافرت جهودهم في أوروبا وروسيا ثم في أمريكا للاستعانة بتلك الدول عن طريق نفوذهم في أجهزتها، لكي تدعم قيام مشروعهم وكيانهم العدواني.

وحينما وقفت الدولة العثمانية ممثلة في السلطان عبد الحميد الثاني في وجه هذا المخطط اليهودي، فإنّ اليهود ركزوا جهودهم للتآمر على الدولة العثمانية وإسقاطها على يد أتاتورك.

وفي سبات من المسلمين، وحالة وهن وتفكك، تحقق لليهود ما يريدون من

(١) الموسوعة العربية العالمية. ج١٥، ص١٨٤، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، الرياض.

السيطرة على الأرض المقدسة واحتلال المسجد الأقصى، وتهجير أكثر أهالي فلسطين من العرب والمسلمين ليحل محلهم اليهود المستوطنون الذين جلبوهم من مختلف البقاع والأصقاع، بتأييد ورعاية الدول الاستعمارية الكبرى.

أمانة المسلمين:

القدس الشريف ومسجدها الأقصى المبارك، والذي رعاه المسلمون وحموه من منتصف العقد الثاني لقيام الأمة والدولة الإسلامية، وتوارثت أجيال الأمة الدفاع عنه والتضحية من أجل تقديسه وتعظيمه، أصبح الآن أمانة في أعناق المسلمين من أبناء هذا العصر، وقد اتضحت معالم المشروع الصهيوني، وتجسدت أخطاره ماثلة للعيان، إنه مشروع يستهدف انتزاع إرادة الأمة، والسيطرة على خيراتها وثرواتها في هذه المنطقة الهامة من العالم.

وفلسطين مركز ومنطلق لتحقيق الأطماع اليهودية التوسعية، وما نراه الآن من قمع وإرهاب يمارسه الصهاينة ضد الفلسطينيين، هو نموذج للأسلوب الذي سيتعاملون به مع كل المسلمين لو تمت لهم الهيمنة والسيطرة.

إنهم لا يرون لغيرهم أية قيمة أو اعتبار، فهم شعب الله المختار ويجب أن يكونوا أسياد العالم، وأسياد هذه المنطقة بالخصوص، وقد صرَّح شيمون بيريز يوم كان وزير خارجية إسرائيل قبل سنوات قائلًا: إنّ الشرق الأوسط حديقة أطفال كبيرة[1].

وهم الآن يسومون أبناء فلسطين سوء العذاب ويوجهون نيران أسلحتهم الفتاكة إلى صدور الأطفال والشباب العزل، ونتابع والعالم ضحايا الإرهاب والقمع اليهودي البشع على أرض فلسطين العزيزة كلّ يوم وكلّ ساعة.

(١) جريدة الحياة: صحيفة يومية تصدر من لندن ٣٠/ ٦/ ١٩٩٥م، ص١٩.

ينطلق اليهود في تعاملهم مع سائر المجتمعات من عقلية عنصرية استعلائية، تغذيها كتبهم الدينية المليئة بالأساطير والتحريفات، فهم يعتقدون أنهم أبناء الله على الحقيقة لا على المجاز، كما جاء في سفر التثنية من التوراة المتداولة لديهم، (الإصحاح ٧): «أنتم أولاد الرّب إلهكم». وأنّ آدم كانت له حسب ما ورد في التلمود، عشيقة من الجن أنجب منها أطفالًا، كما أن حواء كان لها عشاقها من الجن أيضًا، وأنجبت منهم كذلك، فهؤلاء الذين أنجبهم آدم من غير حواء، أو حواء من غير آدم، هم أصل سائر الناس، أما أولاد آدم الشرعيين من حواء فهم اليهود.

فأرواح اليهود ـ في زعمهم ـ تتميز عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله، وهي أرواح عزيزة عند الله، والإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، وإذا ضرب غير اليهودي يهوديًا فكأنما ضرب العزّة الإلهية ويستحق الموت، والفرق بين اليهودي وغيره هو كالفرق بين الإنسان

والحيوان[١]. من هنا يكون مفهومًا ما صرح به أحد القادة العسكريين الإسرائيليين المشاركين في تنفيذ قصف قرية (قانا) في جنوب لبنان الذي أسفر عن قتل ما يقرب من مئتي قتيل مدني فيهم عدد من النساء والأطفال، صرّح هذا العسكري لمجلة (كول هعير) ـ كلّ المدينة ـ الإسرائيلية قائلًا إنه: لم يعتبر المأساة خطأ وأنّ الأمر لا يتعلق بأكثر من (عرابوشيم) ـ أي العرب ـ وأن هناك ملايين العرب على أيّ حال!![٢].

ونفهم أيضًا كيف اعتبر الإسرائيليون مقتل اثنين من جنودهم في رام الله مبررًا لهستيريا القمع والإرهاب التي مارسوها في الأراضي الفلسطينية هذه الأيام.

ويقول الدكتور حسن ظاظا المتخصص في دراسة تاريخ اليهودية واليهود:

إن اليهود يحتقرون غيرهم من الشعوب ويطلقون عليهم (جوييم)، واقترنت كلمة (جوى) في عقولهم بالزراية والاحتقار، فإذا قال اليهودي عن شخص أو شيء أنه (جوى) فهو يعني بذلك أنه همجي بربري يجمع القذارة والنجاسة والاحتقار.

فالتراث اليهودي الموثق في التلمود والمدراش يوحي بألوان من التعصب اليهودي ضد أمم العالم، من ذلك أنهم يحرمون أن ترضع المرأة الإسرائيلية طفلًا من غير اليهود، حتى وإن تعرّض للموت من الحرمان من الغذاء، بل تحرم على اليهودي كائنًا من كان أن يصدق في النصيحة لوجه الله لرجل غير يهودي، أو أن يعيد إلى غير اليهودي شيئًا فقد منه[٣].

(١) د. محمد علي البار. تحريف التوراة، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: دار القلم ـ دمشق الدار الشامية)، ص٦٨.

(٢) الشرق الأوسط، جريدة يومية، لندن ١١/ ٥/ ١٩٩٦م.

(٣) الدكتور حسن ظاظا. أبحاث في الفكر اليهودي، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (دمشق: دار القلم)، ص١٠٩ – ١١٩.

وحسب هذه النظرة العنصرية الاستعلائية يتصرف اليهود في علاقاتهم مع باقي البشر، وهي تشكل توجههم العام، وإذا ما تمرد بعض مفكريهم واعترض على هذا التوجه العنصري، فإنهم يرمونه بالكفر ويحاصرون دعوته في أوساطهم كما حصل للطبيب اليهودي الأندلسي موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤م) وللفيلسوف اليهودي الهولندي باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م) ومن بعده المفكر اليهودي موسى مندلسون (١٧٢٩-١٧٨٦م) الذي تكتل المتعصبون اليهود ضده ووصموه بالكفر، وحرموا كتبه، بل كانوا يبحثون عنها في الأسواق ويعدمونها قبل أن تصل إلى أيدي القراء[١].

وتحدث القائد الهندي (جواهر لال نهرو) عن هذه الظاهرة العنصرية عند اليهود وما سببت لهم من رد فعل من قبل المجتمعات البشرية الرافضة لسلوكهم الاستعلائي العنصري قائلًا: «اليهود شعب عجيب. كانوا في السابق قبيلة صغيرة أو عدة قبائل تسكن فلسطين، ورد تاريخها في العهد القديم في التوراة. وكانوا وما زالوا يظنون أنهم شعب الله المختار. ويظهر أنّ هذا الظن قد جنى عليهم كثيرًا، فغزاهم الغزاة وأخضعوهم وأسروهم... وأخيرًا تفرق هؤلاء اليهود في مختلف أنحاء العالم. فلم يكن لهم بيت أو وطن، وأينما حلوا كانوا يعاملون معاملة الغرباء غير المرغوب فيهم، حتى إن كلمة اليهودي أصبحت مرادفة للبخل والربا»[٢].

في مواجهة الإسلام:

التعصب العنصري وعقلية الاستعلاء هي من أسباب رفض اليهود للدعوة الإسلامية، رغم أنهم كانوا يتحدثون لقبائل العرب في المدينة ومكة، عن ظهور نبي موعود في تلك المنطقة يقرأون صفاته في توراتهم، ولكنهم كانوا يعتقدون أن ذلك النبي لا بُدّ أن يكون من أبنائهم، فلما ظهر رسول الله ﷺ من وسط قريش العرب، ومع انطباق كلّ الصفات التي في التوراة عليه، غاض ذلك اليهود إذ كيف

(١) المصدر السابق. ص٩٨-٩٩.

(٢) جواهر لال نهرو. لمحات من تاريخ العالم، ١٩٨٩م، (بيروت: دار الجيل)، ص٣١٥-٣١٦.

يخضعون لقيادة من غيرهم، وهم شعب الله المختار، وسواهم أدنى منهم حسب زعمهم. لذلك كانوا يروجون لمقولة: لا يبعث الله نبيًا من العرب. ويقول الله تعالى عن موقفهم الاستكباري: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[سورة البقرة، الآيتان: ٨٩-٩٠].

ولم يقفوا عند حدود الرفض للدعوة، بل جنّدوا طاقاتهم وقدراتهم لعرقلة مسيرة الإسلام، والتآمر على كيانه الناشئ في المدينة المنورة؛ لأنّ ظهور الإسلام أفقدهم ما كانوا يريدونه من مكانة مميزة، ودور يتفوقون فيه على من حولهم، ويسيطرون على مقدراتهم.

وساءهم أن يتوحد أهل المدينة من الأوس والخزرج تحت راية الإسلام، بعد أن كانوا متحاربين وكان اليهود يغذّون بينهم حالة الصراع لإضعافهم أمام الأطماع اليهودية، كما أن تحريم الإسلام للربا وجّه ضربة لهيمنتهم الاقتصادية على أهل يثرب عن طريق الربا.

وانطلاقًا من إنسانية الإسلام، وإقراره لحرية العقيدة، وتشريعه لمنهج التسامح والتعايش، فإنه لم يبادر اليهود بأيّ موقف عداء، ونهى أتباعه أن يتناقشوا معهم في أمر الدعوة إلا بأفضل أسلوب ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة العنكبوت، الآية ٤٦].

بل وقّع الرسول ﷺ مع مختلف قبائل اليهود في أنحاء المدينة وأطرافها معاهدة تنص على التعايش وحسن الجوار وعدم الاعتداء والدفاع المشترك عن منطقة يثرب. وهي ما عرف بصحيفة المدينة.

لكن العقلية العنصرية لم تسمح لهم بالقبول بالمشاركة مع الآخرين على مستوى واحد من الحقوق والالتزامات المتبادلة، ولا أن يسكتوا على نمو قوة كيان جديد

متحرر عن نفوذهم وهيمنتهم، لذلك بدأوا يحيكون المؤامرات، ويدعمون القوى المعادية للإسلام من كفار قريش إلى المنافقين داخل المدينة، ويمارسون مختلف الاستفزازات للدولة الإسلامية الفتية، رغم المعاهدات الموقعة، ورغم محاولات الرسول ﷺ لتحذيرهم ونصحهم. يقول تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾[سورة البقرة، الآية ١٠٠].

مع ذلك لم يتخذ الرسول موقفًا عامًا تجاه كل اليهود، وإنما كان يتصدى للفئة التي تمارس العدوان والاستفزاز منهم، عسى أن تكون عبرة لبقيتهم فيكفوا عن التآمر ويلتزموا بالمعاهدات والمواثيق في حسن الجوار والتعامل.

سياسة القوة والردع:

كانت البداية مع يهود بني قينقاع وهم من سكان المدينة، وبيدهم ثروة اقتصادية، ولهم حصون حربية، وقد حذرهم الرسول ﷺ من تصرفاتهم المعادية، لكنهم لم يرتدعوا عنها، واستمروا في استفزاز مشاعر المسلمين، فاضطر ﷺ لمحاصرتهم، منتصف شوال للسنة الثانية من الهجرة، فقاوموا الحصار خمس عشرة ليلة، تخللتها مناوشات واشتباكات، ثم تفاوضوا مع الرسول ﷺ، فاشترط عليهم الجلاء عن المدينة، فرحلوا عنها إلى أذرعات الشام، وارتاح المسلمون من مضايقاتهم واستفزازاتهم المستمرة.

وبعد سنتين تقريبًا من هذه الحادثة خطط يهود بني النضير القاطنون في ضواحي المدينة، الذين كانوا يمثلون قوة اقتصادية ضاربة، خططوا لاغتيال رسول الله ﷺ، وتآمروا على قتله في ديارهم، بأن يلقوا عليه صخرة حينما كان جالسًا في ظلّ أحد حيطان حصونهم، واكتشف الرسول ﷺ المؤامرة بملاحظته أو بأخبار من الوحي، فبادر للخروج قبل لحظات من تنفيذها، وهناك أنذرهم الرسول ﷺ بالخروج من تلك المنطقة، والجلاء عنها وأعطاهم مهلة عشرة أيام، فرفضوا الإنذار في البداية، ثم حاصرهم المسلمون، وكانت حصونهم منيعة قوية، لكنهم استسلموا فيما بعد

ورضخوا لمطلب الرسول ﷺ، وتركوا المنطقة حاملين معهم أموالهم وثرواتهم، باتجاه الشام، وبعضهم إلى خيبر، وكان ذلك في السنة الرابعة للهجرة، وتحدث القرآن الكريم عن هذه الحادثة في سورة الحشر، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[سورة الحشر، الآية: ٢].

ثم جاء دور يهود بني قريظة، والذين وقعوا مع المسلمين على صحيفة المدينة للتعايش والدفاع المشترك، لكنهم عملوا على تأليب قريش وغطفان على المسلمين، وتحالفوا معهم للهجوم على المدينة في غزوة الخندق، ولما باؤوا بالفشل، اتجه المسلمون لتأديبهم على خيانتهم، ومشاركتهم في مخطط الهجوم على المدينة لإبادة المسلمين، وحاصرهم المسلمون أكثر من عشرين ليلة، ثم استسلموا قبل أن يقتحم المسلمون حصونهم، وجرت عملية تفاوض انتهت إلى تحكيم سعد بن معاذ في أمرهم بموافقة اليهود أيضًا، الذي حكم بإعدام رجالهم الخائنين، وأخذ غنائمهم وسبيهم، في السنة الخامسة للهجرة.

وكانت آخر معركة حاسمة للمسلمين مع الوجود اليهودي المتآمر في الجزيرة العربية هي معركة خيبر، هذه المعركة التي يهتف المسلمون الآن بها في مسيراتهم وهتافاتهم ضد العدوان الصهيوني (خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود).

وخيبر واحة خصبة واسعة، يقيم بها أكثر من عشرين ألف نسمة من اليهود، بينهم عدد من المقاتلين الذين يعتبرون أشجع وأقوى العناصر اليهودية المحاربة، وقد لجأ إليهم فلول يهود بني النضير، فأصبحت خيبر وكرًا وبؤرة للتآمر على الإسلام، بما فيها من إمكانات مالية ضخمة، وقدرات حربية وسلاح وعتاد. وكان ليهود خيبر دور أساس في تحريض الأحزاب على مهاجمة المدينة.

وتوجه النبي ﷺ بجيشه الإسلامي لمحاصرة خيبر، وفيها حصون ثمانية أمنعها

حصن مرحب، الذي كان أشجعهم، وقد حاول الجيش الإسلامي فتح هذا الحصن عدة مرات لكن ضراوة مقاومة اليهود، ومناعة الحصن، لم تسمح بذلك.

جاء في سيرة ابن هشام: «بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته، وكانت بيضاء، فيما قال ابن هشام، إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يك فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب، فقاتل، ثم رجع ولم يك فتح، وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرّار.

قال: يقول سلمة، فدعا رسول ﷺ عليًّا رضوان الله عليه، وهو أرمد، فتفل في عينه، ثم قال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك.

قال: يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح ـ أي به نفس شديد من الإعياء في العدو ـ يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فما رجع حتى فتح اللَّه على يديه.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن الحسن عن بعض أهله عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول علي عليه السلام بابًا كان عند الحصن فترّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر من سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه»[1].

وقد أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: «لأعطينّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيّهم يُعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يُعطاها،

(١) السيرة النبوية لابن هشام. ج٣، ص٣٦٤.

فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه». فأُتي به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية[1].

العدوان الصهيوني:

في غفلة من الزمن، وحيث كان المسلمون يغطون في سبات التخلف والانحطاط، عاد خطر اليهود بعد ثلاثة عشر قرنًا يهدد الإسلام، ويتحدى المسلمين، فالغرب الاستعماري أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فيتخلص من عبء الوجود اليهودي المزعج في دياره، ويشغل بهم العالم العربي والإسلامي، لإعاقة نهضته، ولتبديد قوته وثرواته، فأعطوا اليهود فرصة لتحقيق أحلامهم في بناء كيان خاص بهم، في فلسطين طبقًا لأساطيرهم الدينية، والمسألة تتعدى إيجاد وطن أو كيان لليهود؛ لأنّ طبيعتهم العنصرية وعقليتهم الاستعلائية، تدفعهم للهيمنة على من حولهم، فهم يخططون للسيطرة على الشرق الأوسط كله، بل ويصرحون بذلك، على أساس أن التفاعل بين العقل اليهودي، ورأس المال العربي، واليد العاملة المتوفرة في الشرق الأوسط سيتيح إنجاز تقدم حضاري كبير.

وعلى هذا فالكيان الصهيوني لا يمثل مجرّد احتلال لقطعة من أعزّ الأراضي العربية فقط، بل هو تحدٍّ سافر لكرامة الأمة، واغتيال لمستقبلها، وتهديد لاستقلالها ومقدراتها.

لقد استفاد اليهود من غفلة العرب والمسلمين وتشتتهم، واعتمدوا على العون والدعم الاستكباري الغربي، بريطانيا ثم أمريكا وسائر الدول الغربية، وفرضوا وجودهم الغاصب بالقوة، وحينما استيقظ المسلمون، وأحسوا بالمؤامرة الخطيرة التي استهدفتهم، لم يستطيعوا وبالظروف السيئة الداخلية والخارجية التي يعيشونها أن يواجهوا تلك المؤامرة، وخسروا الحروب التي خاضوها ضد العدوان الإسرائيلي.

---

(١) صحيح البخاري. كتاب المغازي، حديث ٤٢١٠.

لكن الجسم العربي والإسلامي بقي رافضًا لهذا الوجود اليهودي الدخيل، ومع نمو الروح الإسلامية تصاعدت حالة الرفض والمقاومة للكيان الصهيوني، وأدرك اليهود ومن خلفهم أن القوة وحدها لا تحمي هذا الكيان من غضب المحيط الإسلامي، ولا تمكن اليهود من تنفيذ مخطط الهيمنة والسيطرة، لذلك رفعوا شعارات السلام الخادعة، وانطلقت مسيرة التسوية في الشرق الأوسط، وهي تستبطن إقناع العرب والمسلمين بتقبل الوجود الصهيوني، وتطبيع العلاقة معه، وإتاحة الفرصة له لتنفيذ مخططاته في الهيمنة على المنطقة، كرأس حربة للاستكبار العالمي.

ثمة دلالات تاريخية عديدة حول نشوء علاقة إيجابية بين المسيحيين والمسلمين منذ مطلع الدعوة الإسلامية. ومن أوائل تلك الدلالات، الهجرة الإسلامية الأولى إلى الحبشة، فحينما اشتدّت الضغوط على المسلمين في مكة المكرمة، خلال السنة الخامسة من البعثة النبوية الشريفة، شجّع رسول الله ﷺ أصحابه على الهجرة إلى الحبشة، البلد المسيحي، الذي كان يحكمه النجاشي، وجاء في السيرة النبوية أنه ﷺ خاطب ثمانين من أصحابه بالقول: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[1]، فخرجوا بقيادة جعفر بن أبي طالب، متجهين إلى الحبشة بحرًا. وكما كان متوقّعًا فقد استقبل أهل الحبشة المسلمين المهاجرين، استقبالًا حسنًا. وفي ذلك إشارة إلى طبيعة الأجواء الإيجابية السائدة بين المسيحيين

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. البداية والنهاية، ج٣، ص٨٥.

في الحبشة آنئذٍ، الذين أتاحوا الفرصة لأتباع الديانات الأخرى للعيش بينهم في أمن وسلام، وأن يظهروا إيمانهم ويمارسوا عباداتهم.

وورد عن أم سلمة وكانت إحدى المهاجرات للحبشة قبل أن تكون زوجًا للنبي ﷺ، أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، آمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه»[١]. وقد بعثت قريش خلف المهاجرين المسلمين إلى الحبشة، فأرسلت وفدًا محمّلًا بالهدايا إلى النجاشي، طمعًا في أن يطرد المسلمين من بلاده ويعيدهم إلى مكة، غير أنّ تلك المحاولة باءت بالفشل، وبقي المهاجرون في الحبشة إلى حين عودتهم إلى المدينة المنورة إبّان فتح خيبر، حتى قال النبي ﷺ قولته الشهيرة: «ما أدري بأيّهما أنا أشدّ فرحًا، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر»[٢].

النبي يردّ الجميل للمسيحيين

وعلى المقلب الآخر، قدّم رسول الله ﷺ، في عزّ انتصاره وقوته، أنموذجًا مشرقًا على صعيد العلاقة الإيجابية بين المسلمين والمسيحيين. فقد قابل صنيع النجاشي وأهل الحبشة مع أصحابه، في تعامله مع وفد النجاشي الذي وفد عليه لاحقًا في المدينة المنورة، إذ بخلاف سائر الوفود، انبرى ﷺ لخدمة وفد الحبشة بنفسه، وحين عرض الأصحاب القيام بخدمة الوفد قائلين: «نحن نكفيك، يا رسول الله» قال ﷺ: «إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، وَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ أُكَافِئَهُمْ»[٣]. وفي ذلك ردّ جميل لموقفهم الحسن، واستقبالهم للمهاجرين المسلمين.

وعلى ذات المنوال، كان تعامل رسول الله ﷺ، لما جاءه وفد نصارى نجران، فدخلوا عليه المسجد بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده

(١) مسند أحمد بن حنبل. ج١، ص٢٠٢.
(٢) بحار الأنوار. ج٢٢، ص٢٧٦.
(٣) علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي. السيرة الحلبية، ج٢، ص٧٥٨.

فأراد الناس منعهم، فقال ﷺ: «دعوهم» فاستقبلوا المشرق فصلّوا بصلاتهم وهم في مسجد رسول الله ﷺ[١].

العلاقة الإيجابية مع أتباع الديانات

إنّ قيم الإسلام تدفع باتجاه قيام العلاقة الإيجابية مع أتباع الديانات الأخرى. ومردّ ذلك إقرار الإسلام بأصالة حرمة الإنسان وكرامته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، فالإسلام يقرّ بكرامة الإنسان بما هو إنسان، بصرف النظر عن العرق والدين واللون، كما يقرّ للبشر بالحرية الدينية، واختيارهم الدين الذي يرتضونه لأنفسهم، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. ناهيك عن أنّ الإسلام يقرّ الإيمان بجميع الأنبياء، باعتبار ذلك جزءًا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، فلا يمكن أن يكتمل إيمان مسلم إذا ما تنكّر لأيٍّ نبيٍّ من الأنبياء السابقين على النبي محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٤].

وتبعًا لذلك، يقرّ الإسلام بوجود الديانات الأخرى ويعترف بكيانات أتباعها. فلم يعمد إلى إجبار أتباع الديانات الأخرى على ترك عقائدهم، ولم يأمر بإجلائهم أو التعدّي عليهم وإبادتهم، وإنما تعامل معهم كما هم، وعلى دياناتهم، تحت شرط واحد فقط، هو المسالمة وعدم العدوان، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: ٨]. هذه هي المبادئ الإسلامية للعلاقة مع أتباع الديانات المختلفة.

وقد أولى الإسلام أهل الكتاب، من اليهود والنصارى والمجوس، معاملة أشدّ خصوصية باعتبارهم أتباع ديانات سماوية. بالرغم مما وقع من التحريف في أديانهم،

(١) السيرة الحلبية. ج٣، ص٢٣٥.

ويكفي أنه تعالى أطلق عليهم وصف أهل الكتاب، وهو وصف ينمّ عن الاحترام. علاوة على ذلك، دعاهم إلى الحوار والتوافق على المشتركات، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. وقد أشاد الإسلام بالمسيحيين على نحو خاصّ، قياسًا على اليهود الذين تعاطوا مع الدعوة الإسلامية منذ البدء تعاطيًا سلبيًا، وحاكوا المؤامرات وخاضوا الحروب مع المسلمين، على النقيض من الموقف الإيجابي الذي أبداه المسيحيون من الدعوة، من هنا ميّز الإسلام بين الموقفين، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [سورة المائدة، الآية:٨٢].

تعثّر العلاقة مع المسيحيين

غير أنّ العلاقة بين المسيحية والإسلام أخذت منعطفًا آخر فيما بعد، على خلاف ما كانت عليه عند بداية ظهور الإسلام. فقد شقّ المسلمون طريقهم كأمّة صاعدة، فيما اختار المسيحيون، ممثلين في حكوماتهم السياسية، الوقوف في وجه هذه القوة الإسلامية الجديدة، مما قاد لاشتعال الحروب بين أتباع الديانتين، بدءًا من معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة، ثم تلا ذلك نشوب معركة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، التي لم يقع خلالها اصطدام عسكريّ فعليّ بين الطرفين، لتتابع بعدها حالات الصراع والحروب بين المسلمين والمسيحيين، إلى أن استطاع المسلمون بسط نفوذهم على أنحاء كثيرة من العالم، من خلال الفتوحات الإسلامية، فيما تراجعت القوة المسيحية.

هنا ينبغي الإشارة إلى ما شاب الفتوحات الإسلامية من ممارسات لا تعبّر بالضرورة عن رأي الإسلام، ومردّ ذلك إلى من كان على رأس هذه الغزوات من سياسيين وعسكريين، بعضهم كانوا يمارسون الظلم والجور على المسلمين أنفسهم، فضلًا عن غير المسلمين. ثم جاءت مرحلة الحروب الصليبية التي شنّها المسيحيون ضدّ الأراضي الإسلامية، ليعقبها فيما بعد عهد الاستعمار الغربي لمعظم البلاد العربية والإسلامية. هذا ما يلخّص على نحو سريع المنعطفات التي شابت العلاقة

الشائكة بين المسلمين والمسيحيين خلال القرون الماضية.

هذا العصر وفرص التجاوز

وبصرف النظر عن أحداث التاريخ، يبدو أنّ الفرصة باتت مؤاتية لقيام علاقة أكثر إيجابية بين الشعوب الإسلامية والمجتمعات الغربية المسيحية، في عصرنا الراهن. ومردّ ذلك إلى عوامل عدة، منها: تغيّر الحالة الدينية عند المسيحيين، وانكفاء الهيمنة الكنسية التي كانت تنشب أظفارها في تلك المجتمعات، خلال القرون الوسطى، وجاءت عوضًا عن ذلك حكومات غربية تعتمد مفهوم المواطنة، في النظر إلى أفراد شعوبها، بصرف النظر عن عقائدهم وأعراقهم وألوانهم، وصار أكبر همها العمل من أجل تحقيق المصالح لبلادها.

زد على ذلك عامل التطور الإنساني في العصر الحديث، المتمثل في قيام مواثيق دولية تنظم العلاقة بين البشر، ومنها مواثيق حقوق الإنسان، ونشوء المؤسسات الدولية الراعية لهذه العهود والمواثيق.

وكذلك الحال على الضفة المقابلة، فقد شهدت الأمة الإسلامية حالة انتشار الوعي في صفوف مجتمعاتها، التي أصبحت تدرك أنّ هناك تمايزًا واضحًا للعيان بين الحكومات الغربية من ناحية، وشعوبها من ناحية أخرى، على نحو باتت فيه للحكومات سياساتها وأجندتها، فيما بات للشعوب ثقلها، ورأيها العام، الذي ربما جاء معاكسًا لتوجهات حكوماتها. لذلك توفرت فرص كبيرة للمسلمين لكسب تعاطف الشعوب الغربية مع قضاياهم، بالضد من التوجّهات السياسية الحاكمة هناك.

إنّ من الصحيح أنّ هناك مراكز قوى متعددة في الدول الغربية. ولهذه القوى خططها ووسائل نفوذها، كما أنّ المجتمعات الغربية مجتمعات منفتحة على التواصل، ونسج العلاقة، والقابلية للتأثر والتأثير.

الجاليات الإسلامية جسور تواصل

وينبغي أن نضع بعين الاعتبار عاملًا مؤثرًا في العلاقة بين الغربيين والمسلمين،

يتمثل في الهجرات الكبيرة لأبناء الأمة الإسلامية للدول الغربية، حيث باتت تلك الدول موطنًا للملايين من المهاجرين المسلمين، الذين وفدوا عليها لأسباب مختلفة، وحصلوا على جنسياتها، وباتوا جزءًا من نسيجها الاجتماعي، حتى لا تكاد تخلو مدينة غربية من وجود إسلامي.

وقد ذكّرنا احتضان الشعوب الغربية للمهاجرين المسلمين في عصرنا الراهن، باستقبال أسلافهم من مسيحيي الحبشة للمسلمين الأوائل، سيمّا وأن كثيرًا من المهاجرين المعاصرين قد هربوا من الاضطهاد الديني والسياسي والعرقي، أو الحرمان الاقتصادي الواقع عليهم في بلادهم، فلما ذهبوا للغرب احتضنتهم تلك المجتمعات، ووفرت لهم الأمن والاطمئنان، وأتاحت لهم الفرص، بما في ذلك ممارسة شعائرهم الدينية، فأقيمت هناك المساجد والحسينيات والمراكز الدينية والمدارس.

وبعيدًا عن رسم صورة مثالية عن الوضع هناك، يمكن الاعتراف بوقوع وبروز المشاكل أمام المسلمين في بعض الأحيان، غير أنّ هناك في المقابل مبدأ سيادة القانون، ورسوخ مفهوم المواطنة، واحترام حقوق الإنسان، ما يساعد كثيرًا في محاصرة المشاكل ومعالجتها.

لقد ساهم تفاعل الجاليات المسلمة في الغرب، مع بيئاتهم الاجتماعية، في ترك تأثير إيجابي على العلاقة المسيحية الإسلامية. ومن مظاهر ذلك بروز حالة التفهّم للإسلام في أوساط تلك المجتمعات، الأمر الذي دفع كثيرين منهم للدخول في الإسلام، حتى أصبح أسرع الأديان انتشارًا في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بلدان أخرى، فيما اكتسب المهاجرون المسلمون العلم، وتشرّبوا القيم الحضارية، ما يعني قيام تأثير وتأثر متبادل بين المهاجرين المسلمين وتلك المجتمعات.

كما أنّ حالة الانفتاح العالمي أسهمت في بروز تفهّم أكبر وتداخل عميق بين الشعوب الإسلامية والمجتمعات المسيحية. وذلك بفضل التقدم التكنولوجي،

وتقنيات الاتصال، ومواقع التواصل الاجتماعي، على النحو الذي جعل من العالم قرية واحدة.

بين الشعوب الغربية وحكوماتها

وكان متوقّعًا أن تقوم في هذا العصر علاقات إسلامية مسيحية أكثر ايجابية وأهمية، حيث كان مسار العلاقة يمضي بهذا الاتجاه، فهناك فرق كبير بين مناوأة المسلمين لسياسات الحكومات الغربية، وبين العلاقة مع شعوب تلك الدول. ولطالما أظهرت فئات من الشعوب الغربية تضامنها مع قضايانا العربية والإسلامية، وعلى رأسها قضية فلسطين المحتلة، التي ضحّى بعض الغربيين بأنفسهم في دفاعهم عنها. ناهيك عمّا تظهره منظمات المجتمع المدني في الغرب من تعاطف كبير مع معاناة الشعوب العربية والإسلامية، التي ترزح تحت سيطرة حكومات استبدادية.

وخلافًا لما سبق، ظهر من يستغلّ مواقف الحكومات الغربية من قضايا المسلمين ذريعة للإساءة للشعوب والمجتمعات الغربية. وفي ذلك خلط متعمّد للأوراق وحرف للبوصلة، وتضييع للمسار، فأن يكون لدى أيّ طرف كان مشكلة مع حكومة من الحكومات الغربية فإنّ لديه الحقّ في مواجهتها، وذلك أمر متفهّم، إلّا أنّ من غير المفهوم ولا المقبول أن يمارس الاعتداء على المواطنين الأبرياء في تلك المجتمعات.

إنّ المنظمات الإرهابية المنتسبة زعمًا للإسلام أفسدت العلاقة بين الشعوب الإسلامية وبين المجتمعات الغربية، من خلال اعتداءاتها الإرهابية ضدّ أبناء تلك الشعوب، كما حصل في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، وغير ذلك من المناطق، مما جعل العلاقة الإسلامية المسيحية تمرّ بمرحلة حرجة، وبات الوجود الإسلامي في الغرب مثيرًا للقلق، وألقى بظلاله على كلّ مظاهر التواجد الإسلامي هناك، من مراكز إسلامية ومساجد ومدارس، وعلى نحوٍ جعل العائلات الإسلامية تواجه مصاعب مستجدة لم تقابلها فيما سبق، ناهيك عن الإجراءات الطويلة التي باتت تفرضها السفارات الغربية

على المسلمين، من طالبي تأشيرات الدخول إلى أوروبا وأمريكا، وما يتبع ذلك من إجراءات أمنية مشدّدة في المطارات.

التداعيات الخطيرة للحركات الإرهابية

يمكن القول هنا، إنّ من حقّ الدول الغربية أن تتخذ الإجراءات التي تحفظ أمنها، وتمنع من تسلل الإرهابيين إلى أراضيها. إلّا أنّ ذلك ترك تداعيات سلبية على شكل العلاقة بين المجتمعات الغربية والوجود الإسلامي فيها، على نحوٍ بات هناك عمل على تكوين رأي عام مناهض للإسلام، ومعادٍ لوجود المسلمين في الغرب. وفي الوقت الذي نعتقد فيه بوجود قوى مستفيدة من حالة التوتر في العلاقة الإسلامية المسيحية، بل وتستثمر فيها، وعلى رأسها الصهيونية العالمية، واليمين المسيحي المتطرف، والجهات السياسية المستفيدة، إلّا أننا ينبغي أن نعترف في الوقت عينه بالمشكلة التي نعيشها في داخلنا، حيث يعجّ تراثنا الديني بالمواقف السلبية المتشنجة من أتباع الديانات الأخرى، بالرغم من وضوح المبادئ الإسلامية الإيجابية، فهناك في هذا التراث نصوص وآراء لا تجعل المسلم ينظر نظرة احترام للآخرين، أو يتعامل معهم على نحو سلمي، لفرط الشحن السلبي الذي توفره بعض مقولات هذا التراث.

صحيح أننا نعتقد أن الإسلام هو الدين الحق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾، لكن ذلك لا يعني أبدًا إعطاء الضوء الأخضر لممارسة الإساءة للأديان الأخرى. فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة»[1]، كما أمرنا الباري جلّ وعلا أن نقابل الناس كافة بالعدل والإحسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ونهانا عن ظلم الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

(١) سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجِسْتاني. سنن أبي داود. حديث ٣٠٥٢، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث ٢٦٢٦.

إنّ مما لا شك فيه أن هناك مقولات تسلّلت إلى تراثنا الديني، إما باصطناع واختلاق نصوص مزورة، أو بإنتاج تفسير سيئ لبعض النصوص يعتمدها بعض الفقهاء في إصدار فتاوى متشددة، وآراء مخجلة من الناحية الإنسانية في التعامل مع الآخر، والشواهد كثيرة معروفة، كما أنّ هناك من علماء الدين، وخطباء المنابر، والدعاة، من احترف التعبئة ضد أتباع الديانات الأخرى على نحو الإطلاق، كالدعاء بالهلاك على جميع اليهود والنصارى، دونما مبرّر شرعي أو عقلي يبرر هذا الدعاء، إذ من المفهوم أن يأتي الدعاء بالهلاك على الظالمين والمعتدين، لا أن يكون على عموم الناس لمجرّد كونهم من دين معيّن.

وماذا عسانا نتوقع من أتباع الديانات الأخرى إذا سمعوا مكبرات الصوت تصدح من مساجدنا بالدعاء عليهم بالهلاك؟ والأغرب من ذلك، أن يقع بعض أفراد الجاليات الإسلامية اللاجئين إلى الغرب، في منزلق الدعاء بالهلاك على تلك الشعوب التي احتضنتهم وآوتهم وأحسنت إليهم، حتى إنّ أحد هؤلاء اللاجئين المتطرفين سئل في لقاء صحفي، عن سبب بقائه في بلاد الغرب وهو يحمل كمًّا هائلًا من الضغينة عليهم، ويتمنّى هلاكهم؟ فجاء بجواب غاية في القبح بقوله: إنّ الإنسان يضطر إلى دخول بيت الخلاء (المرحاض) ولكنه لا يمتدحه!!.

الخطاب المتشنج والتعبئة المتطرفة

إنّ الخطاب الديني المتشنّج، والتعبئة السياسية المتطرفة، تتحمّل قسطًا كبيرًا من المسؤولية عن العلاقة الشائكة بين الشعوب الإسلامية والشعوب الغربية. ولنا أن نراقب صدور الفتاوى المتزامنة مع أعياد الميلاد، التي تنصّ على منع المسيحيين في البلاد الإسلامية من الاحتفاء بعيد ميلاد المسيح عليه السلام. فما هو يا ترى المبرّر من منع ملايين المسيحيين في البلاد الإسلامية من ممارسة عباداتهم والاحتفال بأعيادهم، سيّما وقد استضافتهم البلاد وفتحت لهم أبواب العمل وبعضهم من أبناء هذه البلدان؟

في مقابل ذلك، لنا أن نلقي نظرة على الأوضاع الإيجابية للمسلمين في البلاد

المسيحية، على نحوٍ درجت أعلى المؤسسات السياسية والبرلمانية الغربية على تقديم التهاني بالأعياد الإسلامية للجاليات المسلمة في بلادهم، وحول العالم، كما راحت بعض البلدان المسيحية تعطي عطلة رسمية للعاملين المسلمين في أعيادهم، فإذا كانت البلاد المسيحية تمنح المسلمين كامل حرياتهم الدينية، فإنّ من اللازم أن تعامل البلاد الإسلامية المسيحيين في بلادها معاملة المثل، بأن تمنحهم كامل الحقّ في ممارسة حرياتهم الدينية. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في تعامله مع مسيحيي الحبشة، الذين وفدوا عليه في المدينة المنورة، وقد قال ﷺ: «.. وَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ أُكَافِئَهُمْ».

لذلك، لا وجه لأن يمنع المسيحيون في بلاد المسلمين من أن يعبّروا عن ذواتهم، وأن يمارسوا عباداتهم بحرية. إنّ من الصحيح أن لنا كمسلمين أعيادنا ومناسباتنا، ولسنا بوارد الاحتفال بالمناسبات الدينية للأمم الأخرى، ولكن ما ربط ذلك بمنعهم من الاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الخاصة بهم؟ والأنكى من ذلك، ما نجده من فتاوى تمنع المسلمين من مجرّد تهنئة المسيحيين وأتباع الديانات الأخرى بمناسباتهم الدينية والاجتماعية، حتى لو كانت التهنئة موجهة لعاملة منزلية مسيحية، أو سائق مسيحي! إنّ التعامل مع الآخرين على هذا النحو من الجفاء، هو أبعد ما يكون عن الحالة الإنسانية، ومردّ ذلك التفسير السيئ لآيات وأحكام الجهاد في الإسلام، ما يؤدي بدوره إلى صناعة أرضية غير متسامحة مع أتباع الديانات الأخرى.

نحن مطالبون أن نعيد النظر في تراثنا الديني، لجهة التعامل مع سائر البشر من الديانات الأخرى. كما أنّ على المسلمين الموجودين في الغرب على نحو خاصّ، القيام بمبادرات خلّاقة لتحسين صورة الإسلام، وسمعة الأمة، التي لطختها الممارسات الإرهابية، على أن يجري ذلك على نحو منهجي منظم، لا أن يأتي نتيجة ردود فعل على حدث هنا، أو إساءة للإسلام هناك، سيمّا وأنّ الجماعات المتطرفة آلت على نفسها إفساد العلاقة بين شعوب الأمتين الإسلامية والمسيحية، إمّا لجهلٍ وحماقة، أو لأنها مدفوعة من جهات مغرضة.

الإسلام والحضارات الأخرى قطيعة أم تفاعل

كان الناس يعيشون خلال فترات ما قبل التاريخ ضمن جماعات صغيرة. دأبهم التّنقل من مكان إلى آخر بحثًا عن الطعام، فكانوا يصطادون الحيوانات والأسماك، ويجمعون النباتات البرية. ولم تكن هذه الحياة البسيطة القائمة على الروابط العائلية المحدودة، تحتاج إلى وجود تنظيم اجتماعي معقّد.

ومع اكتشاف الإنسان طرق الزراعة، اتّجهت هذه الجماعات إلى الاستقرار، ونشأت تجمّعات إنسانية مستقرّة في أماكن محدّدة، الأمر الذي أبرز حاجة هذه المجتمعات إلى التنظيم، لتنشأ عند هذه النقطة بداية النظم الاجتماعية. وقد ارتبط تقدم هذه النظم وتكاملها على مختلف الصُّعد، بتقدّم المجتمع اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، وصولًا إلى بلوغ مرحلة الحضارة، وانتقال المجتمعات البشرية إلى حقبة قيام الحضارات.

توارث الحضارات

ويقدّر المؤرخون نشأة أقدم الحضارات البشرية بثلاثة آلاف وخمسمئة سنة قبل الميلاد. حين بدأت المجتمعات تدير شؤون حياتها، ضمن تنظيمات معقّدة، اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، وقد انبثقت أولى الحضارات في الشرق، فكانت حضارة وادي الفرات في العراق، وحضارة وادي النيل الممتدة في المنطقة التي تشمل مصر والسودان، وثالثة في وادي السند فيما يعرف اليوم بباكستان، ورابعة في منطقة هيان تشي في الصين، وشكّلت بمجموعها الحضارات القديمة، التي استمرّت كلّ منها حقبة زمنية معينة إلى أن شاخت، وتوقّفت عن العطاء.

ويُشبّه علماء التاريخ سيرورة الحضارات بالكائن الحيّ، حيث تمرّ أيّ حضارة بمرحلة الطفولة والشباب ثم الشيخوخة، وصولًا إلى مرحلة الانهيار. وكما يقول مؤرّخ الحضارات آرنولد توينبي، إنّ الحضارات تنهار حينما يفقد الناس قدرتهم على الابتكار. وما يجري في واقع الحال أنّ أفول أيّ حضارة غالبًا ما يعقبه قيام حضارة أخرى، مستلهمة من تجربة الحضارة السابقة، وبانية على ميراثها، فالعلاقة بين الحضارات البشرية هي علاقة توارث وتدوير للتجارب، وتبادل لها، على طريقة تناقل الشعلة الأولمبية بين الأفراد وفقًا لتشبيه أحد العلماء، فالحضارات الإنسانية في الغالب لم تكن تبدأ من الصفر؛ لأنّ أيّ تقدّم يحصل في أيّ مجتمع إنساني، فإنّه ينتقل بصورة أو أخرى لسائر المجتمعات الأخرى، سوى أنّ الفارق هو بطء عملية الانتقال في الماضي التي كانت تستغرق وقتًا أطول، نتيجة بطء عملية التواصل، قياسًا بتقدمها في الحاضر، مما زاد سرعة التفاعل بين الحضارات والأمم.

وقد تزامنت بعثة النبي محمّد ﷺ في القرن السادس الميلادي، مع بلوغ حضارتين عريقتين مراحلهما الأخيرة. حيث كانت الحضارة الفارسية والرومانية قد اعترتهما حالة الشيخوخة والتآكل الداخلي، بعد سنوات طويلة على تسيّدهما الساحة العالمية، حيث فقدت مجتمعاتهما حيويتها، وكانتا في طريقهما نحو التفكّك والانهيار.

وكان العرب في الجزيرة العربية آنئذٍ يعيشون على هامش الحضارة، وكانت

النظم والعادات والأعراف الاجتماعية المهيمنة على حياتهم في منتهى البساطة والتخلّف. ووسط هذه الأجواء المحلية والعالمية بعث الله نبينا محمّدًا ﷺ، فجاء لإنقاذ مجتمعه المحلي أوّلًا، والتوجّه من خلاله لإنقاذ المجتمعات الأخرى على مستوى العالم، وبذلك جاء الإسلام كمشروع حضاري لإنقاذ البشرية.

من هنا يأتي السؤال، بشأن ما إذا كانت بداية الإسلام كمشروع حضاري انطلقت من نقطة الصفر، بمعزل عن الحضارات السابقة عليه، أم أنّ الإسلام شأنه شأن الحضارات الأخرى، خاضع لسنة توارث الحضارات كما مرّ آنفًا؟ وتنطلق أهمية السؤال لما فيه من تأسيس لفكرة مهمّة، بشأن نمط العلاقة المفترضة بين المسلمين في العصر الراهن والحضارات الأخرى، وما إذا كان ينبغي أن تتّسم هذه العلاقة بالقطيعة، أم يمكن لها أن تكون علاقة قائمة على التواصل والحوار والاستفادة من التجارب؟

ولا يخفى أنّ هناك فريقًا من المسلمين لا يرون ضرورة لوجود علاقة بين الإسلام كدين وحضارة، وبين الحضارات الأخرى القائمة، ويميل هؤلاء إلى انغلاق المسلمين على أنفسهم، واكتفائهم بالحفر في تراثهم، على نحو ينحتون به حضارة منطلقة من عمق تراثهم الديني وحده، بمعزل تامٍّ عن الحضارات الأخرى.

الإسلام وتجارب الحضارات

حقيقة الأمر، إنّ بزوغ الإسلام كدين وحضارة لم يبدأ من الصفر، ولم يأتِ بمعزل عن منجزات الحضارات الأخرى، وإنّما استفاد منها، وبنى عليها، وأخذ من تجاربها. وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم، الذي قدّم الإسلام باعتباره امتدادًا للرسالات السماوية السابقة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، ومن الواضح أنّ الآية الكريمة تشير بجلاء إلى أنّ الإسلام هو امتداد لما سبقه من الرسالات والأديان السماوية، وعلى غرار ذلك هناك ثماني عشرة آية في القرآن الكريم تشير إلى ذات

المضمون، وتصرّح بأنّ القرآن الكريم جاء ﴿مُصَدِّقًا﴾ للرسالات والكتب السماوية التي سبقته، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، فالقرآن الكريم جاء مصدّقًا لما سبقه من الكتب، ومهيمنًا عليها، أي مستوعبًا لها، ومكملًا لأهدافها وأغراضها.

هذا في جانب التشريع والأنظمة، إما الجانب العقدي والقيمي، فكل رسالات الأنبياء تنطلق من أصول موحدة.

ربما يقول البعض إنّ الإسلام نسخ ما تقدّم من شرائع سماوية. لكنّ الإسلام لم ينسخ تلك الرسالات نسخًا تامًّا، على نحو يلغي جميع ما جاءت به الشرائع السابقة، وإنّما نسخ بعضًا منها، وطوّر البعض الآخر. وصحيح أنّ القرآن الكريم تحدّث عن التحريف الذي طرأ على التوراة والإنجيل، لكنه لم يقل أبدًا بأنّ جميع ما في الكتابين باطل محض، وهذا ما تشير إليه آيات كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾، فالقرآن الكريم يدعو اليهود والنصارى لاتّباع الإسلام، موعزًا إليهم بأنّ الدين الجديد ليس نقيضًا تامًّا لما بين أيديهم من الكتب المقدسة ولا لاغيًا لها، وإنّما مصدّق لما فيها، مع تطوير لتعاليمها بما يتناسب وتطور الحياة.

إقرار العادات العربية الحسنة:

وانسحب ذلك أيضًا على مستوى مجتمع الجزيرة العربية، حيث لم يُلْغِ الإسلام كلّ الأعراف والتقاليد التي كانت سائدة قبل بزوغ الرسالة. فبالرغم من سوء الحالة العامة في المجتمع، حيث الجهل والتخلّف والفساد والانحراف، لكن المجتمع العربي مع ذلك لم يكن يخلو من الصفات الطيبة، والعادات الحسنة. لذلك لم يأتِ الإسلام لاستئصال كلّ ما كان في ذلك المجتمع من عادات وتقاليد عن بكرة أبيها، وإنّما عمد إلى الإبقاء على الجوانب الإيجابية، من العادات والأعراف التي كانت سائدة في المجتمع.

إنّ من المعلوم أنّ المجتمعات البشرية على وجه العموم تتوارث الحالات الإيجابية فيما بينها، ولربما كانت منابعها الأولى تعود إلى الأنبياء، إلى جانب الفطرة الإنسانية السليمة. وفيما روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١]، وجليٌّ أنّ النبي ﷺ استخدم مفرد «أُتمم» في إشارة إلى أنّه ﷺ لم يدّع أنّه جاء لتأسيس مسار الأخلاق من نقطة الصفر، وإنّما جاء ﷺ لإتمام ما كان موجودًا من مكارم الأخلاق.

وهناك العديد من النصوص الدينية التي تشير إلى أنّ الإسلام قد أقرّ بعض السنن والعادات الموجودة في المجتمع العربي السابقة على ظهوره. فقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنّه قال له: «يا عليّ، إنّ عبد المطلب سنّ في الجاهلية خمس سنن أجازها الله له في الإسلام؛ حرّم نساء الآباء على الأبناء، ووجد كنزًا فأخرج منه الخمس وتصدّق به، ولما حفر زمزم سمّاها سقاية الحاج، وسنّ في القتل مئة من الإبل، ولم يكن للطواف عدد عند قريش، فسنّ فيهم الطواف لسبعة أشواط»[٢].

وثمّة أعراف أخرى أجازها الإسلام كذلك، ومنها حدود منطقة الحرم في مكة، التي يفترض عدم التعرّض ضمن نطاقها لأيٍّ كان حتى لو كان مطلوبًا بدم. والحال نفسه مع إقرار عدة الأشهر الحرم التي كانت سائدة في مجتمع الجاهلية. وامتدّ ذلك أيضًا إلى الكثير من العادات الحسنة، ومن ذلك إقرار الإسلام عادة إكرام الضيف التي كان يتفاخر بها العرب، حيث ورد عن النبي ﷺ أنّه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٣]. وكذلك الحال مع إقرار حالة الجوار وحفظ حقّ المستجير، فإنْ أجار أحد مستجيرًا، فلا يحقّ لأحدٍ أن يخفر ذمّته وينتهك جواره، حتى لو كان المستجير من جهة معادية، وكان النبي ﷺ نفسه قد استفاد من هذا العرف الجاهليّ

(١) مجمع الزوائد. ج٩، ص١٥، وبحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٨٢.
(٢) الشيخ الصدوق. الخصال، ص٣١٢.
(٣) الكافي. ج٦، ص٢٨٥، حديث١.

عند ذهابه إلى الطائف، واستجارته بالمطعم بن عدي.

وقد كانت سدانة البيت الحرام، وسقاية الحاج، بيد قريش، فأقرّها الإسلام بعد فتح مكة، وأبقى عليها كما كانت، بل وأبقى السدانة في بني شيبة أنفسهم. وعلى هذا النحو يمكن الوقوف على العديد من الأعراف والتقاليد التي كانت سائدة قبل الإسلام، وأقرّها النبي ﷺ فيما بعد.

منهجية تفاعلية

لقد وضع الإسلام منهجية تفاعلية مع كلّ ما هو إيجابي عند الآخرين. فلمَ يُربِّ أتباعه على القطيعة والإعراض التامّ عمّا عند الآخرين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»[١]، وجاءت الحكمة لغويًّا من الإحكام والإتقان، ولا شك بأنّ ذلك يشمل الاستفادة من الآخرين في مجال نظم إدارة الحياة وشؤون المجتمع.

وجاء عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «الحكمة ضالّة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحقّ بها وأهلها»[٢]، وورد عنه في كلمة أخرى: «الحكمة ضالّة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق»[٣]. وتبعًا لهذه المنهجية، انفتح المسلمون على الحضارات الأخرى إبّان مرحلة الفتوحات الإسلامية، واحتكاكهم بتلك المجتمعات، واجتهدوا في الاستفادة مما عندهم من إيجابيات كبيرة.

وقد أنشأ المسلمون في زمن المأمون العباسي ما عرف ببيت الحكمة، فاجتمع فيه كبار العلماء والمفكّرين، وكانت مهمتهم ترجمة الكتب العلمية من الحضارات الأخرى، اليونانية والفارسية والهندية، وضمن مجالات عدة، من الفلسفة والسياسة

(١) الترمذي: محمد بن عيسى. سنن الترمذي، حديث ٢٦٨٧، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م، (بيروت: دار الكتب العلمية).

(٢) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٣٤، حديث١١٥.

(٣) نهج البلاغة. قصار الكلمات، رقم٨٠.

والرياضيات والطبّ وغيرها، وكان ذلك عملًا مهمًّا عظيمًا، حيث لم يكتف المسلمون بترجمة تلك العلوم، وإنّما أضافوا عليها وطوروها، فقد ترجم الكندي فلسفة أفلاطون وأرسطو وطوّرها، لتأتي بعد ذلك الحضارة الغربية، ولتستفيد من أعمال الكندي في فهم فلسفة أفلاطون، والحال نفسه مع إبداعات ابن سيناء في مجال الفلسفة العقلية، وابن خلدون وإضافاته على علم الاجتماع، وابن رشد ودوره في إنتاج فلسفة عقلانية استفاد منها الغرب في بناء حضارته الحديثة، وهكذا الحال مع سائر العلوم التي أنجزها المسلمون.

وهناك في المكتبات الغربية عشرات الآلاف من الوثائق التي تشهد بفضل الحضارة الإسلامية على الغرب، والتي لا ينكرها الغربيون أنفسهم، بل كتبوا في ذلك بحوثًا ودراساتٍ كثيرة، حول استفادة الحضارة الغربية الحديثة من العلوم التي طوّرها المسلمون العرب.

لقد أخذ المسلمون العلم من الغرب، واستوعبوه جيّدًا، وطوّروا منه، وأضافوا عليه، ثم عاد الغربيون ليستفيدوا من هذا التراث العلمي، والجميع يعلم جيّدًا مدى تأثير الحضارة الإسلامية في الأندلس التي استمرّت ثمانية قرون، حتى القرن الخامس عشر الميلادي، والتي ورث الغربيون كثيرًا من إنجازاتها العلمية.

الثقة بالنفس دافع الانفتاح

لا يجد الواثقون في أنفسهم، شعوبًا أو حضارات، أدنى مشكلة في الانفتاح على الحضارات الأخرى. وذلك على النقيض من الذين يعيشون الهزيمة النفسية والانكسار، ولا يملكون الثقة بأنفسهم، ويرتابون مما عند الآخرين، وهذا تحديدًا ما تعيشه أمّتنا في العصر الراهن. حيث لم تكن عند الأمّة إبّان مرحلة رقيّها الحضاري أيّ مشكلة في الانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى، بل هي التي سعت إلى ذلك، وترجمت أمّهات الكتب العلمية لتلك الحضارات، واستفادت من تجارب الآخرين، وأضافت عليها، أمّا في وقتنا الراهن فقد باتت تسيطر الروح الانهزامية

على معظم المسلمين، لذلك تجد هؤلاء ينظرون إلى الآخرين ومنجزاتهم بكثير من الرّيب والشك، فهم يحرّمون الانفتاح على ما عند الآخرين والاستفادة منه، فلا ديمقراطية ولا انتخابات ولا حقوق للمرأة، كلّ ذلك بدعوى أنّه من التغريب.

إنّ هذه المنهجية المرتابة، تأتي بخلاف سنن الحياة على صعيد نموّ الأمم والحضارات، حيث لا يمكن لنا أن ننطلق ونبني حضارتنا ونحن في حالة انغلاق تامّ، ولا يسعنا تأسيس انطلاقة حضارية جديدة، إلّا بالإقدام على ما فعله أسلافنا المسلمون فيما سبق، من الانفتاح على الحضارات الأخرى، واستيعاب ما لديها من إيجابيات، وتلافي السلبيات، ومن ثم نستطيع أن نطوّر ونقدّم للبشرية شيئًا جديدًا.

وكما تدفع الروح الانهزامية وفقدان الثقة بالذات إلى الانغلاق، فإنها قد تدفع إلى الانبهار والتبعية للآخرين وهذا ما وقع فيه قسم من أبناء الأمة في هذا العصر.

ينبغي أن ننأى بأنفسنا عن التهيّب من الانفتاح على الحضارات الأخرى، ومن الانبهار المطلق بها والتبعية والانهزامية لها. نحن مدعوون للتسلح بقيمنا ومبادئنا، تلك القيم التي بدأت المجتمعات الأخرى الاستجابة لها على نحو أكبر؛ لما في القيم الإنسانية الحاكمة في تلك المجتمعات من جذور وأصول في ديننا، إلّا أننا مع الأسف أضعنا الكثير منها.

عمدة لندن مسلم باكستاني

وقد تابع العالم في مايو ٢٠١٦م الانتخابات التي جرت لاختيار عمدة لندن؛ لما لهذه المدينة من وزن سياسيّ واقتصاديّ ورمزية كبيرة، حيث خاض تلك الانتخابات عن حزب العمّال، مسلم بريطاني، من أصل باكستاني، يدعى صادق خان، وفاز فيها بمنصب عمدة المدينة البريطانية الأعرق، متفوّقًا على مواطنه المسيحي مرشّح حزب المحافظين.

إنّ هذه الحالة التي شهدها المجتمع البريطاني تُعَدّ حالة بالغة التقدّم، فقد استقبل هذا المجتمع أسرة مهاجرة قادمة من باكستان، لتصبح جزءًا من المجتمع، ثم يرشّح

أحد أبناء تلك الأسرة نفسه لتقلّد منصب مهمّ في تلك البلاد، فيتقبل المجتمع ذلك ويتفاعل معه، ويرشّحه، هذه في حقيقة الأمر قيمة إنسانية عظيمة، نجد جذورها في مبادئنا الإسلامية، لولا أنّنا أضعنا هذه القيم، خاصة حيال مسألة التعامل مع الوافدين والمهاجرين إلى ديارنا، بل الأنكى أنّنا أضعنا تلك القيمة حتى على مستوى تعاملنا مع بعضنا بعضًا، عندما أوصدنا الأبواب في وجه الكثيرين، وحرمناهم من تبوئ المواقع والمناصب المهمّة، حتى لم يعودوا يجرؤون على التفكير أو حتى الحلم بالوصول إليها، لا لشيء سوى انتمائهم إلى أقلّية قومية أو دينية أو مذهبية. من هنا ينبغي التأكيد مجدّدًا، أنّ عند المجتمعات الأخرى كثيرًا مما ينبغي أن نستقيه منهم، سيّما وأنّ ذلك ليس من عنديّات تلك المجتمعات على نحو مطلق، وإنّما هو عصارة التجارب البشرية والفكر الإنساني.

إضاءة ثالثة

صناعة التحول

تغيير العقلية القبلية

كانت العقبة الكأداء التي واجهت رسول الله ﷺ في دعوته للدين هي العقلية القبلية السائدة في المجتمع العربي.

ذلك أنّ المجتمع العربي كان يحكمه نظام القبيلة.

والقبيلة هي جماعة من الناس تنتمي إلى أصل واحد، وينحدرون من أبٍ واحد، فتجمعهم قرابة النسب والدم، وهم يؤمنون بهذا المبدأ، ويعتبرونه مبدأً يحدد ويرسم علاقتهم الداخلية فيما بينهم، وعلاقاتهم مع الآخرين.

كان عنوان العربي قبيلته، ينتمي إلى القبيلة ويفخر بها، فهي التي توفر له الحماية، وتمنحه القيمة، وتعطيه حصته من الغنيمة، فقد كانت حياتهم حياة احتراب واقتتال، وكانت الطبيعة التي يعيشون فيها عبارة عن صحراء شاسعة قاسية، مواردها محدودة، لذلك لم يكن الفرد وحده وبذاته قادرًا أن يؤمّن لنفسه الحياة والرزق والحماية، فكانت القبيلة هي التي تؤمن كلّ ذلك لأفرادها، الآخرون

يحترمونه؛ لأنهم يحسبون لقبيلته حسابًا، وإذا أصيب أحدٌ من أيّ قبيلة، فقبيلته كلها معنية بالانتقام له والأخذ بثأره، كانوا يقتاتون على الاقتتال والاحتراب، قبيلة تهاجم أخرى، وتسلبها، وتحصل على الغنائم منها، وتوزع ذلك على أفرادها، خاصة المقاتلين، فمصلحة الفرد وحياته واعتباره آنذاك يتحدد بانتمائه القبلي، فكان هذا هو النظام السائد والمسيطر على الناس، هذا النظام القبلي أنتج ما نطلق عليه (العقلية القبلية).

فالمسألة ليست مجرد نظام حياة وعلاقات اجتماعية، بل أصبحت عقلية الإنسان وتفكيره ومشاعره متشكلة من خلال هذا النظام القبلي، والعقلية القبلية لها مظاهر، أبرزها:

تجميد عقل الفرد

الفرد ضمن القبيلة غير معني بالتفكير واتخاذ الرأي والقرار، فهو واحد من قبيلة، وهي التي تفكر وتتخذ الرأي والقرار، والفرد تابع لهذه القبيلة، والعبارة المشهورة في المجتمعات العربية (الشيوخ أبخص) تلخص هذه الحالة، أي إنّ شيوخ القبيلة أعرف، فهم الذين يفكرون ويتخذون القرار، والفرد العادي غير معني بالتفكير إطلاقًا.

وتجري هذه القاعدة حتى في الدين والمعتقد!

فليس للفرد أن يقرّر أيّ دين يتبع، أو أيّ مذهب يختار، القبيلة هي التي تقرر، والقرآن الكريم يصف هذه الحالة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٧٠].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ١٠٤].

فالفرد التابع للقبيلة لا ينظر إلى زاوية العقل أو العلم أو الهداية، ما دامت القبيلة قررت، فليس له أيّ خيار آخر، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٦٧].

وكان العربي يعترف بهذا الأمر ويقر به فهو يتبع قبيلته، يقول الشاعر الجاهلي دريد بن الصمة:

ومَـا أَنَـا إلّا مـن غُزيَّـةَ إنْ غـوَتْ غوَيْـتُ وإنْ تَرشُـدْ غزَّيَـةُ أُرْشَـدِ[1]

الولاء للقبيلة هو القيمة العليا

لا يوجد في العقلية القبلية حقّ أو باطل، فالولاء للقبيلة فوق كلّ اعتبار، وحينما تقرر القبيلة موقفًا ليس للفرد أن يخالفه، حتى لو أدرك الإنسان بفطرته وعقله أنّ هذا قرار خطأ، أو فيه ظلم واعتداء على الغير، وكان متداولًا عندهم مقولة: (انصر أخاك ظالمـًا أو مظلومًا)، وعندما جاء النبي الأكرم ﷺ أقرّ هذا المبدأ، وغيّر المعنى.

جاء في صحيح البخاري، أن رَسُولُ اللهِ ﷺ قَال: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»[2].

هذه هي النصرة الحقيقية، أعنه على نفسه.

ووفق العقلية القبلية يجب على الفرد أن يشارك قبيلته أيّ معركة تخوضها، سواء كانت محقة أو مبطلة، حتى إنّ أحد شعرائهم كان يفخر بنصرة ابن قبيلته حتى وإن كان ظالمًا مبررًا ذلك بقوله:

إذا أنـا لـم أنصـر أخـي وهـو ظالـم على القوم لم أنصر أخي وهو يظلم[3]

وقال قريط بن أنيف العنبري التميمي:

---

(١) أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص٥٧٧.

(٢) صحيح البخاري. كتاب الإكراه، باب: أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، حديث ٢٣٣٩.

(٣) الدكتور جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٣٩٣.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[١]

حين يطلب أحدهم النجدة يهبون لنصره، بغض النظر عن صحة موقفه، فلا يطلبون منه دليلًا أو برهانًا، فولاء القبيلة فوق كلّ القيم، بل هو القيمة العليا.

العنصرية القبلية

كلّ فرد من القبيلة يرى أفضلية أفراد قبيلته على الآخرين، حتى لو كان الآخرون أكثر كفاءة ومكانة وعلمًا، ما دام هذا الفرد من قبيلتي فهو أفضل من كلّ فرد من أفراد القبائل الأخرى.

ولما خرج مسيلمة وادّعى النبوة جاءه واحد من قبيلته، وقال له: أنت مسيلمة؟

قال: نعم.

قال: من يأتيك؟

قال: رحمن.

قال: أفي نور أو في ظلمة؟

فقال: في ظلمة.

فقال: أشهد أنك كذّاب وأنّ محمدًا صادق، ولكن كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر[٢].

موقف النبي ﷺ من الانتماء القبلي

أمام هذا الواقع القبلي لم يستهدف النبي ﷺ إلغاء القبيلة كانتماء اجتماعي، ولم يأمر الناس بترك قبائلهم أو الانتساب لها كنظام اجتماعي، بل سعى لإصلاح العقلية القبلية، بالتأكيد على فاعلية الفرد الفكرية، وتحمله المسؤولية، في مقابل الذوبان

(١) عبد القادر البغدادي. خزانة الأدب، ج٣، ص٧٣.

(٢) البداية والنهاية. ج٦، ص٣٦٠.

والتهميش والتبعية العمياء، من جهة أخرى شدد ﷺ في خطاباته وأحاديثه على مبادئ الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وشنّ حربًا على الأفكار والتصورات الجاهلية، بالتفاخر بالأنساب والأحساب، أو التفاضل بالانتماء القبلي أو العرقي.

كقوله ﷺ: «ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية»[١].

فمن مهام النبي الأساس تغيير العقلية القبلية، ودعوة الفرد إلى التفكير وتحمل مسؤولية الرأي والموقف الذي يتخذه.

أنت إنسان حرٌّ، منحك الله عقلًا، وغدًا يحاسبك على قراراتك ومواقفك، فيجب أن تفكر وتتحمل المسؤولية، لا تجمّد عقلك، لا تكن تابعًا لما تقرره القبيلة أو ما يقوله الكبراء، فذلك لا يعفيك من المسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى.

يقول تعالى مصورًا مشهد اعتذار هؤلاء يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[سورة الأحزاب، الآية: ٦٧].

هذا العذر غير مقبول، فقد منح الله الإنسان العقل، وهو محاسب على ضوء عقله وفطرته التي منحه الله إيّاها، لذلك ينبغي للإنسان ألّا يكون أسيرًا لانتمائه، فهذه العقلية لا تنحصر في الانتماء القبلي، فقد يصاب الإنسان بها في مختلف الانتماءات، الدينية أو المذهبية أو الفئوية أو غيرها، فينبغي للإنسان أن يكون حذرًا من غلبة الانتماء على عقله وإرادته.

الانتماء الاجتماعي

كون الإنسان منتميًا إلى حالة اجتماعية معينة أمر طبيعي، لكن هذا الانتماء لا يسوّغ له أن يلغي عقله، وأن يعطي مسؤولية التفكير عنه للآخرين، كما لا يصح للإنسان أن يعتبر الولاء لجماعته أو فئته فوق القيم، إذا أخطأت الطائفة أو الجماعة

(١) سنن أبي داود. حديث ٥١٢١.

يجب أن يتحرر الفرد من قيد الجماعة ويتبرأ من الخطأ.

الإمامُ زينُ العابدينَ عليه السلام لديه كلمة جميلة يتناول فيها هذا المفهوم، عندما سُئلَ عَنِ العَصَبِيَّةِ، فقال: «العَصَبِيَّةُ الّتي يَأثَمُ عَلَيها صاحِبُها أن يَرَى الرَّجُلُ شِرارَ قَومِهِ خَيرًا مِن خِيارِ قَومٍ آخَرينَ، ولَيسَ مِنَ العَصَبِيَّةِ أن يُحِبَّ الرَّجُلُ قَومَهُ، ولكِن مِنَ العَصَبِيَّةِ أن يُعينَ قَومَهُ عَلَى الظُّلم»[1].

حبّ الإنسان للجماعة التي ينتمي إليها أمر طبيعي، لكن الخطأ هو إعانة الجماعة على الظلم، إذا اتخذت الجماعة موقفًا خطأ ضد جهة ما، أو ارتكبت خطأ في مجال من المجالات، على الإنسان أن يبيّن موقفه ويرفض الخطأ.

البعض يعترف أن الموقف الصادر من جماعته خطأ، لكنه يقول: هؤلاء جماعتي، ماذا أصنع؟!

العقلية الإسلامية الصحيحة التي يريدها الدين لا تقبل أن يكون انتماء الإنسان الاجتماعي فوق القيم والمبادئ، وإنما تحت سقف المبادئ والقيم.

تأثير الانتماء على تقويم الآخرين

يتأثر البعض بانتمائه القبلي أو المناطقي عند تقويمه للأشخاص والآراء، ومن أمثلة ذلك ما يحصل في مجال الوظائف، حين تجرى مسابقة للحصول على وظيفة، يتقدم لها مجموعة من المواطنين، هل يتخلى الموظف المختص عن مشاعره القبلية أو الفئوية، ويُحكِّم النظام، ويقدّم الكفاءة؟!

إذا كان الشخص المؤهل الذي تنطبق عليه المواصفات من غير قبيلتي، هل أتيح له الفرصة؟

البعض لا يستطيع التخلص من حالته القبلية، وهذا ظلم، وهو معنى (أن يَرَى الرَّجُلُ شِرارَ قَومِهِ خَيرًا مِن خِيارِ قَومٍ آخَرينَ).

---

(١) الكافي. ج٢، ص٣٠٨، حديث ٧.

وحتى في مجال تقويم الأفكار أو الأعمال، البعض لديه موازين متفاوتة، تختلف باختلاف الأشخاص ومدى قربهم منه، وهذه هي العقلية القبلية التي جاء الإسلام لتغييرها.

النبي ﷺ جاء لتغيير هذه العقلية، حتى يوجه الإنسان ليفكر بعقله، لكي يكون ولاؤه للقيم أولًا، وانتماءاته الأخرى تحت سقف القيم، لكي يتعامل مع الناس بموضوعية وإنصاف، وإن كانوا من خارج دائرة جماعته.

في مجال الشهادة

ومن أمثلة ذلك ما يحصل في مجال الشهادة، عند حدوث نزاع بين شخصين، هل أشهد بالحقّ وإن كان في صالح الطرف الآخر من غير قبيلتي؟!

البعض يجيز لنفسه شهادة الزور، كي يجعل الحقّ لصالح من هو ضمن جماعته وقبيلته، وهو أمر محرم شرعًا.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[سورة النساء، الآية: ١٣٥].

الإسلام جاء ثورة على هذه العقلية القبلية المتحيزة، وقد شدد النبي ﷺ في خطاباته وتوجيهاته على هذا الأمر.

وروي أنه ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال: «إِنَّ اللَّـهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالْآبَاءِ النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى، ثُمَّ تَلَا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ﴾»[١].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام

(١) الكافي. ج ٨، ص ٢٤٦.

التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس، إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»[١].

وفي إحدى الغزوات حصل سوء تفاهم بين مهاجري وأنصاري فصاح أحدهما: يا للمهاجرين! ونادى الآخر: يا للأنصار!

فلما سمع رسول الله ﷺ أدان هذا المنطق قائلًا: «ما بالُ دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة»[٢].

التطبيق العملي

لم يكتفِ رسول الله ﷺ بالتوجيهات والخطابات، بل أكد على ذلك من خلال الممارسة العملية في الإدارة والقيادة الاجتماعية، فقد أسند بعض المهام والمسؤوليات إلى أشخاص ليس لهم شأن اجتماعي حسب المعيار القبلي السائد آنذاك، بهدف كسر هذه الحالة، وليؤكد أنّ الشخص يستحق موقعه بكفاءته، وليس بانتمائه، لأنه ابن فلان، أو لأنه من عائلة أو قبيلة لها شأن.

بلال مؤذن الرسول

في يوم فتح مكة اختار رسول الله ﷺ بلالًا الحبشي ليكون أول مؤذن على ظهر الكعبة، وهو الذي كان عبدًا يباع ويشترى في مكة، وأوقع به أسياده القرشيون صنوف الإهانة والتنكيل، حتى أغروا صبيانهم وسفهاءهم أن يقتادوه بحبل ليسخروا منه ويؤذوه، وقد أثار اختياره للأذان على ظهر الكعبة يوم النصر، حفيظة كثير من القرشيين، حتى قال أحدهم لصاحبه: لقد أكرم الله أبي أن مات وألّا يكون سمع هذا!!

وكان الحارث بن هشام وصفوان بن أمية قاعدين فقال أحدهما للآخر: انظر إلى

(١) كنز العمال. حديث ٨٥٠٢.

(٢) صحيح مسلم. حديث ٢٥٨٤.

هذا الحبشي!!

فقال الآخر: إن يكرهه الله يغيّره[١].

قيادة زيد وابنه أسامة

وحينما عين رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، وهو عبد اشتراه حكيم بن حزام، ثم وهبه لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله ﷺ، عيّنه رسول الله ﷺ على رأس جيش المسلمين إلى الروم في غزوة مؤتة، إلى جانب جعفر الطيار وعبدالله بن رواحة، فاعترض البعض على هذا التعيين، وردّ عليهم رسول الله منطقهم.

وفي آخر حياته ﷺ عيّن ولده الشاب أسامة بن زيد على رأس آخر بعث عسكري له، وجعل تحت إمرته كبار المهاجرين والأنصار، كأبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وقتادة بن النعمان وأمثالهم، وحينما اعترض بعض المسلمين على ذلك، وقال أحدهم وهو عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين؟ وبلغ ذلك رسول الله، فغضب غضبًا شديدًا، وتحامل على مرضه وخرج إلى المسجد وخطب الناس قائلًا: «أما بعد، أيّها الناس، فما مقالة قد بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيمُ الله كان للإمارة لخليقًا وإنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة»[٢].

هكذا جاء الإسلام، ليس ليلغي الانتماءات الاجتماعية ـ ومن أهمها الانتماء القبلي ـ وإنما جاء ليصلح هذه العقلية التي يمكن أن تصيب أيّ شخص من المنتمين إلى أيّ انتماء اجتماعي.

(١) محمد بن سعد بن منيع البصري (ابن سعد). الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢٣٥.
(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. ج٦، ص٢٤٨.

أهم منحة منحها الله تعالى للإنسان هي نعمة العقل. فهو نور يستضيء به الإنسان في دروب الحياة، وأمره الله أن يستفيد من هذا النور، فهذه الحياة وهذا الكون خلقه الله على أساس نظام وتدبير ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، الآية: ٤٩]، ليس عبثًا ولا صدفة، لهذا على الإنسان أن يجزل الشكر لهذه النعمة العظيمة بالاستخدام الحسن لعقله، حتى يدير شؤون حياته، ويتعامل مع مختلف الظروف فيها. ويستطيع الإنسان أن يثق بعقله لإدارة شؤون حياته، لكن العقل يدرك أن هناك مساحات غيبية لا يستطيع اقتحامها، فما هو الحلّ؟

الإيمان بالغيب واستغلال الخرافيين:

بعض الناس أمام هذه المساحات الغيبية يعتمدون على الأوهام والظنون، لكن الله تعالى يرشد الناس للاهتداء بعقولهم حتى في هذه المساحات الغيبية: العقل يرشدكم إلى أن تعرفوا الحقائق عن طريق الفطرة كالإيمان بالله

تعالى، وعن طريق الوحي الذي يبلغه الرسول والأئمة ﷺ، ما كشفه الوحي لكم من أمور الغيب آمنوا به، وما لم يكشفه الوحي فله بحث آخر.

لذلك يأخذ الإنسان ويعمل بما ثبت نقله عن طريق الوحي، وما لم يكن ثابتًا فهو صنفان: هناك ما اتضح خطؤه ومخالفته للعقل كحديث أو رواية أو كلام يدور بين الناس، فلا يطالب الإنسان بالأخذ به إذا ثبتت مخالفته للعقل القطعي. أما إذا كان السند ضعيفًا وفيه مخالفة للعقل فهو مرفوض قطعًا. وأما إذا لم يكن فيه مخالفة للعقل فهو في دائرة الاحتمال، فليس مطلوبًا منك أن تؤمن بشيء لا ترى في عقلك دليلًا عليه أو قبولًا له.

مشكلة البشر في مختلف العصور أنهم في مساحات كبيرة يعتمدون على الأوهام والظنون والخرافات، وهذا ما ينهى عنه الوحي يقول تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[سورة الأنعام، الآية: ١١٦]، والخرص بمعنى التخمين والاحتمال. ويقول تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[سورة يونس، الآية: ٣٦]. لا ينبغي للإنسان أن يسير خلف الأوهام والظنون وإنما عليه أن يلتزم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[سورة الإسراء، الآية: ٣٦]، أي لا تقبل شيئًا إلا بدلالة وعلم، لكن المجتمعات غالبًا ما تكون أسيرة الأساطير والخرافات.

والخرافة مأخوذة من الخرف والتخريف عند كبر السن وهو ما يسمى بالزهايمر، الخرافة تعني الأكاذيب والأوهام، وكان العرب في الجاهلية حسبما ورد في كتب اللغة عندهم شيء يسمى حديث الخرافة، وهو كما يقولون ما يستملح من الكذب، أي إنها أكاذيب لكنهم يستلطفونها. وكان الأجداد والجدات في مجتمعنا سابقًا يقصون للأطفال قصصًا خيالية يسمونها: خرّافة، أي أسطورة، وهم يعلمون أنها ليست صحيحة، ولكن يستملحونها. وهذا مقبول في هذا الحدّ، ولكن أن يُبنى عليها مواقف وأحكام فهذا خطأ ولا يقبله الإسلام.

الإسلام ثورة على الخرافة:

الأديان جاءت لتستثير العقول كما يقول علي عليه السلام عن هدف بعثة الأنبياء: «وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[١]. إن الخرافات والأساطير كانت تتراكم على عقول الناس، ويجيء النبي ليكنس هذه الخرافات، ويستنهض العقل، حتى يفكر الناس بعقولهم.

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله كان المجتمع الجاهلي مرتعًا للخرافات، وأبرزها عبادة الأصنام، ومن الخرافات التي كانوا يعتمدونها في حياتهم هو إشعال الحريق إذا تأخّر عنهم المطر! والحريق لا علاقة له بالمطر. ومنها عندما يموت شخص سيما إذا كان زعيمًا يحفرون بجانب قبره حفرة ويضعون فيها جملًا، فإذا ما بُعث يكون جمله بجانبه فلا يحشر راجلًا! ومن خرافاتهم إذا أصيب أحدهم بحالة نفسية يعلقون في عنقه عظم حيوان، ويعلقون في أعناق الأطفال ناب حيوان عن الحسد والجنّ والعفاريت. وإذا ضاع أحدهم يلبس ثوبه مقلوبًا حتى يهتدي طريقه!

حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله حارب كلّ هذه الخرافات، واستثار عقولهم: لماذا تقبلون هذا الكلام الذي لا دليل عليه؟ وقيل أنه صلى الله عليه وآله حينما كان في صغره في سن الرابعة وكان في حضانة حليمة السعدية، أراد أن يذهب مع إخوانه من الرضاعة في أحد الأيام للعب، فنادته حليمة، فعلقت في عنقه خيطًا فيه جزع يمانية فنزعها ثم قال صلى الله عليه وآله: «مهلًا يا أمّاه، فإن معي من يحفظني»[٢].

وقد تستفيد بعض الزعامات أحيانًا من الخرافة؛ لأنّ الناس يستجيبون للقضايا العاطفية، بينما كان رسول الله صلى الله عليه وآله على الضدّ من ذلك تمامًا، وهذا يتمثل جليًا في الحادثة المعروفة، لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن النبي صلى الله عليه وآله وصادف في ذات اليوم أن انكسفت الشمس، فأشاع الناس أن الكسوف كان بسبب موت إبراهيم ـ ولو قيل ذلك لزعيم آخر ربما أنس بهذا واستفاد من الحادثة في تعظيم شأنه ومكانته ـ لكن نبيّ الحقّ لا يقبل الجهل والخرافات، فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر « فَحَمِدَ اَللَّـهَ

(١) نهج البلاغة. الخطبة ١.
(٢) بحار الأنوار. ج١٥، ص٣٩٢.

وَ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا اَلنَّاسُ: إِنَّ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اَللَّـهِ، تَجْرِيَانِ بِأَمْرِهِ، مُطِيعَانِ لَهُ، لاَ تَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَ لاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا اِنْكَسَفَتَا أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا فَصَلُّوا، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ صَلاَةَ اَلْكُسُوفِ »[١].

العقلانية منهج الدين:

المشكلة أنّ الأديان باعتبار وجود الجانب الغيبي ضمن معتقداتها تكون في معظم الأحيان مرتعًا للخرافات عن طريق المنتسبين لها، فبعضهم يدخل أساطير وخرافات يمررها على الناس باسم الدين.

حينما نقرأ في النصوص الدينية عن أهمية العقل، وأهمية الرجوع له في كل شيء نكتشف أهمية إعمال العقل، واهتمام الدين به، فعلي عليه السلام يقول: «العقل يهدي وينجي»[٢]. ويقول عليه السلام: «لا يستعان على الدهر إلاّ بالعقل»[٣].

يحصل في المجتمعات عادة إذا كان هناك شيء غير واضح للناس يفسّر بتفسير خرافي، بينما على الإنسان أن يعمل عقله، وألّا يقبل الأوهام والخرافات، لكن هذه الظاهرة موجودة حتى في المجتمعات المتقدمة، فمثلاً بين فترة وأخرى يكون هناك حديث من قبل بعض الأشخاص في أمريكا وأوروبا عن نهاية العالم وأنه يصادف ٢٢ يناير مع تحديد السنة كما حصل سنة ٢٠١٣م، حيث تأسست شركات وعملت حقائب لنهاية العالم، للاستفادة من المتاجرة بهذا الوهم والخرافة..

دائمًا في المجتمعات تكون مثل هذه الحالات، ويخوّف الناس بالعواقب الوخيمة حتى لا يخالفوا الفكرة الخرافية. ونحن أتباع دين العقل ونبينا صلى الله عليه وآله يقول: «إِنَّمَا يُدْرَكُ اَلْخَيْرُ كُلُّهُ بِالْعَقْلِ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ»[٤]. ويقول صلى الله عليه وآله: «اِسْتَرْشِدُوا اَلْعَقْلَ تُرْشَدُوا

(١) الكافي. ج ٣، ص٤٦٣.
(٢) عبدالواحد الآمُديّ التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٨، حكمة ١٤٢١.
(٣) بحار الأنوار. ج ٧٥ ص٧، حديث ٥٩.
(٤) الحسن بن علي بن شعبة الحراني. تحف العقول، الطبعة الخامسة ١٩٧٤ م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٥٤.

وَلاَ تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا»[١]. فما بالنا نقبل شيئًا لا نعرف أصله وسنده ودليله؟ حتى لو كان هناك شيء نقلته بعض المصادر، فإنه يجب التدقيق والتحقق من صحته، كما أوصى السيد المسيح عليه السلام: «كُونُوا نُقَّادَ اَلْكَلاَمِ»[٢]. ورسول الله ﷺ يقول: «ما تَمَّ دينُ إنسانٍ قَطُّ حَتّى يَتِمَّ عَقلُهُ»[٣]، وورد عن أنس بن مالك أنه قال: أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ حتى أبلغوا في الثناء عليه في خلال الخير. فقال رسول الله ﷺ: «كيف عقل الرجل؟» قالوا: يا رسول الله، نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله! قال ﷺ: «إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غدًا في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم»[٤]. وورد عنه ﷺ: «إذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا في حسن عقله فإنما يجازى بعقله»[٥].

ينبغي أن نعرض الأمور على عقولنا، رسول الله ﷺ نعمة علينا، فهو من أنقذ الناس من الجهل والخرافات، ودعاهم للاسترشاد بعقولهم وجاهد وتحمّل الأذى من أجل أن يرجع الناس إلى عقولهم.

(١) بحار الأنوار. ج١، ص٩٦، حديث٤١.
(٢) المصدر نفسه. ج٢، ص٩٦، حديث٣٩.
(٣) كنز العمال. ج١٥، ص٩١٦، حديث ٤٣٥٨١.
(٤) تحف العقول. ص٥٤.
(٥) الكافي. ج١، ص١٢.

سيرة رسول الله ﷺ حياة رحبة من الفضائل والمكارم، وعالم واسع من الدروس والعبر التي لا تستغني عنها البشرية في كلّ عصر وجيل، ومن تلك الأبعاد منهجيته في القيادة.

منهجان في القيادة:

لرسول الله ﷺ منهجية عظيمة في القيادة، يحتاجها كل قائد في أي موقع من مواقع القيادة. فالأب قائد في الأسرة، وربّ العمل يقود الموظفين، وكذلك الزعيم في جماعة، والحاكم في شعب، كل هؤلاء وغيرهم ينبغي أن يستفيدوا من سيرة رسول الله ﷺ في القيادة. فكيف كان يمارس القيادة في أمته ومجتمعه؟

كل قائد في أيّ موقع يريد ممن حوله الطاعة والانسجام والتآلف معه، ولكن كيف يكون ذلك؟

هناك منهجان بارزان، وهما: منهج الفرض، ومنهج الإقناع والجذب.

إذا أخذنا الأب مثلًا كقائد في أسرته، فإنه يريد من أفراد أسرته أن يطيعوه، وأن يكونوا في سيرتهم كما يرغب ويراه صالحًا. ولكن كيف يحقق الأب هذا الأمر في أسرته؟

إما أن يختار منهج الفرض باعتباره في موقع القوة، فيفرض طاعته والالتزام بمنهجه، أو أن يتخذ منهج الجذب والإقناع، ويكون قادرًا على تحفيزهم وحثهم على ما يريد، وهكذا الحال في كل مجال من مجالات القيادة.

وباستقراء تاريخ رسول الله ﷺ يتضح جليًّا أنه اختار النهج الآخر، وهو نهج الجذب والإقناع، نهج اللطف واللين، وذلك بتوجيه من الله تعالى، لكي يعطي الدرس لكل قائد، وخاصة من يكون في موقع قيادة الأمة، وموقع الحكم والسلطة، عليه ألّا يعتمد على القدرة والقوة في ممارسة سلطته، بمقدار ما يعتمد على الجذب والترغيب: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ كان رسول الله ﷺ ليّنًا في تعامله، فكانت له محبة عند الناس وهيمنة على نفوسهم، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ حينما يكون القائد فظًّا، أي خشن الكلام، وقاسيًا في عباراته وألفاظه، أو غليظ القلب يعني شديد القسوة في تعامله، فإن ذلك ينفّر الناس منه.

كان رسول الله ﷺ يواجه أعداءً خارج دائرة الإسلام، كاليهود والمشركين، وهناك أعداء داخل دائرة الإسلام، كانوا يسيئون التعامل مع النبي، ويسعون للإضرار بمصالح الإسلام والأمة، وهم المنافقون الذين تحدث عنهم القرآن الكريم في كثير من آياته، وفيه سورة كاملة باسمهم وهي سورة (المنافقون).

المنافقون أناس يعيشون مع المسلمين، ظاهرهم الانتماء إلى الدين الإسلامي، والولاء لرسول الله، لكن باطنهم المعاداة للإسلام وللنبي، وما كانوا قلة، كان منهم من هو سطحي في نفاقه، وهم من أهل البادية، ومنهم من تمرّن وتمرّس على النفاق، وهم من سكان المدينة. يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ [سورة التوبة: الآية:١٠١] فكيف تعامل مع هؤلاء وهم

على باطل؟

لقد أذِن الله تعالى لنبيه أن يتعامل مع المنافقين تعاملًا قاسيًا حتى يردعهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة التوبة، الآية:٧٣] جاءت هذه الآية مرتين بنفس النص في سورتي التوبة والتحريم، لكن الأمر في الآية لم يكن إلزاميًا، فالأمر بيد رسول الله ﷺ، فاختار أن يتعامل معهم باللين لا بالخشونة والقسوة بالرغم من كثير مما كان يعاني منهم، فلم يروِ لنا التاريخ حادثة واحدة أن رسول الله ﷺ قتل أحدهم، أو سجنه، أو عذبه، أو طرده، بل كان لهم مجال المشاركة في صلاة الجماعة مع المسلمين، وفي الحروب والغزوات، ويأخذون نصيبهم من غنائم الحرب، ولكن لماذا؟

لأن رسول الله ﷺ كان يدرك أن منهج الجذب واللين والعطف هو المنهج الصحيح، وهو المنهج الرباني الرحيم.

الحفاظ على وحدة المجتمع:

أولًا: من أجل الحفاظ على وحدة المجتمع ووحدة الأمة، فحينما يستخدم القمع والقوة ضد أحد في المجتمع، فإن ذلك يوسع الشقّ بين الناس، وهناك من سيتعاطف مع هذا المقموع سواء كان على حق أو على باطل. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا الجانب حينما اقترح عليه عمر بن الخطاب قتل أحد المنافقين، وذلك عندما عاد المسلمون من غزوة بني المصطلق، وبسبب خلاف بين مهاجري وأنصاري صار عبدالله بن أبي يؤلب على رسول الله ﷺ، وتحدّى أن يخرجه من المدينة: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[سورة المنافقون، الآية:٨] ساد الغضب المسلمين وجاء عمر يقول لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق. ولكن رسول الله ﷺ رفض، فقال عمر: إن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر أنصاريًا أن يقتله. فقال رسول الله ﷺ: «إذًا ترعد له أذن وأنف كثيرة بيثرب»[١]. هذا الرجل وإن كان

(١) السيرة الحلبية. ج٢ ص٥٩٧.

على باطل لكن هناك من سيتعاطف معه، وهناك من سيدافع عنه، وقد تحدث القرآن الكريم عن وجود بعض المسلمين ممن لم يفهموا حقيقة المنافقين ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فلو استخدم العنف مع المعارضين لحصلت انشقاقات في المجتمع الإسلامي الوليد.

سمعة الإسلام:

ثانيًا: لحفظ سمعة الإسلام والدعوة، وذلك يتبين من قول رسول الله ﷺ لبعض الصحابة حينما أشاروا عليه بقتل أحد المنافقين قال: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[١].

لو استخدم رسول الله ﷺ العنف لعمّق الخلاف بين المسلمين، وأعطى فرصة للكفار، ومن ناحية أخرى يعطي صورة مشوهة عن الإسلام. ولذا اختار طريق الاستيعاب والسماحة استجابة لله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[سورة آل عمران، الآية:١٥٩].

أمير المؤمنين وحرب المخالفين:

قد يستشكل إنسان، لماذا خاض أمير المؤمنين معارك ضد المخالفين، حيث حرب الجمل، وصفين، والنهروان. والجواب أنه دخلها مكرهًا مضطرًا، وكان يسعى ألّا تكون، ولو لم يبدأوا استخدام العنف لما خاض الحرب وقاتلهم، وقد خاطبهم بنفسه قائلا: «إِنَّ لَكُمْ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَمْنَعَكُمْ مَسَاجِدَنَا مَا لَمْ تَخْرُجُوا عَلَيْنَا، وَلَا نَمْنَعَكُمْ نَصِيبَكُمْ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ مَا دَامَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلَا نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تُقَاتِلُونَا»[٢].

وكان أيضًا يحاورهم حتى يتراجعوا عن التوجه للقتال، كما في حرب الجمل، وكذلك في صفين، حيث بذل كل جهده في المراسلات والوعظ والإرشاد والحوار والمناظرة، وقد أعطاهم حريتهم في التعبير عن الرأي، ولكن حينما رفعوا السيف،

(١) السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، ج٤، ص٢٥٠.
(٢) البداية والنهاية. ج١٠، ص٥٧٨.

وبدأوا القتال حاربهم. هذا هو منهج الإسلام، وحري بالمسلمين في أوطانهم وحكوماتهم أن يتوخوا هذا المنهج، حتى لا يعطوا عن المسلمين صورة مشوهة بأنهم يتهاونون بسفك الدماء، ويقمعون من يخالفهم في الرأي، فهذه ليست الصورة التي ينبغي أن تكون عن الإسلام والمسلمين.

احتواء التوترات والتشنجات الاجتماعية

سيرة رسول الله ﷺ واسعة الأرجاء، ومن أهم الجوانب التي ينبغي أن تسلط عليها الأضواء في سيرته العطرة، كيفية إدارة التنوع الاجتماعي، وصناعة أجواء الوئام، واحتواء التوترات والتشنجات التي تحصل بشكل طبيعي في أيّ مجتمع بشري.

الجميع يعلم أنّ النبي ﷺ جاء في مجتمع تسوده حالة التمزق والتناحر والعصبيات القبلية، كانوا يعيشون حالة انفعالية تعصبية، وكان يمكن لأيّ سبب تافه أن يتسبب في حرب تدوم سنوات!.

أجواء الجاهلية قبل الإسلام

يدرس الباحثون في تاريخ العرب ما يطلق عليه (أيام العرب)، أي معارك العرب وحروبها، وفي كتاب (أيام العرب في الجاهلية) الذي اشترك في إعداده ثلاثة من الباحثين المصريين، عرض لعشرات الحروب الداخلية بين القبائل العربية، فمعارك القبائل القحطانية فيما بينهم

بلغت عشر معارك، وبين القحطانيين والعدنانيين عشر معارك، وفيما بين قبائل ربيعة ست معارك، وما بين ربيعة وتميم خمسة عشر معركة، وبين قبائل قيس إحدى عشرة معركة، وبين قيس وكنانة عشر معارك، وبين قيس وتميم سبع معارك، وبين قبائل ضَبَّة وغيرهم خمس معارك، وهناك معارك أخرى متفرقة[١].

وقد كان الصراع والتنافس القبلي في الجزيرة العربية، دافعًا لتربية الأبناء على الفخر والاعتزاز بانتمائهم للقبيلة، وتنمية مشاعر التميّز وأحاسيس الأفضلية على الآخرين، وهذا ما تنضح به قصائد شعرائهم، وخطب زعمائهم.

إنّ الحماسة والفخر هو من الأغراض الأساسية في الشعر العربي الجاهلي، حيث يتفنن الشعراء في تمجيد قبائلهم وإظهار قوتها ومكانتها، وفي شعر عمرو بن كلثوم نموذج صارخ لمثل هذا التوجه، حيث يقول في إحدى قصائده:

مَـــلأْنَا البَـــرَّ حَتَّـــى ضَـــاقَ عَنَّـــا ... وَمـــاءُ البَحْـــرِ نَمْلَـــؤُهُ سَفِيْنَـــا
وَنَشْـــرَبُ إِنْ وَرَدْنَـــا المَـــاءَ صَفْـــوًا ... وَيَشْـــرَبُ غَيْرُنَـــا كَـــدِرًا وَطِيْنَـــا
إِذَا بَلَـــغَ الفِطَـــامَ لَنَـــا وليـــدٌ ... تَخِـــرُّ لَـــهُ الجَبَـــابِرُ سَاجِدِيْنَـــا
لَنَـــا الدُنيَـــا وَمَـــن أضحَـــى عَلَيهـــا ... ونَبطِـــشُ حِيـــنَ نَبطِـــشُ قادِرِينَـــا

والوجه الآخر لهذا اللون من الأدب الجاهلي هو أدب الهجاء، حيث يبالغ الشعراء في الحطّ من شأن القبائل المنافسة لقبيلتهم، ووصفها بأسوأ النعوت، وأقبح الصفات.

أعظم شخصية في تاريخ البشرية

في هذه البيئة التي تعج بالعصبيات بُعث رسول الله ﷺ، فكان من أهم إنجازاته نقل هذا المجتمع من حالة التمزق والاحتراب والعصبيات إلى حالة الوئام والوفاق،

(١) محمد أحمد جاد المولى وآخرون. أيام العرب في الجاهلية، ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجيل).

وهو إنجاز عظيم جدًا، مما دفع أحد المفكرين في أمريكا وهو (مايكل هارت) أن يعتبر النبي ﷺ على رأس أهم مئة شخصية في تاريخ البشرية، في كتابه (الخالدون المئة)!.

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن نعم الله على المسلمين، يذكر هذه النعمة، يقول تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣]

تضارب المصالح وتعدد الآراء

في كلّ مجتمع بشري تتضارب المصالح، إما مصلحة فرد مع آخر، أو مصلحة طائفة وأخرى، أو بين القبائل المتعددة، كما يحدث الاختلاف بسبب تعدد الآراء والأفكار، وهي حالة طبيعية، لكن المجتمعات تتباين في إدارة اختلاف الآراء وتضارب المصالح، فالمجتمع الناضج يدير اختلافه بطريقة عقلانية، فيحتكم إلى القانون، ويرجع إلى المؤسسات الدستورية، كما نراه في المجتمعات المتقدمة.

نجد أنّ أصعب الخلافات بين مختلف الشرائح والجهات يُرجع فيها إلى القانون والمؤسسات الدستورية، فتقول كلمة الفصل، وإلى جانب ذلك هناك إقرار بحرية الفكر وحرية التعبير عن الرأي.

لك أن تعبّر عن رأيك، وغيرك يعبّر عن رأيه، وكلٌّ يستعرض أدلته ويدافع عن رأيه، في جوٍّ من تكافؤ الفرص، والنَّاس أحرار فيما يختارون.

في مثل هذه الأجواء تذوب التوترات والتشنجات، فلا يرى الناس في وجود الرأي الآخر مشكلة، وإذا ما تضاربت المصالح فإن القانون هو الحاكم.

أما في المجتمعات البدائية الانفعالية فإنّ أقلّ تضارب في المصلحة، أو اختلاف في الرأي، يتحول إلى مشكلة اجتماعية، تؤدي إلى نزاع وخصومة، وذلك لعدم وجود

نضج وثقافة تساعد على امتصاص واحتواء التشنجات والتوترات.

طبيعة العصر الحاضر

نعيش هذا العصر الذي تعززت فيه ثقة الإنسان بنفسه، وأصبحت المعرفة متاحة أمام الجميع، فكما أنّ لديك أدلة تستشهد بها على ما تعتقده، فلغيرك أدلة أيضًا، فقد تقدم مستوى المعرفة عند الناس، وأصبحت أدوات التعبير عن الرأي متاحة للجميع.

هذا الهاتف المحمول بحجم الكف، يوصل رأي حامله إلى مختلف أنحاء العالم!!

فلا تستطيع أن تمنع أحدًا من التعبير عن رأيه وفكرته.

فلا بُدّ من التسليم بهذا الأمر والقبول بالرأي الآخر، أما إذا رفضنا هذا المبدأ، وتحول الاختلاف في الرأي إلى سبب للصراع والنزاع، واستخدمت أدوات التحريض وبث الكراهية، فسيعيش المجتمع حالة من الاضطراب والتمزق.

ومن المعلوم أنّ المسائل الفكرية التي يمكن الاختلاف فيها ليست قليلة، ففي كلّ يوم هناك مسائل مستجدة، سواء ما يتعلق بالمعتقدات أو الفقه أو التاريخ، وتتفرع عنها تفاصيل كثيرة!.

وإذا تحولت كلّ مسألة خلافية إلى سبب للصراع والخصومة، فمتى نتفرغ لبناء حياتنا ومستقبل أجيالنا؟!!

احتواء التوترات هدي نبوي

ولعلّ سائلًا يقول: كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يغيّر المجتمع من حالة الانقسام والتمزق إلى مجتمع يعيش حالة الوئام والوفاق؟!

ونكتفي في هذا البحث بذكر أحد العوامل، وهو احتواء التوترات والتشنجات الاجتماعية.

مستعرضين بعض النماذج من سيرة رسول الله ﷺ:

النموذج الأول

في السيرة النبوية الشريفة أنه ﷺ: (إذا بلغه عن الرجل شيء، لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟! ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.

أو ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟!)

النبي معصوم عن الخطأ، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾

وحين يرى أنّ فعلًا ما مخالف للشرع، فرأيه ليس مجرّد اجتهاد أو ظنًّا، بل هو الحقّ بعينه، ومع ذلك إذا وصله خبرٌ أنّ فلانًا يقول مقالة خطأً، أو يمارس عملًا سيئًا، لا يشهّر به أمام المسلمين، ولا يعبّئ الناس ضده، بل يكتفي بالتحذير من الفعل أو القول، وهو درس مهم لنا.

نحن نعتقد أنّ النبي ﷺ حريص على الدين، حريص على مصلحة المجتمع، وينبغي أن تكون سيرته دروسًا نستفيدها في حياتنا.

إذا رأينا شخصًا يتخذ موقفًا مغايرًا لما نعتقده، ونحن لانقطع بصواب رأينا، فلسنا معصومين، فكيف نجيز لأنفسنا التشهير به والسعي لإسقاطه؟!

إنّ مسؤولية الإنسان تقف عند حدود إبداء الرأي وعرض الأدلة على صحة رأيه، أما التعبئة والسعي لإسقاط الطرف الآخر والتحريض عليه، واتهامه بالخيانة فليس من الدين في شيءٍ!.

إنّ من تختلف معه لديه إمكانية الرد، ويستطيع أن يتعامل بذات الطريقة، وبالتالي يصبح المجتمع ساحة احتراب وساحة تشنجات وتوترات، وهذا مغاير للهدي النبوي!.

النموذج الثاني

بعث النبي ﷺ سرية لقتال بني قريظة، وأمرهم كما في الرواية (لا يُصَلِّيَن أَحَدُكُمْ الْعَصْرَ إِلّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ.

فَبَادَرُوا إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَنَهَضُوا مِنْ فَوْرِهِمْ فَأَدْرَكَتْهُمْ الْعَصْرُ فِي الطّرِيقِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلّيهَا إلّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ كَمَا أُمِرْنَا، فَصَلّوْهَا بَعْدَ عِشَاءِ الْآخِرَةِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَمْ يُرِدْ مِنّا ذَلِكَ وَإِنّمَا أَرَادَ سُرْعَةَ الْخُرُوجِ فَصَلّوْهَا فِي الطّرِيقِ فَلَمْ يُعَنّفْ وَاحِدَةً مِنْ الطّائِفَتَيْنِ)[1].

هذه الرواية مشهورة في السيرة النبوية، ونقرأ في ذيلها (فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدَةً مِنْ الطّائِفَتَيْنِ).

فئة أخروا الصلاة حتى غابت الشمس!!

وفئة رأوا أن النبي يحثهم على السرعة في السير، أي أسرعوا في سيركم حتى تصلوا مقصدكم قبل غروب الشمس، ولذلك لم يؤخروا الصلاة عن وقتها.

عندما رجعوا إلى النبي ﷺ وأخبروه، لم يوبّخ أحدًا منهم، ولم يخطِّئ أحدًا، وهذا يدلّ على أنّ المسائل الظنية الاجتهادية التي يمكن فهمها على أكثر من وجه، تتسع لها ساحة الاجتهاد، ولا بُدّ للمختلفين أن يعذر بعضهم بعضًا، فلا يحدث تشنج أو خلاف.

وفي مقام الاجتهاد والرجوع إلى الأحاديث والروايات، نجد العلماء يختلفون في توثيق الرواة وتضعيفهم، وبالتالي الأخذ بالرواية أو ردها، كما قد يختلفون في مدلول الحديث أو الرواية، وكلٌّ مأجور في عمله ما دام اجتهاده وفق الضوابط والموازين.

النموذج الثالث

روى بعض الصحابة قال: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ عَلَى وَجْنَتَيْهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ:

(١) البداية والنهاية. ج٤، ص١١٧. ومثله في البخاري، حديث٩١٨.

أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ؟! أَوَ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟!

إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ لا تَنَازَعُوا فِيهِ)[١].

وهنا نجد أنّ رسول الله ﷺ لم يقبل من المسلمين أن ينشغلوا بالجدل في العقديات والمسائل النظرية الفكرية، وفي هذا المجال وردت نصوص كثيرة، منها:

- عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: (الخصومة تمحق الدين وتحبط العمل وتورث الشك)[٢].
- عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إيّاكم والخصومة في الدين فإنها تشغل القلب عن ذكر الله عزّ وجلّ وتورث النفاق وتكسب الضغائن)[٣].
- عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: (مُرْ أصحابك أن يكفّوا من ألسنتهم، ويدعوا الخصومة في الدين، ويجتهدوا في عبادة الله عزّ وجلّ)[٤].

فلا ينبغي أن يكون الدين ميدان صراع، بسبب اختلاف الآراء، فإنّ في الدين سعة لتعدد الآراء، كما أنّ باب الاجتهاد مفتوح لمن بلغ هذه المرحلة العلمية وفق الضوابط والشروط، وعند اختلاف الآراء يلجأ المؤمنون إلى الحوار والنقاش، بعيدًا عن التسفيه وأجواء الصراع، إنّ المجتمع الذي تسوده التشنجات والتوترات يعيش وضعًا غير محبوب عند الله سبحانه، فالتوترات والتشنجات تلوث النفوس، وتمرض القلوب، وتقطع العلاقات، وتسبب الخصومات بين الناس.

ذات مرّة جاءني أحد المؤمنين يشكو مقاطعة أبنائه وسوء معاملتهم له، لأنه يتبع أحد العلماء، وهم غير راضين عن آراء هذا العالم!

---

(١) سنن الترمذي. حديث٢١٣٣.

(٢) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٠٠، حديث ٢١٣٤٤.

(٣) بحار الأنوار. ج٢، ص١٢٨.

(٤) مستدرك الوسائل. ج٤، ص١٠٢، حديث ٤٢٣٦.

ويضيف الأب: هناك من يعبّئهم حول هذه المسائل، حتى إنهم اقتنعوا أنّ من يذهب إلى هذا العالم يصبح ضالًّا مضلًّا!!

لقد أصبحت الحياة لا تطاق في المنزل بسبب سوء معاملتهم!!

نحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

حتى وإن جاهداك أبواك على الشرك، عليك أن تصاحبهما بالمعروف، لكن الثقافة الخاطئة تؤدي إلى مثل هذه النتائج السلبية!.

إنّ الدين يدعو إلى أجواء الوئام والوفاق، واحتواء التوترات والتشنجات الاجتماعية، هكذا تعلّمنا سيرة رسول الله ﷺ، وعلينا أن نربّي أنفسنا من خلال نهج رسول الله ﷺ وسيرته.

التنافس في ميدان القيم

جاء في السيرة النبوية الشريفة أنه عندما سار رسول الله ﷺ والمسلمون إلى غزوة بدر، كانت الدواب محدودة العدد عند المسلمين، فكان كل بضعة أشخاص يتعاقبون على دابة واحدة، وكان رسول الله ﷺ وعليّ بن أبي طالب عليه السلام ومرفد ابن أبي مرفد، يتعاقبون على بعير واحد، يركب كل واحد منهم مدة من الوقت ويمشي خلفه الآخران، ثم يركب الثاني وهكذا حتى يركب الثالث. فعن عبدالله بن مسعود: كنّا يوم بدر كلّ ثلاثة على بعير، قال: وكان علي وأبو لبابة زميلي رسول الله ﷺ، قال: وكان إذا كانت عقبته قلنا اركب حتى نمشي، فيقول: «ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكم»[1]. وأصرّ ﷺ أن يتبادل معهما الركوب على البعير.

نريد أن ننطلق من هذا الموقف إلى مسألة التغيير النفسي

(١) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص٢٣، حديث ٤٢٩٩، ومثله في الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، ج٢، ص٢١.

والقيمي الذي أوجده رسول الله ﷺ في نفوس الناس من حوله. فقد بُعث رسول الله ﷺ إلى مجتمع جاهلي، يعيش تحت سيطرة القيم المادية، يخضع لها، ويتنافس أفراده على الكسب منها، كل واحد يريد أن يكسب أكبر قدر من الغنائم، وكانوا يتفاخرون بمظاهر القوة القاهرة لبعضهم بعضًا، فالتنافس بينهم في ميدان التنافس المادي، ولم يكن هناك بعد آخر.

بُعث رسول الله ﷺ فأحدث بعثًا جديدًا في نفوسهم، وفتح أمامهم أفقًا آخرًا، أصبحوا يتنافسون على الالتزام بالقيم، انطلاقًا من الرغبة في كسب رضا الله تعالى. فكان هذا ميدان التنافس الجديد في المجتمع، وبهذا بدأ التغيير، وتحول المجتمع إلى مجتمع آخر.

القرآن الكريم جاء ليذكي هذه الحالة من التنافس القيمي الأخلاقي في نفوس أبناء ذلك المجتمع، يقول تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أي: في ميدان القيم وكسب رضا الله تعالى، وليس في المجال المادي، ويقول تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٦١]، فذلك العربي الذي كان يقاتل من أجل المكاسب والغنائم، صار يبذل ما لديه من مال ومكسب من أجل ثواب الله، وتنافسًا على القيم والتزامها، لذلك مدحهم الله تعالى، ومدح هذه الخصلة فيهم. صار الواحد منهم يؤثر الآخرين على نفسه، يقول تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وفي تاريخ الصحابة قصص كثيرة تبرز هذه الحالة.

ورد أنه «أهدي لرجل مِن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا. فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحد

إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوَّل»[١].

هكذا كانت الروح القيمية في أولئك الذين رباهم رسول الله ﷺ، وقد حدثنا القرآن الكريم عن قصة تظهر عمق الإيثار في حياة آل رسول الله ﷺ، يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّـهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾، والقصة معروفة حينما تصدقت فاطمة بطعامها وطعام زوجها وولديها لثلاثة أيام وباتوا جياعًا وكانوا صيامًا.

ويذكر التاريخ أنه في غزوة اليرموك كان هناك جرحى من المسلمين على أرض المعركة، وبالطبع يحتاج الجريح تحت حرارة الشمس إلى الماء، فجاء أحد المسلمين بالماء إلى أحد الجرحى ليسقيه، قال: «فلمَّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلُّهم ـ مِن واحد إلى واحد ـ حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم»[٢].

علينا أن نتذكر هذه القيمة الكبيرة التي ركز عليها رسول الله ﷺ وبعثها في نفوس أصحابه، وهي قيمة التنافس القيمي. أن نتنافس على كسب القيم والأخلاق وليس على المكاسب والمصالح المادية فقط، وبإمكاننا أن نتحدث عن بعض الأمثلة والنماذج حتى لا يكون الكلام طوباويًا فضفاضًا:

رعاية العيال والأبناء:

لا شك أنّ الوالدين يتحمّلان هذه المسؤولية وبالدرجة الأولى الأب، لكن ينبغي أن يكون هناك تنافس بين الوالدين في رعاية الأبناء. في بعض الأحيان يكون هناك تواكل، كل واحد منهما يلقي بالمسؤولية على الآخر، وهنا نحتاج إلى التنافس على البرّ والخير، ليعيش الأبناء في عطف وافر، فإذا كان هناك تواكل سواء في مجال العناية الجسمية الغذائية، أو الاهتمام بدراستهم، أو الرعاية النفسية بإشباع عواطفهم،

(١) أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص. أحكام القرآن، ج٣، ص٥٨١.
(٢) البداية والنهاية. ج٧، ص١٥.

فهذا ينعكس سلبًا على الأبناء. نجد مثلًا في مرحلة العطلة الصيفية، أن الأب يريد أن يرتاح ويجلس مع أصدقائه، والأم كذلك لها برامجها الخاصة، فماذا عن الأبناء؟ ثم تجد الأب يلقي باللوم على الأم والعكس. كنت أسأل بعض الآباء وقد كان متذمرًا من النتائج الدراسية لابنه، حيث كان معدله ضعيفًا، ويلوم أمه! طيّب، أينك أنت؟ التربية مسؤوليتك، والتعليم مسؤوليتك شرعًا وقانونًا، ولو فرضنا أن الأم ملزمة بذلك، فلماذا لا تنافسها؟ بعض الأحيان حينما نتحدث عن التنافس على الخير فإن ما يخطر في بالنا الصلاة والصدقة، وهذا صحيح، لكن لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا مثل هذه المصاديق والنماذج.

البر بالوالدين:

يحتاج الوالدان في مرحلة الشيخوخة والكبر لرعاية أبنائهم، يقول تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾. في بعض الأحيان تجد أبًا له مجموعة من الأولاد، والمفترض أن يكون مدلّلًا بين أولاده، والسعيد من يحظى بالنصيب الأكبر في رعاية أبيه أو أمه، لكن قد تجد تواكلًا بين الأبناء، كلّ واحد يتوقع من الآخر أن يقوم برعاية الأب والأم. وأنت لماذا تخسر هذا الخير والثواب؟

في الأمور المادية، لو فرضنا أن هناك منحة سكنية من الدولة مخصصة لواحد من أولاد فلان ولم يُعيّن، هل كلّ واحد سيقول دع ذلك لأخي يفوز بها، أم سيبادر إلى كسبها هو؟ ذات مرة أعلن عن منحة أرض لشخص باسم معيّن، واتفاقًا كان هناك شخص آخر من نفس العائلة يحمل نفس الاسم، لكن المنافس الثاني ثريّ وعنده خير، ولما عرف بها أخذها هو، حتى لامه البعض؛ لأن الآخر أحوج منه، وهو المقصود في الأساس بالمنحة!!

لماذا لا يكون تنافسنا في الخير بهذا الشكل، بأن نطمع بزيادة الخير والعمل الصالح؟ رعاية الوالدين مصداق بارز في التنافس على الخير، حتى لو كان هناك

أخوة يقومون باللازم تجاه أبيك وأمك لماذا أنت لا تنافسهم على هذا الخير؟ إن ساعة، بل لحظة تقضيها في خدمة والديك تساوي الدنيا وما فيها.

خدمة الدين والمجتمع:

بعض الأحيان تطلب من شخص مشاركة ما في خدمة عامة فيقول: لماذا لا تذهب لفلان؟! هذا خير فلماذا تحرم نفسك؟ هنا يحتاج الإنسان إلى الذكاء واغتنام الفرص. يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلاَ تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَدًا أَوْلَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي فَيَكُونَ وَاللهِ كَذلِكَ»[1].

(١) نهج البلاغة. الحكم القصار رقم ٤١٩.

العلاقات الاجتماعية بين الرحمة والقسوة

ولد النبي الأكرم محمد بن عبدالله ﷺ وسط ظروف بالغة القسوة من الناحية الاجتماعية والبيئية. فقد كانت مجتمعات الجزيرة العربية تعيش وضعًا تغلب عليه أجواء الشدّة والقسوة، وتندر فيه مظاهر الرقة والرحمة، ويعود ذلك في جانب منه إلى الطبيعة القاسية التي نشأوا فيها، حيث الصحراء الجافة، ولهيب الشمس الحارقة، والمياه الشحيحة. ويأتي فوق ذلك، النظام القبلي الصارم، الذي يلقي بثقل تقاليده وأعرافه على أفراد تلك المجتمعات. وبذلك وجدت تلك المجتمعات نفسها بين مطرقة الطبيعة وسندان القبيلة.

وقد ساهم انتشار الفقر، ومحدودية المراعي، في اتخاذ الحروب منهجًا حياتيًّا، وموردًا أساسيًّا للارتزاق، حيث تستحوذ القبيلة المنتصرة على المغانم، فيما تسحق القبيلة المغلوبة. ومن المعروف أنّ الحروب تساهم في تعزيز سلوكيات الشدّة والغلظة والعنف، لذلك باتت القوة هي

القيمة العليا في تلك المجتمعات. من هنا نشأت عندهم نزعة تفضيل الذكور على الإناث؛ لاعتبارهم الذكور رصيدًا يضاف إلى قوتهم، ينفعهم وقت الحرب والقتال، بينما كانوا يكرهون البنات؛ لأنّهنّ كنّ عبئًا عليهم، لما يستلزم من الدفاع عنهنّ وقت المعركة. وحتى أسماء الأشخاص كانت من وحي حياة الخشونة والصراع، مثل: أسد وليث وضرغام وعقاب وصقر وصخر وحجر وحنظلة.

وكذلك كان حال المجتمعات غير العربية المجاورة، كالروم والفرس، فقد كانوا يعيشون تحت قسوة الاستبداد والطبقية لنظامي القياصرة والأكاسرة، مع تفاوت في بعض الجوانب بينهم وبين العرب. وقد أبصر نبيّنا محمد بن عبدالله ﷺ النور وسط هذه الأجواء الاجتماعية الصارمة والبيئة القاسية.

الرحمة عنوان الرسالة

لقد اختاره الله تعالى منقذًا للبشرية من واقعها المزري، وجعل الرحمة العنوان الأبرز لرسالته؛ لأنّ الرحمة كانت المسألة الغائبة التي تفتقدها المجتمعات البشرية عامة، على نحو أحال حياتها إلى شقاء وجحيم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وقد وصف نفسه ﷺ بقوله: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[1]، وقد ركز الإسلام على مسألة الرحمة، وبالرغم من أنّ لله الأسماء الحسنى والصفات العليا، فهو الخالق والرازق والمهيمن والقوي..، إلّا أنّه تعالى اختار لنفسه صفة الرحمة، فجاءت سور القرآن الكريم بادئة ببسم الله الرحمن الرحيم، صفتان مشتقتان من الرحمة، علاوة على وجود أكثر من ٣٠٠ آية قرآنية تناولت الرحمة الإلهية بالعباد، للتأكيد على قيمة الرحمة. وقد جاء رسول الله ﷺ لبعث قيمة التراحم بين الناس، وطيّ صفحة الجفاء والغلظة والقسوة فيما بينهم.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة. ج١، ص٨٠٣، حديث٤٩٠.

وقد وردت عنه ﷺ أحاديث كثيرة في تعزيز قيمة الرحمة بين العباد. قال ﷺ: «لا يَرْحَمُ اللَّـهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ»(١)، وجاء في حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(٢)، وبذلك وضع أساس المجتمع الإسلامي على قاعدة الرحمة. من هنا نجد الآية الكريمة عندما تأتي على وصف الذين حول رسول الله ﷺ فإنها تصفهم بأنّهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، تأكيدًا على قيمة الرحمة، باعتبارها قيمة عليا في حياة المجتمع الإيماني، الذي ينبغي أن يقوم على التراحم لا القسوة والجفاء. وقد درجت آي الذكر الحكيم على دعوة الناس إلى انتهاج سبيل الرحمة، وتعزيز مسلك التراحم فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، فمن أبرز صفات المجتمع الإيماني هو التواصي بالرحمة فيما بينهم.

مظاهر التراحم بين الناس

هناك مظاهر وتجلّيات بارزة تطبع حياة المجتمع الذي تشيع فيه قيمة الرحمة والتراحم.

المظهر الأول: هي النظرة الرحيمة للناس تجاه بعضهم بعضًا، فهناك مجتمعات ينظر أفرادها لبعضهم نظرة رحيمة، فيما تكون النظرة بين الناس في مجتمعات أخرى نظرة قاسية، فهؤلاء لا يكاد يرون بعضهم إلّا من خلال منظار القسوة والشدّة. ويتجسّد أحد التجلّيات في تفسير تصرّفات الناس ومواقفهم، فالمجتمع المتراحم يحسن الظن في أفراده، فحينما يرى أحدهم موقفًا أو تصرفًا، أو يسمع كلامًا عن طرف آخر، فإنّ صاحب الظن الحسن يميل إلى تفهّم الأمر، ويلتمس العذر لإخوانه، فحسن الظن يُعَدّ علامة بارزة في المجتمعات المتراحمة. أما إذا ساد سوء الظن في المجتمع فإنّ الأغلب هو الجنوح نحو سوء التفسير لتصرفات ومواقف الآخرين، حتى لو كانت بالغة الحسن، ومن السهولة بمكان قلب الحقائق في هذه الأجواء، بأن

(١) صحيح البخاري. كتاب التوحيد، ج٤، ص٤٣٨، حديث٧٣٧٦.
(٢) سنن الترمذي. ج٣، ص٧٥، حديث١٩٢٤.

يقال عن صاحب الكلام الطيب بأنّ كلامه سيئ، ولا يُعَبِّر عن حقيقة موقفه، وليس خارجًا من قلبه، وإنّما للتظاهر والمجاملة، هكذا حين تسود بين الناس سوء الظنون، فإنّهم يصبحون أكثر قسوة على بعضهم بعضًا في انطباعاتهم، وتفسيرهم لأعمال ومواقف بعضهم بعضًا.

وتحفل النصوص الدينية بالكثير من الموارد التي تحضّ على الظن الحسن، وتحذّر بشدّة من الوقوع في سوء الظن. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وقال رسولُ اللّه ﷺ: «اطْلُبْ لِأَخِيكَ عُذْرًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا فَالتَمِسْ لَهُ عُذْرا»[1]، ذلك أنه في أجواء التراحم يجهد الإنسان في اجتراح العذر لنظيره الإنسان، فيما لو ظنّ فيه التقصير في أمر من الأمور، والميل إلى خفض سقف التوقعات من جانب أخيه، على النقيض مما يجري في أجواء القسوة حيث يعلي الناس من سقف توقعاتهم تجاه بعضهم.

لين الخطاب لغة التراحم

المظهر الثاني: من مظاهر التراحم في المجتمع لين الخطاب فيما بينهم. واستخدام لغة الاحترام والتقدير المتبادل، بخلاف المجتمع الذي تسوده القسوة والغلظة، والذي تكون فيه لغة التخاطب لغة فظّة ملؤها الفحش والاتّهام والطعن والتجريح والتسقيط، وهذا أبعد ما يكون عن الرحمة.

ومما يروى في هذا السّياق، أنّ رجلًا أخذ بلجام دابة رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، أيّ الأعمال أفضل، قال ﷺ: «إِطْعامُ الطَّعامِ وَإِطْيابُ الْكَلامِ»[2]. فالرسول ﷺ يعتبر الكلام الطيّب مع الناس وعن الناس من أفضل الأعمال. وورد عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ اللّـهَ حَرَّمَ الجَنَّةَ على كُلِّ فاحِشٍ بَذيءٍ قَليلِ الحَياءِ، لا يُبالي

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٩٧، حديث١٥.
(٢) المصدر نفسه. ج ٧١، ص٣٦١، حديث٧.

ما قالَ وَلا ما قيلَ فيهِ»[١]، إنّ الإنسان عندما يكون بذيئًا في تخاطبه مع الآخرين، لا يستحقّ الجنة. وما عسى ينفع الإنسان البذيء التخفّي خلف ألف حجاب، على غرار ما يجري من التخفّي خلف الأسماء المستعارة في وسائل التواصل الاجتماعي للنيل من الناس بأقذع الكلام وأكثره فحشًا، فأمثال هؤلاء وإن تخفوا عن العباد، فهل تخفى أفعالهم على ربّ العباد، وهل يا ترى تحجب الأسماء المستعارة عنهم العقوبة في يوم الحساب؟ ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «سِلاَحُ اللِّئَامِ، قُبْحُ الكَلاَمِ»[٢]، فالشخص اللئيم حين تعجزه الحجة، فلا سلاح لديه إلّا قبح الكلام. وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ثلاثٌ مِن أبوابِ البِرِّ: سَخاءُ النَّفْسِ، وطِيبُ الكلامِ، والصَّبرُ على الأذى»[٣].

التعامل الرحيم

المظهر الثالث: التعامل الرحيم مع الآخرين. بدءًا من أفراد الأسرة والأصدقاء والجيران، ولا ينتهي بالناس المختلفين معنا في الرأي والمصلحة، والعاملين تحت أيدينا، فقد يكون التعامل رحيمًا، موافقًا للقيم والضوابط الأخلاقية، وتجسيدًا للآية الكريمة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وعلى النقيض من ذلك، قد يكون التعامل قاسيًا عنيفًا، ما يعني غياب الرحمة والتراحم، وقد ورد في حديث عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا أرادَ اللّـهُ بأهلِ بيتٍ خَيرًا أدخَلَ علَيهِم بابَ رِفقٍ»[٤]، إنّ العائلة التي يتعامل أفرادها مع بعضهم تعامل رفق، يحيون حياة طيبة.

وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: «مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ إِلَا كَانَ أَعْظَمُهُمَا أَجْرًا وَأَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَرْفَقُهُمَا بِصَاحِبِهِ»[٥]. كما ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَن أُعطِيَ حَظَّهُ

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج١٣، ص٥٠١.
(٢) سليمان بن إبراهيم الحنفي القندوزي. ينابيع المودة لذوي القربى، ج٣، ص١٥٩.
(٣) وسائل الشيعة. ج١٢، ص١٢٥.
(٤) كنز العمال. ج٣، ص٥٣، حديث ٥٤٥٦.
(٥) الكافي. ج٢، ص٦٦٩، حديث٣.

مِنَ الرِّفقِ فَقَد أُعطِيَ حَظَّهُ مِن الخَيرِ»[١].

لقد كانت سيرة رسول الله ﷺ مدرسة في الرحمة والرفق بمن حوله صغارًا وكبارًا، قريبين وبعيدين. وعلينا ونحن نحتفي بميلاد نبي الرحمة أن نهتمّ بتجسيد هذه الصفة، وأن نتفقّدها في نفوسنا وسلوكنا وتعاملنا مع من حولنا، حتى نكون ممن وصفهم الله بأنّهم رحماء بينهم، فمن يتحلون بالرحمة مقامهم مع رسول الله ﷺ.

(١) سنن الترمذي. ج٣، ص١١٦، حديث٢٠١٣.

هناك منهجيتان ونمطان من السّلوك يحكمان تعامل الإنسان مع الآخرين: منهجية الجذب والاستقطاب، ومنهجية التنفير والإبعاد. حيث تؤدي منهجية الاستقطاب إلى احتواء الإنسان لمن هم حوله، فيجتذبهم ويحبونه وينشدّون إليه، مما يمنحه فرصة التعاون والانسجام معهم، والتأثير فيهم. وهناك في المقابل المنهجية الأخرى، بأن يكون للفرد نمط من السّلوك المستفزّ والمنفّر، الذي يؤدي إلى ابتعاد الناس عنه، ويفقد أيّ إمكانية في التعاون معهم أو التأثير فيهم.

رافعة الإنجاز النبوي

لقد كان رسول الله ﷺ يتربّع على القمة على صعيد المنهجية الأولى، وبالرغم من أنه ﷺ جاء بدعوة ورسالة كان من الصعب قبولها في مجتمعه؛ لأنّها تخالف ما ألفوه وعاشوا عليه حقبًا زمنيةً طويلةً، تشرّبت نفوسهم بتقاليدها وأعرافها، وارتبطت مصالحهم بها، ناهيك عن وجود

مراكز القوى في ذلك المجتمع، المتمثلة في الزعامات القبلية صاحبة النفوذ والتأثير المتعاظم، بحكم النظام القبلي الصارم، إلّا أنّ رسول الله ﷺ استطاع وخلال وقت قياسي أن يبسط جناح دعوته في ذلك المجتمع.

وهذا الإنجاز النبوي رغم المعاناة الكبيرة التي واجهها ﷺ، يُعَدّ إنجازًا خارقًا بكلّ المقاييس، على مستوى التحولات الكبرى التي تقع في حياة البشرية، فلا تكاد تجد دعوة دينية ولا عقيدة كانت أسرع في النجاح والانتصار كما حصل على يد رسول الله ﷺ، فقد أحدث نقلة اجتماعية كبرى، أعاد خلالها صياغة نفوس الناس وسلوكهم وأخلاقهم. وما من تفسير لذلك، سوى ما أورده القرآن الكريم، الذي أشار إلى أنّ السلاح الأمضى، وعامل النجاح الرئيس، يتمثل في المنهجية التي اتّخذها رسول الله ﷺ في التعامل مع مجتمعه، حيث قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّـهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، فقد اتّسمت منهجيته وشخصيته ﷺ بلين العريكة، مما ساهم في اجتذاب الناس إليه، وفتح الطريق أمام إحداث التأثير الأقوى في نفوسهم، وتمكين محبّته والولاء له في قلوبهم.

إنّ منهجية الجذب والاستقطاب التي اتّبعها رسول الله ﷺ هي التي أحدثت زلزالًا اجتماعيًّا لا مثيل له في تاريخ البشر. وإنّه من المثير للإعجاب، عند قراءة السيرة النبوية، أن نجد التحول الدراماتيكي في نفوس وسلوك أفراد ذلك المجتمع، الذين كانت تغلب عليهم الغلظة والجفاء، ليتحولوا بعد ذلك إلى أناس ودودين وديعين، حتى باتوا يتبرّكون بكل شيءٍ يرتبط برسول الله ﷺ، فيفدونه بأنفسهم، ويطيعونه فيما يأمرهم.

جاذبية التعامل

من هنا جاء التشديد النبوي على ضرورة تحلّي الإنسان المسلم باللين في تعامله مع مختلف الناس، وأن يكون سلوكه جاذبًا لا منفّرًا لمن حوله. ولعلّه من الملاحظ

كيف تستولي المسلكية المنفّرة على تصرفات بعض الناس، ومما أتذكره في هذا الشأن، عندما كنّا في سفر، وفور خروجنا من المطار، لاحظنا سائق سيارة أجرة يرفض أن يقلّ أحد الأشخاص، ويعتذر بأنه لا يريد أن يخرج في مشوار، فأقلّت ذلك الشخص سيارة أخرى، وما إن غادر المكان حتى دعانا سائق سيارة الأجرة هذا ليقلّنا إلى وجهتنا، فتساءلنا عن سبب اعتذاره عن عدم الخروج مع ذلك الشخص منذ قليل، وها هو الآن يدعونا للركوب في سيارته، فأوضح السائق بأنه سبق وأن أقلّ ذلك الشخص في مشوار سابق فآذاه بسوء خلقه، لذلك لا يريد إركابه معه مرة ثانية، حتى لو بقي دون عمل!.

إنّ ما يجري في كثير من الأحيان أن يتقمّص بعض الناس سلوكًا منفّرًا، فلا يطيق أحد أن يقترب منهم بتاتًا. فقد يكون هناك مدير سيئ الخلق في مؤسّسة عامة، فيتمنى عندها الموظفون أن يغادروا تلك المؤسسة بأيّ صورة من الصور، نتيجة وجود ذلك الشخص المنفّر فيها. والحال نفسه مع المعلمين في المدارس العامة، فبعض هؤلاء مسؤولون عن مشاكل بعض الطلاب السّلوكية، نتيجة النزعة المنفّرة عند هؤلاء المعلمين، وغياب روحية الاستقطاب في شخصياتهم. ولا نستغرب لو امتدّ ذلك إلى روضات الأطفال، فلربما وجدنا طفلًا يرفض الذهاب إلى الروضة، وعند البحث عن سبب عزوفه، نجد أنّ المربية المسؤولة عنه في الروضة تفتقد المنهجية الرقيقة الجاذبة للطفل.

ينبغي للآباء أن يكونوا جاذبين لأبنائهم، مستقطبين لهم، من خلال طريقة تعاملهم معهم، والحال نفسه مع المعلمين والمديرين والمسؤولين، والقادة في مختلف المجالات.

وعلى كلّ إنسان أن يتفقد صفة الجاذبية والاستقطاب في نفسه ليتأكّد ما إذا كانت مسلكيته مستقطبة أم منفّرة، جاذبة للآخرين، أم طاردة لهم؟ وقد ورد عن النبي ﷺ الحثّ على اللين في التعامل مع الناس، روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«حرّم على النار كلّ هيّن ليّن سهل قريب من الناس»[١]، فالنبي يشير بوضوح إلى أنّ اللين في شخصية الفرد يمثل تذكرة عبور للنجاة من النار في يوم الحساب.

مجتمعات جاذبة وأخرى منفّرة

إنّ المسلكية الجاذبة أو المنفّرة تنطبق على المجتمعات كما تنطبق على الأفراد. فهناك مجتمعات يرتاح الناس في التعامل معها، لما تعطيه عن نفسها من انطباع إيجابي، نتيجة منهجيتها السلوكية الراقية مع بعضها والآخرين، وهناك مجتمعات على النقيض من ذلك تمامًا.

ولتقريب الفكرة، ربما يلاحظ أكثرنا عند الحديث عن توظيف العاملين الوافدين، أنّ هناك انطباعًا عامًّا إزاء تفضيل العامل من جنسيات معينة، على حساب جنسيات أخرى، وغالبًا ما يكون سبب الأفضلية هنا، هو الشائع عن أفراد ذلك المجتمع من التزام الأمانة، والجدّية والانضباط، في مقابل الانطباع العام عن غياب هذه الصفات في أفراد مجتمع آخر.

لذلك أراد النبي ﷺ أن تتحلى أمته بالصورة الناصعة، والسمعة الحسنة، لكي تكون جاذبة لبقية الأمم.

من هنا نفهم قول النبي ﷺ إذا أراد أن يبعث أحد أصحابه في بعض أمره: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[٢]، وفي ذلك توجيه نبوي صريح نحو التزام الخلق الجاذب المستقطب للناس، بالخطاب والسلوك والمعاملة الحسنة.

لقد حقّق رسول الله ﷺ ما حقق نتيجة التزامه منهجية الجاذبية واللين حتى مع أعدائه. ومما يذكر في هذا الشأن، ما أخرجه مسلم في صحيحه: «أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[٣].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل. ج٢، ص١٠٠، حديث٣٩٣٨.
(٢) صحيح مسلم. حديث١٧٣٢.
(٣) المصدر السابق. حديث١٧٤٤. وفي رواية أخرى (فنهى).

فهو ﷺ لم يَرْضَ بأن تقتل امرأة واحدة من معسكر الأعداء، فضلًا عن أنّه كان يمنع المسلمين من قتل الأسرى، وكان ﷺ يقول: «لَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا»[١]. وقد غضب ﷺ عندما خالف أحد الأصحاب وصيته وقتل أحد الأسرى، وذلك في حادثة مشهورة وقعت يوم حنين، حين كان المسلمون يقاتلون المشركين فيقتلون ويأسرون منهم، حتى إذا ارتفع النهار، فأمر رسول الله ﷺ بالكفّ عن القتال، وقال: لا يقتل أسير من القوم، وكانت قبيلة هديل التي تقاتل في صفّ العدو قد بعثت عينًا يقال له ابن الأكوع ليتجسّس على معسكر المسلمين، وعلم رسول الله ﷺ بذلك، وقد وقع هذا الجاسوس في الأسر، فمرّ به أحد الأصحاب، فلما رآه أقبل على رجل من الأنصار، وقال: هذا عدوّ الله الذي كان علينا عينا، ها هو أسير فاقتله، فضرب الأنصاري عنقه، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فكره وأنكر ذلك، وقال: ألم آمركم ألّا تقتلوا أسيرًا. هذا التعامل الإنساني حتى مع الأعداء، ترك انطباعًا مؤثّرًا في نفوس الناس، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجًا.

في المقابل، وعلى النقيض من المنهجية النبوية الجاذبة، ظهرت في الأمة في الآونة الأخيرة مجاميع إرهابية متوحّشة، شوّهت صورة الإسلام ولطخت سمعة المسلمين في العالم. فقد ابتلي المسلمون في عصرنا الراهن بكارثة كبرى متمثلة في ظهور هذه الجماعات التي تزعم الانتماء للإسلام، وترتكب الفظائع والجرائم البشعة باسم الدين. ولعلّ آخر هذه الأفعال ما ارتكبته هذه الجهات المتطرفة من حادثة إجرامية في العاصمة الفرنسية باريس، بالاعتداء على إحدى الصحف بسبب إساءتها للإسلام، وإيقاع عدد من القتلى من محرري ورسامي الكاريكاتير في الصحيفة[٢]. وفي الوقت الذي ندين الإساءة للإسلام على يد هؤلاء الرسامين، برسمهم صورًا ساخرة مشوّهة عن رسول الله ﷺ، لكننا نعتبر أنّ التشويه الذي يطال النبي ﷺ والإسلام نتيجة هذه

(١) بحار الأنوار. ج٢١، ص١٥٨.

(٢) مجلة شارلي إبدو. وقع الهجوم يوم ٧/ ١/ ٢٠١٥م، قتلَ خلاله مسلّحان ١٢ شخصًا من بينهم خمسة من أبرز رسامي الكاريكاتير في الصحيفة، وهتفوا أثناء مغادرتهم المكتب أنهم «انتقموا للنبي محمد». www.aljazeera.net/news/international/2015/ 1 /7.

الأفعال الإرهابية الإجرامية، هو أعظم بأضعاف مضاعفة من التشويه الناتج عن تلك الرسوم أو الكتابات السّاخرة.

وسرعان ما رأينا بعد هذا الاعتداء، كم من الهجمات التي تعرّضت لها المساجد في فرنسا، وكيف سعّرت الحادثة المظاهرات المناهضة للإسلام والمسلمين في ألمانيا، علمًا بأنّ هذه المجتمعات احتضنت المسلمين، ومنحتهم فرص العيش الكريم، وحقّ ممارسة حرياتهم الدينية دونما قيود، وعلى نحو لم يتوفر لهم حتى في بلادهم الإسلامية. غير أنّ هذه الاعتداءات الوحشية التي تجري باسم الإسلام، تخلق ردود فعل ضدّ الإسلام والمسلمين.

فبأيِّ عذرٍ وأيِّ تفسيرٍ يرتكب هؤلاء هذه الأفعال الإجرامية؟ وهل يا ترى تستقطب هذه النزعة الإجرامية الناس إلى الإسلام، أم أنّها أكبر منفّر من الدين.

وأخشى ما نخشاه هو ألّا تنفّر هذه الجرائم الوحشية، غير المسلمين من الإسلام وحسب، وإنما تنذر بتنفير شباب المسلمين من دينهم. فقد كانت تنتشر بين المسلمين فيما سبق شعارات المطالبة بحكم الشريعة الإسلامية، أما اليوم فقد باتت هذه الشعارات مخيفة إلى أبعد الحدود، في أذهان كثير من المسلمين فضلًا عن غيرهم؛ لأنّهم رأوا بأمّ أعينهم هذه النماذج المتوحشة التي ترتكب الفظائع باسم الإسلام.

ونحن نحتفي بذكرى ميلاد رسول الله ﷺ ليس لنا إلّا أن نشكو إلى الله، وإلى رسول الله ﷺ، ما ينال دينه وأمّته من هذه الممارسات النكراء، على يد الجماعات الإرهابية المنتسبة زعمًا للإسلام. كما ندعو المسلمين إلى تحمّل المسؤولية والتبرؤ من هذه التوجّهات ومحاصرتها، حتى تكفى البشرية شرّها.

بشاعة الإرهاب وسمعة الإسلام

لا تكاد توجد حالة أكثر تنفيرًا للناس من التلطّخ بتهمة ممارسة العنف والإرهاب. ذلك أنّ الأسوياء ينجذبون نحو أجواء الأمن والسلام، ومن الطبيعي أن تستقطب الناس الفكرة أو الدين الذي يبشر بالسلام، كما يقبل الناس على البلاد التي يعمها الأمن والسلام. أما إذا تلطّخت سمعة أيّ جماعة، أو دين، أو بلد بالعنف والإرهاب، وباتوا يوصمون بهذه الصفة السيئة، فذلك بطبيعة الحال ما يجعل الناس تنفر عنهم بعيدًا.

من هنا ندرك أهمية موقف رسول الله ﷺ تجاه الحفاظ على سمعة الدين والأمة، وعدم تلوّثها بشائبة صفة العنف، فلم يرغب ﷺ تحت أقسى الظروف أن يتسامع الناس أنّ هذا الدين يفتح المجال أمام ممارسة القتل والعنف، وإثارة الاضطراب، ولأجل ذلك كان ﷺ يغضّ الطرف عن كثير من التجاوزات والمخالفات المستحقة للعقوبة، داخل المجتمع الإسلامي، حديث النشأة، حفاظًا على سمعة

الدين، وحتى لا يشاع بين الناس أنّ الإسلام دين عنف وقتل وإرهاب.

حتى لا يُتهم الإسلام بالعنف

وقد ورد في النصوص الدينية موارد كثيرة، كرست النهج النبوي في الحفاظ على السلم والأمن، والنأي عن العنف والقتل. ومن ذلك ما ورد عنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّـهِ قَالَ: لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ غَنَائِمَ هَوَازِنَ بِالْجِعْرَانَةِ قَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ! فَقَالَ: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا أَقُومُ فَأَقْتُلُ هَذَا الْمُنَافِقَ؟ قَالَ: مَعَاذَ اللَّـهِ أَنْ يَتَسَامَعَ الْأُمَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1]. وبذلك يتضح جليًّا أنّ النبي ﷺ لم يشأ أن يوسّع شقّة الخلاف، والوصول بالموقف إلى درجة القتل، كما أشار بذلك عمر.

ومما ورد في هذا الشأن، ما وقع يوم غزوة بني المصطلق، حين تنازع رجل أنصاري من أهل المدينة، ومهاجري من أهل مكة على بئر، حتى كاد النزاع أن يمتدّ فيتحول إلى فتنةٍ لا تحمد عقباها بين المهاجرين والأنصار، بتأجيج من رأس النفاق عبدالله بن أُبي، وقد بلغ من جرأة الأخير على النبي ﷺ أن تحدث القرآن عن لسانه في قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، واصفًا نفسه بالأعزّ، في حين ينعت النبي ﷺ بالأذلّ!، ولما بلغ رسول الله ﷺ الخبر ودور بن أُبي في إشعال النزاع بين القوم، أشار بعض الصحابة على النبي ﷺ أن يأمر بقتل ابن أُبي، لتحريضه على الفتنة، وتجرؤه على شخصية النبي، فاقترح الأنصار على النبي أن يقوموا بقتله إذا كان يكره أن يفعل ذلك المهاجرون، بل جاء ابن عبدالله بن أبي نفسه، وقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منّي، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج٥، ص١٦٣، حديث ١٤٨٨٠.

إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار، وقد كان قتله حقًّا[١]، لكنه ﷺ ردّ كلّ تلك الدعوات، وقال ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أنّ محمدًا يقتل أصحابه[٢].

وجاء في واقعة ثالثة جرت أحداثها أثناء عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك، حيث خططت مجموعة من المنافقين لاغتياله، وكانوا ثلاثة عشر شخصًا، ونزل الوحي وفضحهم، فعرفهم ﷺ بأسمائهم، وكذلك عرفهم حذيفة بن اليمان، لكن النبي ﷺ أوصى حذيفة بالتكتم على الأسماء تمامًا، فألحّ بعض الصحابة على النبي ﷺ أن يعاقب أفراد تلك المجموعة ويقتصّ منهم، فلم يعدو ﷺ عن الردّ عليهم بذات الجواب «إِنِي أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[٣]. وهكذا في كلّ الموارد كان ﷺ حريصًا على سمعة الإسلام من التلطّخ بوصمة العنف والقتل والدماء.

نقض الجهود النبوية

إلّا أنه بالرغم من كلّ الجهود التي بذلها رسول الله ﷺ في النأي بالإسلام عن العنف وسفك الدماء، يأبى الطغاة والمجرمون إلّا أن يُلطّخوا سمعة هذا الدين بمختلف أشكال العنف والوحشية. فقد بذل ﷺ جهودًا كبيرة لحماية سمعة الإسلام، والحفاظ على الصورة الناصعة لهذا الدين القويم، ولا غرو فهو نبي الرحمة، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وهو القائل ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[٤].

إلّا أنّ هذا الدين العظيم قد تحوّل على أيدي الطغاة الحاكمين والإرهابيين المجرمين في هذا العصر، إلى دين الكراهية والعنف والإرهاب، وليس هناك من

---

(١) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ابن كثير). تفسير ابن كثير، ج٤، ص٣٩٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٩٠٥)، ومسلم برقم (٢٥٨٤).

(٣) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (أبو جعفر الطبري). جامع البيان في تفسير القرآن، ، ج٢٨، ص١٤٥.

(٤) المستدرك على الصحيحين. ج١، ص٣٥.

كارثة حلّت بالإسلام أعظم من تشويه صورة هذا الدين عبر العالم، فقد تلوّثت صورة الإسلام، وسمعة المسلمين بين شعوب العالم، حتى باتت على نحو بالغ البشاعة والسوء، كلّ ذلك نتيجة الممارسات البشعة، والجرائم الوحشية، التي ترتكبها الجماعات الإرهابية المنتسبة زورًا للإسلام، والتي لم يشهد العالم المعاصر لها مثيلًا.

إنّ الجيوش الغازية في أفغانستان والعراق وفلسطين المحتلة ارتكبت ولا تزال جرائم كثيرة، لكنها غالبًا ما توارى جرائمها خلف ستار من التعتيم الإعلامي، أمّا الجماعات الإرهابية المنتسبة للإسلام فهي تتفاخر علنًا بارتكاب أفظع الجرائم، وأكثرها وحشية على وجه الأرض، من خلال تصوير تلك الجرائم بأحدث التقنيات السينمائية، وبثّها على أوسع نطاق عالمي. فيا ترى، ما الصورة التي سيقدّمها هؤلاء المجرمون للناس عن الإسلام والمسلمين؟

ومن تلك الجرائم القتل الوحشي للطيار الأردني (معاذ الكساسبة)، فهذا الطيار العربي المسلم وقع أسيرًا بأيدي هذه الجماعات، ضمن نزاع عسكري له ملابساته، وهذا لا يعني وفق كلّ الاعتبارات بأن يجرّد من حقوقه كأسير حرب، فبأيِّ مبرّر يوضع في قفص حديدي، ويقتل حرقًا بالنار على نحو تقشعرّ له الأبدان؟ والأنكى أن يقوم هؤلاء المجرمون بتصوير مشهد الحرق وبثّه عبر العالم.

وكذلك ما تقترفه جماعة بوكو حرام من جرائم في غرب أفريقيا، هذه الجماعة التي يسهل عندها الإقدام على حرق قرى بكاملها، وقتل وتشريد سكانها في العراء، عدا عن الإغارة على المدارس واختطاف بنات الناس، واعتبارهنّ سبايا أو رهائن.

السّخرية والخوف من الإسلام نتيجة طبيعية

وبعد كل هذا، ماذا ننتظر من العالم غير النظرة العدائية والتحقيرية للإسلام والمسلمين؟ وهل يستغرب أحد إصدار المجلة الفرنسية «تشارلي ايبدو» عددًا خاصًّا يسخر من نبي الإسلام، حتى فاق نشر عددها المكرّس للسخرية من الرسول ﷺ أكثر

من ستة ملايين نسخة، نفدت من الأسواق خلال وقت قصير، وهي المجلة التي لم يكن يتجاوز عدد نسخها الستين ألفًا في المعتاد؟ وعند ذلك أيضًا لا يعود مستغربًا، تنامي الحركة المعادية للإسلام والمسلمين في أوروبا، المعروفة بحركة «بيغيدا»، التي تكرّس نشاطها في التخويف من الإسلام، ودعوة الناس للتظاهر ضدّ الوجود الإسلامي في أوروبا، تحت مبرّر أنّ الإسلام دين إرهاب. ناهيك عن الأفلام والكتب والمقالات التي باتت تنال من الإسلام صراحة، في حملة دعائية معادية، وضعت الإسلام والأمة الإسلامية في محنة لم تشهدها على مرّ العصور.

ضرورة المراجعة السّياسية والثقافية

إنّ واقع الحال المزري، بات يستلزم أن تعيد الأمة النظر والمراجعة الشاملة، لأوضاعها السياسية والثقافية والاجتماعية. فالموجة الإرهابية الراهنة إنّما انطلقت من واقع سياسي بائس، تعيشه معظم البلاد الإسلامية، واقع يخيّم عليه الطغيان والاستبداد، على نحو أغلق المجال أمام شباب بالأمة، وحال دون أدنى أمل في التغيير، وهذا ما يُفسّر جانبًا من أسباب الاندفاع نحو العنف والإرهاب، ولا نقول ذلك تبريرًا للإرهاب، وإنّما إدانة للواقع البائس الذي بات يخنق الجميع، ويخلق بيئة خصبة للانخراط في الإرهاب.

وكذلك الحال على المستويين الثقافي والاجتماعي، فهناك في موروثنا التاريخي، ورغم كلّ الإنجازات الحضارية للأمّة، إلّا أنّه يبقى تاريخًا ملوّثًا ومشوبًا بالقمع والقهر وسفك الدماء. ولعلّ نظرة فاحصة للتراث تكشف عن ارتكابات وفظائع لا نظير لها، وتكفي في هذا الصدد إطلالة على كتاب (موسوعة العذاب) للباحث عبود الشالجي التي تقع في سبعة أجزاء، وقد خصّص فصلًا كاملًا في الجزء السادس من الموسوعة، لتسجيل حوادث الإحراق بالنار في تاريخ الأمة، المرتكب من قبل بعض الخلفاء والحكام، والأطراف المتنازعة ضدّ بعضها بعضًا، وقد رصد الباحث من حوادث الإحراق بالنار بين مختلف المتصارعين ما ملأ ثلاثين صفحة من الموسوعة. إلى جانب رصده التاريخي لأساليب التعذيب والتنكيل الأخرى.

ولا نستثني تراثنا الفقهي وما يتضمّنه من آراء وفتاوى تشرع للمعنف، وتشجع على التطرف. فلا تزال هذه الآراء في مصادر المسلمين، يجري تدريسها، وتستقي منها الجماعات الإرهابية زخمها. والحال نفسه مع تفشي العنف الاجتماعي، ولعلّ أبرز مثال على ذلك، العنف الممارس ضدّ المرأة، فقد تتعرّض البنات لأبشع أنواع العنف، ويدفع كثير منهنّ حياتهنّ فيما يعرف بجرائم الشرف، على أيدي أفراد من العائلة نفسها، وعلى نحو بشع في كثير من الأحيان، كلّ ذلك لمجرّد إبداء رغبتهنّ في الزواج من شخص لا ترتضيه العائلة، أو بسبب وقوع البنات في الخطأ بإقامة علاقة غير مشروعة. ولا ندري من أعطى هؤلاء الحقّ في الاعتداء وممارسة العنف وصولًا للقتل بحقّ البنات!، في تجاوز فاضح لضوابط الشرع والنظام والقانون، ومصادرة لحقّ السلطة العامة.

وما لم تجرِ الأمة مراجعة شاملة للحالة السياسية والثقافية والاجتماعية القائمة، فستظلّ أجواء الأمة تفرّخ التطرف والإرهاب، وستبقى سمعة الإسلام تزداد تلوّثًا، ويستمر الواقع الإسلامي مضطربًا.

هناك رواية في السيرة النبوية، ذكرها ابن قيم الجوزية في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد، أنه لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحان وقت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده. فأراد الناس منعهم، فقال: «دعوهم، فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم»[1]، واستنتج منها مسائل فقهية متعدّدة، منها:

- جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.
- تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضًا، إذا كان ذلك عارضًا، ولا يُمكّنون من اعتياد ذلك[2].

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد. ج٣، ص٦٢٩.
(٢) المصدر نفسه. ج٣، ص٦٣٨.

وهذه الحادثة تنسجم مع مبادئ الإسلام والقرآن، الذي يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[سورة البقرة، الآية:٢٥٦]، وفي آية أخرى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[سورة الكافرون، الآية:٦]، ويقول تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس، الآية:٩٩]. فمبادئ القرآن كلها تؤكد على الحرية الدينية، وأن الإنسان حرٌّ في معتقداته الدينية، وفي ممارساته وشعائره العبادية، بل إن الحرية الدينية هي من أهم الحريات عند الإنسان؛ لأن التدين في أعماق نفس الإنسان، وحينما يُمنع من ممارسة تدينه وشعائره الدينية، فإنما تُصادر حرية من أهم حرياته، وحقّ من أهم حقوقه الإنسانية.

وفي تشريعات الإسلام أن أتباع الديانات الأخرى لهم الحرية في أماكن عباداتهم: كنائسهم، بِيَعِهِم، معابدهم. ولا يصحّ التضييق عليهم، ولا منعهم من ممارسة حريتهم الدينية، فذلك لون من ألوان الظلم، وقد توعد رسول الله ﷺ بقوله: «من آذى ذميًّا فأنا خصمه»[١]، و «من ظَلَمَ مُعَاهِدًا كُنْتُ خصمه»[٢].

الشريعة الإسلامية تؤكد أن مصادرة الحريّات الدينية من أبرز ألوان الظلم والأذى، وجاء في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ كتب إلى أسقف نجران، رسالة يلتزم فيها للمسيحيين بحماية معابدهم وحريتهم الدينية، جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي للأسقف أبي الحارث وكلّ أساقفة نجران، وكهنتهم، ورهبانهم، وكلّ ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يُغَيَّرُ أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يُغَيَّرُ حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبدًا ما أصلحوا ونصحوا عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين»[٣].

وقد سَارَ خلفاء المسلمين الأوائل على نفس النهج، ومن ذلك عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء ـ القدس: «أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم

(١) كنز العمال، ج٤. ص٣٦٢.
(٢) مستدرك الوسائل. ج١١، ص١٦٨.
(٣) البداية والنهاية. ج٥، ص٥٩.

وصلبانهم وسائر ملتهم، لا تسكن كنائسهم، ولا تهدمنّ ولا ينتقص منها، ولا من حيزاها، ولا من صليبها، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم»[١].

وقد ذكر الفقهاء: أن اليهودي إذا كان يعتقد حرمة العمل يوم السبت، فلا يصحّ للمسلمين أن يجبروه على العمل يوم السبت. وأن المسيحي إذا كان في بلاد المسلمين، وكان من دينه الالتزام بالذهاب إلى الكنيسة في يوم الأحد، فلا يصحّ منعه عن ذلك[٢].

ومواثيق حقوق الإنسان، كلّها تنص على أن من حقّ الإنسان أن يعتقد ما يقتنع به، من دين ومذهب ورأي، وأن يمارس شعائره وحريته الدينية، وأن على الحكومات في كلّ بلد، أن تحمي هذه الحقوق لمواطنيها، ولا تسمح بالنيل أو الانتقاص منها. فقد تكون في البلد أكثرية دينية، في ظلّ وجود ديانات أخرى، من حقّهم أن يلتزموا بدينهم، وشعائرهم، وممارساتهم، وإن كانوا أقلية. وكذلك الحال، إذا كانت هناك أكثرية مذهبية، فإنه لا يبرر الانتقاص من الحريات الدينية للأقليات المذهبية الأخرى.

واجب الدولة حماية الحريات الدينية

إن واجب الحكومة أن تحمي حقوق كلّ مواطنيها، وأن تحمي الحريات الدينية للجميع. صحيح أن الأمر يحتاج إلى تقنين وتنظيم، إلّا أن التقنين والتنظيم ينبغي أن يُراعي العدل والإنصاف، ليكون من أجل مصلحة الجميع، ومن أجل حفظ النظام، وليس الانتقاص من حقوق فئة لصالح فئة أخرى.

ونحن الآن نعيش في عصر العولمة، وعصر دعوات حقوق الإنسان، والدفاع عن حقوق الأقليات، وحوار الأديان، والحوارات الوطنية. لذلك ليس مقبولًا أبدًا أن تكون هناك ضغوط على بعض المواطنين الذين يتعبّدون بمذهبهم، بأن يكون لهم

(١) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري، ج٣، ص١٠٥.

(٢) يوسف القرضاوي. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الطبعة السادسة١٤١٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٤٣.

مسجد يصلون فيه، أو مجالس يقيمون فيها شعائر مذهبهم؛ لأن ذلك لا يؤذي أحدًا، ولا يضرّ بأحد، بل إن منع هذه الشعائر هو الذي يضرّ بالوطن؛ لأنه يولد الغضب والسخط والكراهية، كما يعطي الفرصة للأعداء لأن يشوّهوا سمعة البلد، وأن تصدر التقارير من المنظمات الحقوقية والإنسانية، وهي تتحدّث عن انتهاك الحريات الدينية، وانتقاص حقوق الأقليات. ويكون أرضية لوجود الحساسيات، والنفور بين الأطراف المختلفة.

ولا يخفى على أحد وجود متشدّدين في المجتمعات السنية والشيعية، فقد لا يعجب البعض أن تكون في أوساطهم مساجد أو مراكز دينية لأهل المذهب الآخر، وهنا يأتي دور الحكومة من أجل أن تحفظ العدل والأمن والاستقرار، فتضع تقنينات بما يراعي حقوق ومصلحة الجميع، فليس مقبولًا أن يُحرم آلاف من المواطنين السنة في منطقة شيعية، أو من الشيعة في منطقة ذات أغلبية سنيّة، من أن تكون لهم مساجدهم، ومراكز إقامة برامجهم الدينية، في الوقت الذي تتيح فيه الحكومات الغربية الفرصة للجاليات الإسلامية في بلدانها لإقامة مساجدهم ومؤسّساتهم الدينية، بمختلف مذاهبهم.

إننا نأمل ألّا تتاح الفرصة للتوترات وللتشنجات، وللمغرضين الذين يريدون أن يصطادوا في الماء العكر، وللجهات المعادية التي تريد أن تشوه سمعة الإسلام والمسلمين، نأمل أن تعالج مثل هذه الأمور بالحكمة والعدل، لضمان حقوق الجميع، وحفظ الأمن والاستقرار لأوطان ومجتمعات المسلمين.

إنّ الميزة الأساس لرسالة نبينا محمد ﷺ هي أنها أعادت الاعتبار لقيمة كرامة الإنسان. فقد كان الإنسان طوال التاريخ مسحوق الكرامة، مهدور الحقوق والقيمة، حتى بلغت البشرية إلى الحضيض، خاصة في القرنين السادس والسابع الميلاديين، ففي هذين القرنين ابتعدت البشرية عن رسالات الأنبياء السابقين، وساد فيها الظلم والجور والفساد، فامتهنت كرامة الإنسان، بل لم يكن للإنسان حينها قيمة تذكر في تلك المجتمعات، ولو قرأنا التاريخ لرأينا إلى أيّ مدى من الشقاء بلغه الإنسان في مختلف الشعوب والأصقاع.

الإنسان بداية

لقد جاء نبينا محمد ﷺ لينقذ إنسانية الإنسان، ويبرز قيمته، ويعزّز كرامته، فكانت نقطة البداية التي سلكها رسول الله ﷺ هي تعريف الإنسان بنفسه، وتحفيزه لاستعادة حقوقه، فلا يجدي أن تخاطب الظالمين بأن يحترموا

حقوق الإنسان، بل المطلوب أولًا أن يشعر الإنسان نفسه بحقوقه، ويتحفز للمطالبة بها؛ لأن السلطات التي كانت تسيطر على العالم آنذاك ما كانت لتسمع موعظة، وإنما كانت تريد ممارسة الهيمنة على الناس، فالطاغي المستبد غير مستعدّ؛ لأن يسمع المواعظ؛ لأنّ فعل الاستبداد بات متأصلًا في نفسه حتى احترف الهيمنة على الناس. من هنا أخذت رسالة نبينا محمد ﷺ سمتها الأبرز في إعادة الاعتبار لإنسانية الإنسان وكرامة البشر.

لقد بدأ الرسول ﷺ بالإنسان نفسه، فخاطبه بأن اعرف قيمتك وكرامتك، واسعَ لحماية حقوقك. ولهذا سارعت الفئات المهيمنة في قريش حينها لاتهام النبي بمختلف التهم، وشكوه لعمه أبي طالب عليه السلام فقالوا: إن ابن اخيك قد أفسد شبابنا. إن معنى إفساد النبي للشباب بنظر تلك الطغمة هو أنه ﷺ دفعهم للتمرد على الاستبداد والهيمنة الظالمة، بينما كان أولئك يريدون بقاء الناس تحت هيمنتهم.

جاء الإسلام ليخاطب الإنسان نفسه حتى يعرف قيمته، وورد في آيات القرآن الكريم خطاب مباشر له: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، إن الآية الكريمة تخاطب الإنسان بالقول؛ أيها الإنسان إنك كريم على الله، ولا يصح لك أن تقبل حياة الذلّ والهوان، وتشير آية أخرى إلى أن خلق الله للإنسان بمنزلة التتويج لزعامته ولخلافته لله تعالى في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. وورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ ركّب في الملائكة عقلًا بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة»[1]. إن على الإنسان أن يعرف

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج١٣، ص٢٩٨.

مكانته عند ربه، وهذا رسول الله ﷺ يقول: «ما شَيءٌ أكرمُ علَى اللّه مِن ابنِ آدمَ»[١] ولفظ (ابن آدم) ينطبق على كل إنسان مهمًا كان لونه ودينه كبيرًا كان أو صغيرًا.

فكانت البداية من تعريف الإنسان بنفسه ومكانته وكرامته، هذا ما تؤكده مختلف النصوص الدينية.

محورية حقوق الإنسان

إن التشريعات التي جاء بها النبي ﷺ جعلت محورية حقوق الإنسان وكرامته فوق كل اعتبار. فكل التشريعات الإسلامية انصبت في خدمة ومصلحة الإنسان، فكان أبغض شيء في الإسلام هو الاعتداء على حقوق الإنسان. ولقد أكدت النصوص الدينية إمكانية أن يغفر الله لمن يعتدي على حقوقه تعالى ويتجاوز بعض نواهيه سبحانه، لكنه تعالى في مقابل ذلك لا يغفر الاعتداء على شيء من حقوق الإنسان. ورد عن رسول الله ﷺ: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئًا: فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقال ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضًا حتى يدين لبعضهم من بعض»[٢]. إن الله لا يسمح ولا يقبل بالاعتداء على أيّ أحدٍ كان، ولا أن تنتهك حقوق الإنسان على أيّ نحوٍ من الأنحاء.

العيش المشترك

لقد جعل النبي ﷺ على سلم أولوياته تربية الناس وتثقيفهم حتى يحترموا بعضهم بعضًا. ولعلها أكثر من أن تحصى تلك النصوص الدينية التي تؤكد احترام حقوق الناس، يقول النبي ﷺ: «الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله»[٣]،

(١) كنز العمال. ج١٢، ص١٩٢، حديث٣٤٦٢١.
(٢) تفسير ابن كثير. ج١، ص٥٢١.
(٣) الكافي. ج٢، ص١٦٤، حديث٦.

وعنه ﷺ: «خير الناس من ينفع الناس»[١]، وفي رواية ثالثة عنه ﷺ: «أذلّ الناس من أهان الناس»[٢]، لاحظوا هنا استخدام النبي لكلمة (الناس) في حديثه، ولم يقل المسلمين أو المؤمنين، ومضمون ذلك أن إهانة أيّ إنسان وجرح كرامته أمر يغضب الله تعالى.

إن الإسلام يعتبر الاعتداء على حياة إنسان واحد اعتداءً على البشرية جمعاء. وقد ورد في آي الذكر الحكيم ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وهذا ما يبين مكانة الإنسان في الإسلام.

لكننا نأسف لحال المسلمين اليوم أيما أسف، ففي حين يحتفون بذكرى ميلاد رسول الله ﷺ ويتحدثون في إذاعاتهم عن رسالته وتشريعاته، نجدهم في المقابل أبعد ما يكونون عن مقاصد رسالته ﷺ.

إن مقارنة سريعة بين وضع المسلمين وأوضاع الأمم الأخرى تكشف إلى أيّ مدى بلغت مكانة الإنسان عند تلك الأمم، فالإنسان عندهم أكثر كرامة، وحقوقه مصونة أكثر من نظيره في بلاد تنتمي إلى الإسلام، وهذا شيء مؤلم.

(١) كنز العمال. ج١٦، ص١٢٨، حديث ٤٤١٥٤.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٤٢، حديث٢.

حرمة الأديان وحرمة الإنسان

حين يرتبط الإنسان بعقيدة دينية، فإنّها تحظى بأعظم قداسة واحترام في نفسه، فالدين بالنسبة للمؤمنين يمثل الحقّ المطلق، والقيمة العليا، من هنا تنبع قداسة الدين وتعظيمه.

وتتجسّد العقيدة الدينية في الرموز والمعالم. التي قد تكون مكانًا، أو زمانًا، أو شعيرة، أو شخصية تضفى عليها القداسة، وهذا ما ينطبق على كلّ الأديان، ففي كلّ دين هناك رموز مقدّسة، تأخذ قداستها من قداسة الدين نفسه، إن الإنسان المتديّن يحترم رموزه الدينية ويقدّسها، انطلاقًا من احترامه وتقديسه لدينه، وهذا أمر واضح وجليّ بين أبناء البشر.

وفي الإسلام هناك مقدسات أجمع المسلمون على تعظيمها وتقديسها، كنبي الأمة محمد ﷺ، والقرآن الكريم، والكعبة المشرفة، وسائر المقدسات.

هذه المقدسات أمر الله تعالى بتعظيمها، وأوجب احترامها، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾، والحرمة ما لا يجوز انتهاكه، وهي اسم من المهابة، والحرمات جمع حرمة وهو ما يجب احترامه.

ولا شك أن في طليعة ما أجمع المسلمون على تقديسه الكعبة المشرفة، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾، هو بيت ليس كبيوت الناس الخاصة، بل هو عام لجميع الناس، وضع لمصلحتهم جميعًا. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، ويقول تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾. الكعبة قبلة المسلمين في كل صلاة يصلونها، ولتعظيمها فإن الإسلام حرم استقبالها واستدبارها عند التخلي ضمن أحكام تفصيلية في مسائل الفقه، وذلك تركيزًا لمكانتها، وأوجب الطواف حولها في الحج والعمرة، وجعل النظر إليها عبادة. ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (النَّظَرُ إِلَى الكَعبَةِ عِبادَةٌ)[1] والمسلمون يبذلون وجودهم في الدفاع عن الكعبة ضدّ أيّ إساءة تستهدفها. هذا ما يتفق عليه المسلمون جميعًا.

النصوص الدينية تلفت نظر الإنسان المسلم إلى أن هذه الحرمة للكعبة ليست حرمة ذاتية، وإنما جاءت حرمتها امتثالًا لأمر الله تعالى، فهو شاء لها الاحترام وأمرنا بتعظيمها، وإلّا فهي حجارة مثلها مثل أيّ حجر، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّـهَ سُبْحَانَهُ اخْتبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ (صلوات الله عليه) إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا؟»[2].

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. ج١، ص٣٢٨.
(٢) نهج البلاغة. خطبة ١٩٢.

أعظم حرمة من الكعبة

ولأنّ الإسلام أولى اهتمامًا عظيمًا بحرمة الإنسان وقيمته في هذه الحياة، جعل احترام الإنسان حالة موازية لاحترام الدين، فبقدر ما يكنّ المسلم من عظيم احترام لدينه، فإنه مطالب بذات القدر بإظهار الاحترام لنظيره الإنسان.

فالمسلم الذي لا يحترم أخاه الإنسان، فإنّ احترامه لدينه مشكوك فيه. ذلك لأنّ الإسلام جعل هنالك علاقة وثيقة بين الأمرين، وارتباطًا عضويًّا بين حرمة الدين وحرمة البشر. ومن شاء التفكيك بينهما فهذا أبعد ما يكون عن المصداقية في احترامه لدينه.

وإذا ما أراد المؤمن أن يظهر مقدار حرمة الخالق جلّ وعلا في نفسه، فإنه مطالب بالقدر نفسه بإظهار اهتمامه ورعايته لحرمة عباده، على اختلاف مراتب العلاقة بهم، من الوالدين، والأسرة، والجيران، والأصدقاء، والمعارف، والآخرين.

فأن تشكر الله سبحانه على نعمة من النعم، فذلك ما يستوجب أن تشكر بالقدر نفسه من يحسن إليك من عباده، وقد ورد عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عزّ وجلّ»[1]، وبذلك يكون شكر الخالق عزّ وجلّ بموازاة شكر المخلوقين دون مواربة.

إنّ هناك نصوصًا دينية كثيرة، تربط على نحو وثيق بين حرمة الدين وحرمة البشر. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله في تعريفه للفرد المسلم، أنه قال: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»[2]، إنّ الفرد المسلم لا يكون مسلمًا حقًّا ما لم يَرْعَ حقوق نظرائه من بني البشر، فإذا ما ادّعى التديّن، في حين راح يعتدى على الآخرين بلسانه، يتهمهم، ويفتري عليهم، ويستغيبهم، ويُشهّر بهم، فهذا ليس من الإسلام في شيء.

---

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج١٣، ص٥٣٨، حديث١٥٤٦.

(٢) مسند أحمد بن حنبل. ج٢، ص٣٧٩.

قال ﷺ: «الظُّلمُ ثلاثةٌ: فَظُلمٌ لا يَغفِرُهُ اللّهُ، وظُلمٌ يَغفِرُهُ اللّهُ، وظُلمٌ لا يَترُكُهُ»[١]. وفي رواية بهذا المعنى، يشير فيها الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى أن الله قد يسامح عباده فيما يتعلق به تعالى من حقوق، لكنه سبحانه ليس في وارد إغفال محاسبة العباد على إساءتهم واعتدائهم على حقوق الآخرين من بني جنسهم، حيث قال ﷺ: «... وأما الظلم الذي لا يترك ظلم العباد بعضهم لبعض»[٢]، وقال ﷺ: «من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده»[٣]، وعباد الله تشمل جميع أبناء البشر، بدءًا من الزوجة والأولاد، وصولًا إلى الجيران، وكل من يتعامل معهم الإنسان في حياته اليومية. وبعبارة أخرى؛ إنّ عباد الله هم كلّ الناس بمختلف أصنافهم، فمتى ما عمد المرء إلى ظلم أحدٍ، فكأنما اعتدى على الله جلّت قدرته، وبذلك يكون الله خصمه الأول يوم القيامة. وهذا مصداق واضح لمدى الارتباط العميق بين حرمة الدين وحرمة الإنسان.

وفي حديث عن النبي ﷺ أنه ﷺ قال وهو يطوف بالكعبة: «مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّـهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا»[٤]، إنّ حرمة الإنسان أعظم من حرمة الكعبة، على الرغم من عظم شأنها ومكانتها وقدسيتها، بل إنّ من يسيء للكعبة ربما كان أقرب للمغفرة والتجاوز، منه إذا أساء لأحدٍ من الناس، فالإساءة للناس أعظم وأشدّ عند الله سبحانه.

حرمة الدم والمال والشخصية الاعتبارية

إنّ لحرمة المؤمن في الشريعة معايير ومحدّدات لا ينبغي تجاوزها بأيِّ حال. وقد أوضح النبي ﷺ هذه المحددات في قوله: «ماله ودمه وأن يظن به إلّا خيرًا»، فلا يجوز

(١) كنز العمال. حديث ٧٥٨٨.
(٢) نهج البلاغة. خطبة ١٧٦.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٥٠، حكمة ٩٣٩.
(٤) محمد بن يزيد القزويني. سنن ابن ماجه، حديث ٣٩٣٠.

بأيِّ حالٍ الاعتداء على الأموال أو الأنفس، ولا النيل من القيمة المعنوية للآخرين، من خلال إساءة الظن بهم جزافًا.

والحرمة لا تقف عند دم المسلم وماله فقط، فالحقوق المعنوية كسمعة الإنسان المسلم، لا تقلّ شأنًا، فلا يجوز انتهاكها. لو أن إنسانًا كتب قصيدة يسخر فيها من الكعبة ويستهزئ منها، أليس هذا جرمًا وإثمًا يستفظع المسلمون منه ذلك؟ كذلك فإن من يكتب قصيدة يسخر فيها من أخيه المسلم يكون فعله أشدّ إثمًا وأعظم ذنبًا ممن يكتب قصيدة يسخر فيها من الكعبة، كما هو مفاد الأحاديث الشريفة. ولا يحقّ للإنسان أن يبرر قوله وانتهاكه لحرمات المسلمين؛ لأنهم يختلفون معه في رأي فكري أو سياسي. الاختلاف وارد، وبإمكانك أن تتحدث عن خطأ الرأي والفكرة، أما أن تنتهك حرمة الإنسان وتسخر منه وتهزأ به، وتنسب له التهم المختلفة، وتعتبر نفسك مدافعًا عن الدين والعقيدة فهذا غير جائز. ما الفرق بين من يقوم بهذا ومن يفجّر نفسه في أوساط الأبرياء من المسلمين؟ بل إن هذا هو المقدمة لذاك. فهؤلاء إنما وصلوا لمرحلة القتل والتفجير بعد أن ألِفوا فتاوى التكفير والتبديع والتفسيق، وتربوا على هذا المنهج، وحين اقتنعوا بأن هؤلاء كفار وفسقة، كانت النتيجة أن لا حرمة لهم في نظرهم. هؤلاء الذين يبدؤون بالتشكيك في أديان إخوانهم؛ لأنهم يختلفون معهم في رأي، ويقولون ما يقولون تجاههم، هل يعلمون أنهم يؤسّسون لمنهج تكفيري غدًا سيتصاعد ويصل إلى سفك الدماء؟

ثم إن اغتيال الشخصية ليس أقلّ من اغتيال الشخص. ورد عن رسول الله ﷺ: «من بهت مؤمنًا أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلٍّ من نار حتى يخرج مما قاله فيه»[1]. فلا يغترّ أحدٌ بأنه قد امتلك قنوات تواصل يسب الناس عبرها، أو موقعًا على الفيس بوك ينتهك من خلاله أعراض المؤمنين وحرماتهم المعنوية وشخصياتهم، على هؤلاء أن يتأملوا ويفكروا، فهناك قيامة وحساب. ورد

(١) محمد بن علي بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا عليه السلام. ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص٣٧، حديث٦٣.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله عزّ وجلّ من ولايته إلى ولاية الشيطان»[١].

البعض بحجة الدفاع عن ولاية الله وولاية الرسول وأهل بيته ينتهكون حقوق الناس! أيّ ولاية هذه؟ إنها ولاية الشيطان. ولاية الله وأهل البيت لا تجيز لك انتهاك حقوق الناس، والخوض في أعراض الآخرين؛ لأنهم يختلفون معك في هذا الرأي أو ذاك، هذا من ولاية الشيطان كما يقول الإمام الصادق عليه السلام.

من هنا على الإنسان أن يكون واعيًا حتى لا ينزلق في هذا المنزلق الخطير.

إنّ الأمة الإسلامية في عصرنا الراهن، أحوج ما تكون لإدراك القيم الدينية العالية، إزاء مراعاة حرمات البشر. خاصة في ظلّ الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان التي تعجّ بها ساحتها. إنّ هذه الأمة التي يسطر نبيّها هذه المفاهيم العظيمة المتعلقة بحرمة الناس، بات يُعتدى فيها على الناس نهارًا جهارًا، وصارت الدماء المحرمة تسفك في ساحاتها اعتباطًا، حتى إنّ المرء ليتساءل في نفسه، ما إذا كانت هذه حقًّا أمة الإسلام، وهل هذه هي الأمة التي تتلو القرآن الكريم وتردد أحاديث النبي صلى الله عليه وآله؟ كيف تحولت إلى بؤرة ترتكب فيها أبشع الفظائع، من قطع الرؤوس وسبي النساء، ومجازر تسفك فيها الدماء، وتنتهك الأعراض، حتى لا يكاد يمرّ يوم دون تفجيرات انتحارية تحصد مدنيين أبرياء.

في اليوم العالمي للاعنف

ما أحرى بالمسلمين أن يكونوا روادًا في منهجية اللاعنف. سيّما والعالم يحتفي باليوم العالمي للاعنف، المصادف للثاني من اكتوبر، الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ٢٠٠٧، وهو اليوم المصادف لذكرى ميلاد الزعيم الهندي المهاتما غاندي، رائد فلسفة اللاعنف. أوليس الأحرى بنا كمسلمين أن يرتبط شعار اللاعنف بتاريخنا؟ وأن يكون اللاعنف مجسّدًا في حياتنا وواقعنا؟

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٢٥٤، حديث٣٦.

إنّ من المشروع لكلّ فئة أن يكون لها تطلّعاتها، لكن ذلك لا ينبغي ولا يجوز أن يكون من خلال توسّل العنف، وارتكاب المجازر والتفجيرات الانتحارية، فهذه الأساليب الدموية ليست من المشروعية في شيء.

لقد ساهمت عوامل وأسباب عديدة في تحويل الأمة الإسلامية إلى السّاحة الأشدّ عنفًا بين الأمم. وفي طليعة تلك العوامل، استفحال الأنظمة القمعية التي توالت على شعوب الأمة عبر تاريخها الطويل، وإلى وقتنا الراهن، لقد ساهمت الأنظمة في توليد وتنمية حالة العنف في المجتمعات الإسلامية. يضاف إلى ذلك مساهمة الحكومات الأجنبية إبان مرحلة الاستعمار التي اجتاحت البلاد الإسلامية، ولاتزال آثارها متمثلة في الاحتلال الصهيوني لفلسطين، الذي يذيق شعبها الهوان والإذلال، وهذا ما قاد إلى بروز ردود فعل أنتجت هذا القدر من العنف.

غير أنّ السبب الأهمّ في تفشّي العنف في الأمة هو التفسير العنفي للدين. فقد نشأت مدرسة في أوساط المسلمين تعتمد في تفسيرها لأحكام الدين وتعاليمه على قاعدة عنفية، وتشجع على ممارسة العنف، باسم الدين وتحت شعار الإسلام، وهذا هو الأمر الأشدّ والأخطر الذي تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم.

المجتمعات الحرة ومكافحة الفساد

لكي تستقيم أمور أي مجتمع بشري لا بُدّ له من نظام وقانون يحمي الحقوق العامة والخاصة، ويردع الناس من الاعتداء على حقوق بعضهم بعضًا. لكن وجود القانون شيء وتطبيقه شيء آخر، فلو امتلك المجتمع أفضل قانون لكن هذا القانون لم يسلك طريقه للتنفيذ والتطبيق فما الفائدة منه؟.

نمتلك كمسلمين أفضل المبادئ والقوانين والنظم في شريعتنا الإسلامية، وحق لنا أن نفخر حينما يتحدث أحد في العالم عن العدالة والحرية وحقوق الإنسان وكرامته، نأتي لهم بنصوص من ديننا الكريم، لكن السؤال المهم هو؛ ماذا عن واقعنا؟ فواقعنا سيئ مع امتلاكنا لمنظومة متكاملة من القوانين الإسلامية، لا لشيء سوى لأن تلك القوانين لم تأخذ طريقها للتطبيق فغدت عديمة الفاعلية، فلا قيمة لقانون مهما بلغ من الصواب والصحة ما دام لا يجاوز الحبر الذي كتب به، حتى بات الحال في بعض

بلادنا، كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمولُ

وكما حكى الله تعالى عن اليهود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[سورة الجمعة، الآية: ٥].

ولكي يأخذ القانون طريقه بشكل سليم يجب أن يكون تطبيقه عامًا شاملًا، على القوي قبل الضعيف، وعلى الحاكم قبل المحكوم، حينئذٍ يصبح للقانون قيمة. أما في غير هذه الصورة فلا يكون للقانون قيمة.

إن ديننا الإسلامي يؤكد سيادة القانون على كل أحد مهما كانت مكانته وفوق كل اعتبار. فهذا القرآن الكريم يتحدث عن رسول الله ﷺ فيما لو خالف شيئًا من أوامر الله ونسب له ما لم يقله فإن العقوبة شديدة يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[سورة الحاقة، الآيات:٤٤-٤٦]، وعنه ﷺ أنه قال: «لو عَصَيْتُ لهَوَيْتُ»[1].

سيادة القانون

ينبغي أن يتساوى الناس أمام القانون. وفي القصة النبوية المشهورة مع سوادة التي كانت في أواخر حياة رسول الله ﷺ حيث خطب المسلمين وقال لهم: «إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ حَكَمَ وَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَجُوزَهُ ظُلْمُ ظَالِمٍ، فَنَاشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ أَيُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَانَتْ لَهُ قِبَلَ مُحَمَّدٍ مَظْلِمَةٌ إِلَّا قَامَ فَلْيَقْتَصَّ مِنْهُ، فَالْقِصَاصُ فِي دَارِ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْقِصَاصِ فِي دَارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ».

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْقَوْمِ يُقَالُ لَهُ سَوَادَةُ بْنُ قَيْسٍ.

فَقَالَ لَهُ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَمَّا أَقْبَلْتَ مِنَ الطَّائِفِ اسْتَقْبَلْتُكَ

(١) محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (الشيخ المفيد). الإرشاد، ج١، ص١٨٢.

وَأَنْتَ عَلَى نَاقَتِكَ الْعَضْبَاءِ، وَبِيَدِكَ الْقَضِيبُ الْمَمْشُوقُ، فَرَفَعْتَ الْقَضِيبَ وَأَنْتَ تُرِيدُ الرَّاحِلَةَ فَأَصَابَ بَطْنِي، فَلَا أَدْرِي عَمْدًا أَوْ خَطَأً؟

فَقَالَ (صلى الله عليه وآله): «مَعَاذَ اللَّـهِ أَنْ أَكُونَ تَعَمَّدْتُ».

ثُمَّ قَالَ: «يَا بِلَالُ، قُمْ إِلَى مَنْزِلِ فَاطِمَةَ، فَائْتِنِي بِالْقَضِيبِ الْمَمْشُوقِ».

فَخَرَجَ بِلَالٌ وَهُوَ يُنَادِي فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ: مَعَاشِرَ النَّاسِ مَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِي الْقِصَاصَ مِنْ نَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهَذَا مُحَمَّدٌ (صلى الله عليه وآله) يُعْطِي الْقِصَاصَ مِنْ نَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ـ وَسَاقَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ ـ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ (صلى الله عليه وآله): «أَيْنَ الشَّيْخُ»؟

فَقَالَ الشَّيْخُ: هَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللَّـهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي.

فَقَالَ: «تَعَالَ فَاقْتَصَّ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى».

فَقَالَ الشَّيْخُ: «فَاكْشِفْ لِي عَنْ بَطْنِكَ يَا رَسُولَ اللَّـهِ.

فَكَشَفَ (صلى الله عليه وآله) عَنْ بَطْنِهِ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّـهِ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَضَعَ فَمِي عَلَى بَطْنِكَ؟! فَأَذِنَ لَهُ.

فَقَالَ: أَعُوذُ بِمَوْضِعِ الْقِصَاصِ مِنْ بَطْنِ رَسُولِ اللَّـهِ (صلى الله عليه وآله) مِنَ النَّارِ يَوْمَ النَّارِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ (صلى الله عليه وآله): «يَا سَوَادَةُ بْنُ قَيْسٍ، أَ تَعْفُو، أَمْ تَقْتَصُّ؟

فَقَالَ: بَلْ أَعْفُو يَا رَسُولَ اللَّـهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ (صلى الله عليه وآله): «اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ سَوَادَةَ بْنِ قَيْسٍ كَمَا عَفَا عَنْ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ...»[1].

(١) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(الشيخ الصدوق). أمالي الصدوق، ص٧٣٣.

كما تتناول المصادر التاريخية الكثير من النماذج التي تؤكد أهمية سيادة القانون على الجميع وليس على طبقة معينة كالمحكومين والضعفاء. وتروي المصادر ما حصل بين الخليفة عمر وبين أبي هريرة، فقد ورد عن أبي هريرة قال: كنت عاملًا في البحرين فقدمت على عمر بن الخطاب فقال: عدوًا لله وعدوًا لكتاب الله، أسرقت مال الله؟ فقلت: ما أنا بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه، ولكني عدوّ من عاداهما، ولا سرقت مال الله. قال: فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف؟ فأجبت: خيلي تناسلت وسهامي تلاحقت، فأمر الخليفة بها إلى بيت المال[١].

القانون يجب أن يطبق على الجميع، فإذا تلاعب والٍ على منطقة بأموال الناس فينبغي أن يحاكم فهو ليس فوق القانون، ومقامه لا يعفيه عن المتابعة والمحاسبة.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن يتعدى على كرامات الناس، فينبغي أن يخضع للقانون مهما علت مكانته وكائنًا من كان. وأسوق هنا نموذجًا ذكرته مصادر أهل السنة أيضًا، ومفاده أن رجلًا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع السوط على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين! إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا[٢].

وفي سيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام أروع الأمثلة لسيادة القانون على جميع المستويات.

تغوّل الفساد في واقع المسلمين

لنا أن نتساءل هنا؛ إذا كان تراثنا يحفل بنماذج عن سيادة القانون فأين ذلك عن

(١) طبقات ابن سعد. ج٤، ص٣٣٥.
(٢) كنز العمال. ج١٢، ص٦٦٠.

واقع المسلمين اليوم. إن العالم من حولنا بات يحقق يومًا بعد آخر خطوات جبارة باتجاه تعزيز قيم الشفافية ومحاربة الفساد، حتى ظهرت هناك منظمات عالمية متخصصة في الرصد وقياس مستويات الشفافية عبر العالم.

وقد اتخذت في بلادنا خطوة طيبة مع تأسيس هيئة مكافحة الفساد، التي ينبغي أن تفعّل على أحسن وجه، وألّا تجعل لنشطاها سقفًا متدنيًا عبر الاكتفاء بملاحقة صغار الموظفين فحسب، فمشكلة الفساد الحقيقية لا تكمن في هؤلاء وإن كان ينبغي متابعتهم. ينبغي للهيئة متابعة المسؤولين الفاسدين، الكبار منهم قبل الصغار، والمتنفذين قبل الضعفاء، وذلك تبعًا للمرسوم الملكي الذي تشكّلت بموجبه هذه اللجنة والذي أطلق يدها دون سقف محدد.

إن مكافحة الفساد في مستوياته العليا هي وسيلة النجاة وبغيرها ليس سوى الهلاك. ورد عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «إِنَّما أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أَنَّهُمْ كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ»[1]. بمعنى أنه إذا كان السارق متنفذًا أو مسؤولًا كبيرًا تُرك يفعل كيف يشاء، فيما يصار في مقابل ذلك إلى الاستقواء على الضعفاء والعاملين الصغار، المطلوب إخضاع الجميع لمسطرة القانون دون تمييز بين أحد وآخر لأيّ اعتبار كان، بداية من كبار المسؤولين، ذلك أنه إذا رأى الصغار أن الكبار قد حوسبوا فإنهم سيرتدعون حتمًا.

الشفافية في المجتمعات المتقدمة

ولعلّ في تجارب الأمم اليوم خير مثل في تطبيق سيادة القانون على الجميع دون استثناء. ويذكر في هذا السياق الضجة التي أثيرت ضد الرئيس الألماني السابق كرستيان فولف، لجهة أخذه سنة ٢٠٠٨ قرضًا بقيمة ٥٠٠ ألف يورو من زوجة أحد رجال الأعمال الأثرياء، إبان رئاسته لإحدى الولايات الألمانية، وتصاعدت الدعوات لإقالته وتقديمه للمحاكمة، لعدم إعطائه تفاصيل حول ذلك القرض عندما

(١) صحيح البخاري. ج٣، ص٩٤، حديث٤٣٠٤.

تقدم للترشح لمنصب الرئاسة.

وعلى غرار ذلك، ما يزال الرئيس الإسرائيلي السابق موشيه كساف يقبع في السجن، بعد إدانته بتهمة الاغتصاب والتحرش الجنسي، في فترات مختلفة، عندما كان وزيرًا للسياحة، وعندما كان رئيسًا لدولة إسرائيل، هذا الكيان الغاصب لمقدساتنا يعتزون بتطبيق سيادة القانون في كيانهم، وتكرر ذات الأمر مع رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود أولمرت، الذي أدين بتهم الفساد في فضيحة كبرى حول عقارات في القدس، حين كان رئيسا لبلدية المدينة. هكذا يسود القانون، ففي تلك البلدان يطبق النظام على الجميع دونما استثناء.

إن غياب الجدية في مكافحة الفساد جعل من العالم العربي مرتعًا للسراق والفاسدين دونما حسيب ورقيب. ولو أخذنا مثالًا واحدًا في هذا السياق، زوجة الرئيس التونسي المخلوع زين العابدين بن علي، فقد كانت هذه السيدة من عائلة فقيرة تعمل كمصففة شعر، فأحبها الرئيس وتزوجها، ليبدأ نفوذها ونفوذ أفراد عائلتها في كل مفاصل الدولة، حتى قدرت ثروتها إبان سقوط زوجها المخلوع بما يفوق سبعة مليارات دولار كما تحدثت بعض المصادر.

إنه لا سبيل لمكافحة واجتثاث الفساد إلّا من خلال التطبيق الجدي لمبدأ المحاسبة للجميع.

مسؤولية المواطنين

ينبغي أن يتحمل الناس مسؤوليتهم في مكافحة الفساد. لقد طالبت هيئة مكافحة الفساد المواطنين في المملكة، عبر الصحف المحلية، أن يبلغوا عن أيّ حالات فساد ومخالفات للقانون، لذلك ينبغي للناس أن يتحلوا بالجرأة في محاربة الفساد، وليس الحديث في المجالس المغلقة فقط، وإنما عبر رفع الدعاوى ضد المفسدين لفضح ممارساتهم، والإبلاغ عنهم، خاصة وأن الهيئة وضعت طرقًا تضمن حماية المتقدم للبلاغ، وعلى الناس أن يستفيدوا من هذه الفرص.

الشخصية المتشنجة والفهم الخطأ للدين

يوم الثامن والعشرين من شهر صفر هو ذكرى وفاة رسول الله ﷺ، وهو يوم الفاجعة التي لم تفجع الأمة بأعظم منها، فبها انقطع الوحي من السماء إلى الأرض، وبها فقدت البشرية من على وجه الأرض أحبّ الخلق إلى الله عزّ وجلّ.

وحينما نقرأ سيرة رسول الله ﷺ نجد أن الله تعالى يركز على صفة مهمة وأساس من أعظم صفاته، وهي أخلاقه يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[سورة القلم، الآية: ٤]. والحديث عن أخلاق رسول الله ﷺ يهمّنا لأمرين:

الأول: أن نعرف شيئًا من عظمة رسول الله ﷺ؛ لأنّ عظيم خلقه تجلٍّ لعظيم شخصيته.

الثاني: حتى يكون الرسول قدوة وأسوة لنا في حياتنا وسلوكنا.

وما أحوج المسلمين للاستضاءة بسيرة رسول الله ﷺ، بأن تكون حاضرة معهم في كلّ وقت؛ في دروسهم، وأعمالهم، ووسائل إعلامهم، فهي أفضل علاج للأزمات الأخلاقية التي تعيشها الأمة.

رسول الله ﷺ مثّل النموذج الأرقى والأروع في تاريخ البشرية من حيث الأخلاق، ولهذا يشيد الله تعالى بعظيم هذه الصفة فيه ويخاطبه قائلًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[سورة القلم، الآية: ٤].

أما الإمام عليّ عليه السلام فيصف أخلاق رسول الله ﷺ بقوله: «كان دائم البِشْر سهل الخلق، ليِّن الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مزّاح ولا مدّاح يتغافل عمّا لا يشتهي»(١).

وكان ﷺ يحثّ أمّته على الاهتمام بحسن الخلق ويقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ويروي الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن جدّه ﷺ أنه قال: «عليكم بحسن الخلق فإن حسن الخلق في الجنة لا محالة، وإيّاكم وسوء الخلق فإن سوء الخلق في النار لا محالة»(٢). وعنه ﷺ: «أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم خلقا»(٣). وعنه ﷺ: «الإسلام حسن الخلق»(٤). وإذا كان المؤمن يرغب في عظيم ثواب الله تعالى يوم القيامة فيهتم بالعبادات المختلفة، فإن رسول الله ﷺ يوجه المؤمن إلى أنه بإمكانه أن ينال الثواب الأكبر من الله عن طريق آخر وهو حسن الخلق، ورد عنه ﷺ: «إن العبد ليبلغ عظيم بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة»(٥). وقد يقلق الإنسان على شيءٍ من حجّه أو صومه أو صلاته خوفًا من عدم أدائها بالطريقة الصحيحة، وهذا مطلوب من حيث الإتقان، ولكن هل حرصه على معاملة الناس كحرصه على هذه العبادات؟ حينما نقرأ النصوص نجدها تؤكد أن الإنسان ينبغي أن يكون أحرص على حسن الخلق وحسن التعامل مع الآخرين، ولهذا ورد عنه ﷺ: «سوء الخلق ذنب لا يغفر»(٦).

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام. ج٢، ص٢٨٤.

(٢) بحار الأنوار. ج١٠، ص٣٦٩، حديث١٩.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام. ج١، ص٤١.

(٤) كنز العمال. ج٣، ص١٧، حديث ٥٢٢٥.

(٥) سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني. المعجم الكبير، ج١، ص٢٦٠.

(٦) محمد مهدي النراقي. جامع السعادات. ج١، الطبعة السابعة١٤٢٢هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٧١.

من مظاهر سوء الخلق ممارسة التديّن بتشنج وتوتر. ويظهر ذلك في علاقة الإنسان مع المختلفين معه في الدين أو المذهب، أو حتى داخل المذهب! لماذا نجعل من هذه الأمور مصدرًا لتوتر العلاقات بيننا وبين الآخرين؟ الإنسان المؤمن ليس إنسانًا متشنجًا، فالإيمان لا ينتج شخصية متوترة متشنجة، ومن يكون كذلك ففي شخصيته خلل. إننا نجد القرآن الكريم يصف المؤمن بطمأنينة قلبه يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّـهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[سورة الرعد، الآية: ٢٨]. شخصية المؤمن هي تلك الهادئة المستقرة الوادعة، أما المتشنج الذي يكره هذا، ويحقد على ذاك، ويتضارب مع شخص ما لأنه يختلف معه في شيء من أمور الدين، معتقدًا أن ذلك من حبّ الدين والحرص عليه، والواقع هو غير ذلك، فهذا إساءة للدين. الإنسان المتشنّج يفسد دينه في داخل نفسه، ويشوّه سمعة دينه ومذهبه ومدرسته عند الآخرين.

قد يكون رأيك صحيحًا، وقد يكون رأي الآخر صحيحًا، وربما كان رأيه خطأ لا خلاف فيه، لكن ذلك لا يستلزم التشنج والتوتر.

إذا قرأنا سيرة رسول الله ﷺ وهو قمة الدين فهل سنزايد على تديّنه، أو على تديّن الأئمة، وقد كانوا مرنين مع الناس، ولم يكونوا متشنجين متوترين، حتى نكون بهذا القدر من التوتر والتشدد؟ ورد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله ﷺ... وحضرت صلواتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس وصلوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم»[1].

وعن أنس بن مالك قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ: مَهْ، مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ، لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ،

(١) بحار الأنوار. ج ٢١، ص٣٤٠، حديث ٦.

إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ، قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ»[١]. لم يتشنّج رسول الله ﷺ لهذا الأمر، ولم يقبل من قومه أن يؤذوا الرجل.

هكذا كانت رحابة الصدر وسعة النفس عند رسول الله ﷺ، بينما نتعامل مع بعضنا بفتاوى التكفير وتراشق الاتهامات لأدنى اختلاف بيننا. ونتساءل: هل يجوز لنا أن نبارك للمسيحيين في عيد رأس السنة؟ ونشغل الخطب والمنابر بهذا الأمر! لماذا هذا التشنج؟

هذه مناسبة إن كانت دينية وهي ميلاد نبي الله عيسى المسيح فهي أمر طيّب، ولا بأس أن يبارك الناس لبعضهم بولادة نبي من أولي العزم، وإن كانت بداية العام عندهم، فما المشكلة وهي عرف اجتماعي عندهم؟

جاء بعض العجم في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وهم يحملون بعض الحلويات ويبدو عليهم الفرح، فسألهم عن ذلك؟

قالوا: هذا يوم النوروز، يوم السنة الجديدة للفرس.

فقال عليه السلام: «نَوْرُوزُنَا كُلَّ يَوْمٍ»[٢] أو «نَيْرِزُونا كلّ يَوْم»[٣].

الشخصية المتديّنة ينبغي أن تتحلى بسعة الأفق للمختلفين معها في الدين والمذهب. قد تجد داخل المذهب من يخالفك في أمرٍ ما، عقدي أو تاريخي أو ما شابه، كما نسمع عن الاختلاف في موضوع الشعائر، وعلى أمور غاية ما يقال عنها أنها مستحبة، والاختلاف في هذه الأمور أمر طبيعي لا يستوجب هتك الحرمات والتشهير بالآخرين، والنيل منهم، والتشكيك في معتقداتهم. يخبرني أحد الفضلاء أنه سجّل برنامجًا في إحدى الفضائيات وكان له رأي حول بعض الشعائر، فأوقفت

(١) صحيح مسلم. كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَاب وُجُوبِ غَسْلِ الْبَوْلِ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ، حديث ٤٣٤.
(٢) محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص٣٩٥.
(٣) من لا يحضره الفقيه. ج٣، ص٣٠٠.

تلك القناة بث الحلقات رغم أنها لا ترتبط بمورد الاختلاف، ولكن أوقفت؛ لأنه يحمل هذا الرأي! هل هذا دين وعقيدة؟ هذه شخصية متشنجة متوترة، والدين يربي الشخصية الهادئة الوقورة المتزنة المطمئنة بذكر الله عزّ وجلّ.

لهذا نحن بحاجة ماسّة لقراءة سيرة رسول الله ﷺ الذي مثّل قمة الأخلاق، وذلك للاقتداء به. إذا كنا نريد أن نكون متدينين حقًّا، فالتديّن الحقّ ليس بالتشنج والتوتر، بل بحسن الخلق وسعة الصدر، هذا هو التديّن الذي يأمر به رسول الله ﷺ والذي مارسه في حياته.

سفك الدماء في بلاد المسلمين

إنّ حقّ الحياة هو أول حق من حقوق الإنسان، عنه تتفرع وتنبثق سائر الحقوق الأخرى.

إنّ حقّ الحياة قرار إلهي ومنحة ربانية للإنسان، ولا يجوز تبعًا لذلك لأيّ جهة كانت أن تصادر هذا الحق أو تعيق نفاذ القرار، ومن يفعل ذلك فهو يتحدى أمر الله سبحانه وتعالى، إلّا إذا كان هذا الإنسان قاتلًا معتديًا، وظالمًا غشومًا، فهو يستحق القتل بأمر الله، وما عدا ذلك فليس مقبولًا عند الله سفك دم أحد من عباده.

تُعدّ حرمة الدماء من أعظم الحرمات في الإسلام، ولهذا أكدت عليها جملة من النصوص، ومنها الآية الكريمة ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فالنفس الواحدة طبقًا للآية لها مكانتها وقدسيتها عند الله سبحانه وتعالى، التي تعادل في وزنها وزن نفوس البشر أجمعين.

وتشدد الأحاديث النبوية أيما تشديد على حرمة الدماء، وتنهى على نحو قاطع عن المساهمة في سفك دم ولو بشطر كلمة.

فقد أورد الكافي عن أبي حمزة عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليهما السلام) قال: أتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله، قتيل في مسجد جهينة، فقام رسول الله ﷺ يمشي حتى انتهى إلى مسجدهم قال: وتسامع الناس فأتوه فقال ﷺ: من قتل ذا؟ قالوا: يا رسول الله، ما ندري، فقال: قتيل من المسلمين بين ظهراني المسلمين لا يدرى من قتله، والله الذي بعثني بالحق لو أن أهل السماوات والأرض شركوا في دم امرئ مسلم و رضوا به لأكبهم الله على مناخرهم في النار»[١].

وأخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»[٢].

كما أخرج الهيتمي في مجمع الزوائد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لو اجتمَعَ أهلُ السماءِ والأرْضِ على قتلِ مؤْمِنٍ لكبَّهُمُ اللهُ في النارِ»[٣].

وفي رواية أخرى جديرة بالتأمل قال ﷺ: «لزوال الدنيا جميعًا أهون على الله من دم يسفك بغير حق»[٤].

وورد عن النبي ﷺ: «لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا»[٥]، ويشير الحديث هنا إلى إمكان تدارك مختلف المعاصي والانحرافات على نحو أو آخر، لكن مسألة الدم خط أحمر لا يمكن التهاون إزاءه أو السكوت عليه.

---

(١) الكافي. ج٧، ص٢٧٢-٢٧٣.
(٢) أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي. سنن النسائي، حديث٣٩٩٨ .
(٣) مجمع الزوائد. ج٧، ص٢٩٧.
(٤) كنز العمال. ج١٥، ص٣٢، حديث٣٩٩٤٧ .
(٥) صحيح البخاري. حديث ٦٨٦٢.

وعنه ﷺ قال: «لا يحولنّ بين أحدكم وبين الجنة كف من دم أصابه»[١].

فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «مَنْ شَرَكَ في دمٍ حرامٍ بشطْرِ كَلِمَةٍ جاءَ يومَ القيامةِ مكتوبٌ بينَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِن رحمةِ اللهِ»[٢].

إن هؤلاء الذين يحرّضون على قتل الأبرياء عبر البيانات والفتاوى هم شركاء أساسيون مع الإرهابيين والتفجيريين في جرائم القتل التي تسفك فيها دماء الأبرياء بسبب فتاواهم، إنهم محاسبون أمام الله تعالى تجاه هذه الدماء التي تسفك. لا شيء أبدًا يبرر سفك الدم الحرام.

لقد جاء الإسلام ليؤسس مجتمعًا يحترم حق الحياة، ويعطي للدماء حرمتها ويحذر من انتهاكها. خاصة وأن الإسلام جاء في مجتمع جاهلي كان يمتهن سفك الدماء، فجاءت الرسالة النبوية لترسي أركان مجتمع جديد، فكان النبي الأكرم ﷺ يدأب على تجنب القتال، ويسعى لتقليل عدد الضحايا ما أمكن في حروبه مع أعداء الإسلام، حتى إن إجمالي عدد القتلى في حروب وغزوات النبي ﷺ على مدار عشر سنين لم يبلغوا ١٣٠٠ قتيلٍ من كلا الطرفين المسلمين والكفار. فغاية رسالة الإسلام احترام حق الحياة لبني البشر، وليس الانتقام أو استباحة الدماء.

باسم الدين تسفك الدماء

لقد ابتليت الأمة الإسلامية في تاريخها الماضي وواقعها المعاصر بتوجهات متطرفة تدعو إلى سفك الدم الحرام، حتى أصبحت هذه الأمة كما لو أنها لا تعرف للدم حرمة، ولا تقيم للحياة وزنًا. وقد بتنا نشاهد في عصرنا الراهن كيف تعمد الحكومات المستبدة في بلاد المسلمين إلى سفك دماء الألوف من أبناء شعبها لا لشيء سوى الحفاظ على العروش والكراسي!. إنّ استخدام العنف الأعمى ضد

(١) كنز العمال. ج٥، ص٢٧، حديث٣٩٩٢٢ .
(٢) مجمع الزوائد. ج٧، ص٣٠١.

الشعوب عبر التاريخ أمر يندى له الجبين، ونتيجة لذلك برزت مجاميع من أبناء الأمة تتبنى استخدام العنف وتمارس سفك الدماء، بل وتفخر بعدد القتلى الذين تفتك بهم من المدنيين والأبرياء.

يحار المرء عندما يرى إنسانًا يدّعي التديّن ويزعم نصرة الإسلام يقوم بتفجير نفسه وسط مسلمين مصلين، ليوقع بينهم العشرات بين قتيل وجريح، فأيّ دين هذا؟!. ويتضح من ذلك أن هؤلاء الإرهابيين أكثر جرأة ضد المدنيين الأبرياء منهم ضد العدو. إذ تشير الإحصاءات لأعداد القتلى من الجنود الأمريكيين في العراق منذ عام ٢٠٠٣ أنهم يتجاوزن بقليل عدد الأربعة آلاف جندي، في مقابل ذلك بلغت أعداد ضحايا الإرهاب الداخلي من العراقيين وحدهم أكثر من مئة ألف تبعًا لأقلّ الإحصاءات، فيما يصل العدد وفق إحصاءات أخرى إلى مئات الألوف من الضحايا.

إن من المؤلم حقًّا حدوث هذه المجازر بحق الأبرياء المسالمين في المساجد والأسواق في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، في الجزائر وأفغانستان وباكستان والعراق ونيجيريا. والأكثر إيلامًا هو أن تحصل هذه الفظائع تحت عناوين إسلامية!. فهذا مسجد في شمال باكستان يستهدفه انتحاري بحزام ناسف فيقتل ٤٧ مصليًا، ويوقع عشرات الجرحى والضحايا. وفي العراق أيضًا يستهدف انتحاري مسجد أم القرى السني في بغداد ويخلف عددًا كبيرًا من القتلى، وسبق ذلك تفجير انتحاري آخر استهدف حسينية في البصرة وراح ضحيته عشرات القتلى، عدا باقي التفجيرات التي استهدفت الأبرياء في مختلف المناطق.

إن مثل هذه الأفعال ينبغي أن تسترعي النظر والانتباه، فهي تشير إلى أن هناك خللا اجتماعيًا، وفكريًا، ينتاب هذه الأمة التي يقدس دينها الحياة، فيما يستهين أبناؤها بالقتل الأعمى بحق الأبرياء.

المزايدة في الدين

التنافس في عمل الخير وطاعة الله تعالى أمرٌ مطلوب في ذاته؛ فقد حثّت الآيات القرآنيّة الكريمة على ذلك في موارد متعدّدة، وكذا النصوص الروائية والأدعية الشريفة؛ حيث تدفع بالإنسان نحو التقدّم في عمل الخير وطاعة الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُون﴾[سورة المطففون، الآية: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرات﴾[سورة البقرة، الآية: ١٤٨].

كما جاء هذا المعنى في دعاء مكارم الأخلاق للإمام عليّ بن الحسين عليه السلام حيث قال: «اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَبَلِّغْ بِإِيْمَانِي أَكْمَلَ الإِيْمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَانْتَهِ بِنِيَّتِي إِلَى أَحْسَنِ النِّيَّـاتِ، وَبِعَمَلِي إلى أَحْسَنِ الأَعْمَالِ»[1].

---

(١) الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضيِّ الأفعال، الدعاء (٢٠)، ص٩٤.

ومن هذه النصوص يظهر: أنّ على الإنسان أن يكون طموحًا لأن يكون أفضل من الآخرين تديُّنًا والتزامًا، وسبَّاقًا إلى الخير وطاعة الربّ.

ازدراء تديّن الآخرين

لكن قد تصاب نفس الإنسان ببعض الأمراض التي تعيقه عن إنجاز هذه المهمة بخلوص نيّة وصفاء قلب، من قبيل: «التفاخر بالتديّن وازدراء تديّن الغير»؛ حيث نلاحظ أنّ البعض يرى تديّنه الأفضل والأحسن والأنجع، ويكيل التهم لتديّن الآخرين، وما هذه إلا مزايدة باسم الدين.

وقد أكدت النصوص الدينيّة ذمّ هذه المزايدة، وتقريع من يمارسها بشدّة وصلابة، وهي نصوص ربما لا تكون صحيحة الأسانيد بآحادها، لكن من حيث مجموعها ومجملها نراها منسجمة مع قيم الدين ومقاصده ومفاهيمه، نظير ما ورد عنه ﷺ أنه قال: «وَيْلٌ لِلْمُتَأَلِّينَ مِنْ أُمَّتِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: فُلَانٌ فِي الْجَنَّةِ وَفُلَانٌ فِي النَّارِ»[1].

والذي يُعنى من التألّي على الله هو: أنّ الإنسان يُصدر حكمًا على المستقبل الأخروي للآخرين، فيصنّف الناس على أساس قناعاته، في الجنّة والنار، ولا ندري من هو الذي منح له هذا الحقّ في تقرير مصير الآخرين؟!؛ إذ كيف يُسوَّغ له الحكم السلبي على عباد الله، خصوصًا من يشاركونه في الدين والعقيدة؟

كما جاء في رواية عن أبي ذرّ الغفاري: «أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا قَالَ يَوْمًا وَاللَّـهِ لَا يَغْفِرُ اللَّـهُ لِفُلَانٍ.

قَالَ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي تَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَ الْمُتَأَلِّي بِقَوْلِهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ»[2].

وجاء في حديث آخر عنه ﷺ: «لَا تَأْلُوا عَلَى اللهِ، لَا تَأْلُوا عَلَى اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ تَأَلَّى

(١) كنز العمال. ج٣، ص٥٥٩، حديث ٧٩٠٢.

(٢) وسائل الشيعة. ج١٥، ص٣٣٦؛ وصحيح مسلم. حديث ٢٦٢١.

عَلَى اللهِ أَكْذَبَهُ اللهُ»[١].

من مجموع هذه النصوص نفهم أنّ التفاخر بالدين أمرٌ محظور ومنبوذ من الناحية الشرعيّة؛ لكونه من مصاديق الرياء؛ فإنّ الله لا يقبل من عبده المؤمن ـ مهما كانت درجة تديّنه وعبادته ـ أن يتفاخر محاولًا اكتساب السمعة والفخر بين الناس على أساس عمله الديني؛ فقد جاء في الحديث: «عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ فَذَكَرْتُهُ، فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ، وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ.

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ؟

قَالَ: نَعَمْ... أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا حَجَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ...»[٢].

ومن هنا نجد أنّ الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يتضرّع إلى الله كي يجعله في قمّة الالتزام بالقيم والأخلاق، دون أن يسبب له ذلك شعورًا بالتعالي على الآخرين، أو بالتفاخر بينهم، حيث قال في دعائه: «وَهَبْ لي مَعالِيَ الأَخْلاقِ، وَاعْصِمْني مِنَ الفَخْرِ»[٣].

تصنيف الناس دينيًا

ومجمل القول: إنّ مكمن الداء في أوساطنا هو أنّ البعض من المتدينين يمنحون لأنفسهم الحقّ في تصنيف الناس، وتوزيع الرتب والمواقع عند الله، بوعي أو بدون وعي، وربما يحسبون أنّ هذا الأمر مهمة قد منحها الله جلّ وتعالى لهم، فيصدرون أحكامًا في نجاة هذا وهلاك ذاك، وفي فساد عقيدة (أ) وصلاح عقيدة (ب)، وما هذه المزايدة إلّا واحدة من المساوئ القائمة في حياة المسلمين الدينيّة؛ مع أنّ الدين

(١) المعجم الكبير. ج٨، ص٢٢٩.
(٢) مسند أحمد، ج٢٨. ص٣٤٦.
(٣) الصحيفة السجادية. دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال، الدعاء (٢٠)، ص٩٤.

بتعاليمه يربّي الإنسان المسلم على حسن الظنّ بإخوانه المسلمين، حتى وإن بلغ درجة أفضل في العلم والمعرفة الدينيّة، إلّا أن ذلك لا يدعوه للازدراء بالآخرين، بل يتحمّل مسؤولية رفع مستواهم وإقناعهم بما يعتقد أفضليته، لا أن يتعامل معهم بازدراء، ويحكم بخروجهم عن الدين والملّة؛ لأنهم لا يتفقون معه في رأي جزئي أو مسألة تفصيليّة.

وقد روى: «الصَّبَّاحِ بْنِ سَيَابَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّـهِ جعفر الصادق عليه السلام القَولَ: مَا أَنْتُمْ وَالْبَرَاءَةَ؟ يَبْرَأُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُهُمْ أَكْثَرُ صَلَاةً مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُهُمْ أَنْفَذُ بَصَرًا مِنْ بَعْضٍ، وَهِيَ الدَّرَجَاتُ»[1].

وليس هذا الداء مقتصرًا على هذا العصر، بل نلاحظ جذوره موجودة في عصور الأئمة عليهم السلام أيضًا؛ حيث كشفت بعض النصوص الروائيّة عن اختلاف المراتب في أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، وكشفت عن وجود هذه الظاهرة فيما بينهم، كما جاء ذلك في روايةٍ: «عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْقَرَاطِيسِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّـهِ عليه السلام فَذَكَرْتُ لَهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الشِّيعَةِ وَمِنْ أَقَاوِيلِهِمْ، فَقَالَ يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ:

الْإِيمَانُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ بِمَنْزِلَةِ السُّلَّمِ لَهُ عَشْرُ مَرَاقِيَ، وَتُرْتَقَى مِنْهُ مِرْقَاةً بَعْدَ مِرْقَاةٍ، فَلَا يَقُولَنَّ صَاحِبُ الْوَاحِدَةِ لِصَاحِبِ الثَّانِيَةِ لَسْتَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا يَقُولَنَّ صَاحِبُ الثَّانِيَةِ لِصَاحِبِ الثَّالِثَةِ لَسْتَ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْعَاشِرَةِ.

قَالَ: وَكَانَ سَلْمَانُ فِي الْعَاشِرَةِ، وَأَبُو ذَرٍّ فِي التَّاسِعَةِ، وَالْمِقْدَادُ فِي الثَّامِنَةِ.

يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ: لَا تُسْقِطْ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيُسْقِطَكَ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ، إِذَا رَأَيْتَ الَّذِي هُوَ دُونَكَ فَقَدَرْتَ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى دَرَجَتِكَ رَفْعًا رَفِيقًا فَافْعَلْ، وَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيْهِ مَا لَا يُطِيقُهُ فَتَكْسِرَهُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ كَسَرَ مُؤْمِنًا فَعَلَيْهِ جَبْرُهُ؛ لِأَنَّكَ إِذَا ذَهَبْتَ تَحْمِلُ الْفَصِيلَ حَمْلَ الْبَازِلِ فَسَخْتَهُ»[2].

---

(١) الكافي. ج٢، ص٤٥.

(٢) الشيخ الصدوق. الخصال، طبعة ١٤٠٣هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ج٢، ص٤٤٨.

ولم تكتفِ النصوص الدينيّة بشجب هذه الظاهرة ونقدها، بل طرحت حلولًا لتجاوزها، من خلال بيان كيفيّة التعامل مع من لا يتفق مع الإنسان في بعض القضايا الدينيّة، وذلك باستحضار المعايير التالية:

الأوّل: احتمالات الخطأ والصواب

فما هو الضمان بصحّة الرأي الذي يختاره الإنسان وسقم رأي غيره، فربما يكون الأمر بالعكس تمامًا؛ إذ لا يمكن للإنسان العادي أن يدّعي العصمة في آرائه على الإطلاق، بل هي مسائل اجتهاديّة سواء أكانت في القضايا الفكريّة أو الفقهيّة، والمجتهد بطبيعته قد يختلف في رأيه عن المجتهد الآخر، ومن يطمئن بمجتهد معيّن فيأخذ رأيه الفقهي أو الفكري فهو معذور عند الله؛ لكونه أخذ برأي مجتهد، أو إنه اجتهد، حينما تكون له القدرة على ذلك، فلا يُسوّغ له الحكم القطعي بصواب الرأي وخطأ خيار الآخر؛ مما يعني عدم إمكانيّة ادّعاء الجزم بالوصول إلى الحكم الواقعيّ الحقيقي؛ حيث إنّ كلّ رأي يحتمل الخطأ والصواب، وجميل ما تعارف عليه الفقهاء بالقول بعد بيان الفتوى (والله أعلم) أو (والله العالم) وهناك مقولة رائعة تنسب للإمام الشافعي: رأيي صَوابٌ يَحتَمِلُ الخَطأ، ورأيُ غَيري خَطأ يَحتَمِلُ الصَّوابَ.

وكم من فكرة تنازع الناس عليها، واختلفوا فيما بينهم حولها، وبعد مرور فترة من الزمن تغيّرت الأمور، وساد رأي غير الرأي الذي كان سائدًا في الماضي؛ ومع كون الأمر كذلك فلا ينبغي للإنسان أن يتهم الآخرين في دينهم؛ لكونهم يمتلكون رأيًا آخر.

الثاني: احتمال القبول وعدم القبول

يجتهد المؤمن في تبنّي ما يعتقد أنه حق، وفي العمل بما يوصله إلى رضا الربّ تعالى، لكنه لا يستطيع إحراز قبول عمله من قبل الله تعالى، فهو يتهم نفسه بالتقصير دائمًا، ويشعر بالخوف والوجل من عدم تحقق موجبات قبول الله تعالى لعمله، فكيف يصحّ لمؤمن أن يجزم بأن ما يمارسه من تديّن هو المقبول عندالله، وأن تديّن

غيره المختلف معه غير مقبول؟ فقد يكون عمل الآخر مقبولًا، وعملك غير مقبول.

من هنا جاءت النصوص الدينيّة التي توجه الإنسان المؤمن إلى عدم اخراج نفسه عن حدّ التقصير، فيظلّ متهمًا نفسه بالتقصير متطلعًا دائمًا إلى الكمال والارتقاء في طاعة ربه، جاء في الرواية: «عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي خَلَفٍ: عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُوسىٰ عليه السلام، قَالَ: قَالَ لِبَعْضِ وُلْدِهِ: يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِالْجِدِّ، لَا تُخْرِجَنَّ نَفْسَكَ مِنْ حَدِّ التَّقْصِيرِ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَاعَتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُعْبَدُ حَقَّ عِبَادَتِهِ»[١].

وروى ابنُ أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عن محمد بن فضيل بن غزوان قال: قيل لعليّ عليه السلام: كم تتصدق؟ كم تخرج مالك؟ ألا تمسك؟ قال: إني والله لو أعلم أن الله تعالى قبل مني فرضًا واحدًا لأمسكت، ولكني والله ما أدري، أقَبِلَ الله منّي سبحانه شيئًا أم لا[٢].

الثالث: احتمالات حسن العاقبة وسوئها

فمن هو الإنسان الذي يضمن حسن عاقبته، وسوء عاقبة الشخص الذي يختلف معه؟ وعلى كلّ إنسان أن يدعو الله بحسن العاقبة، ولكن يبقى احتمال سوئها قائمًا.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبين النار إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة»[٣].

كلّ ما تقدّم يكشف لنا عن ضرورة عدم إعجاب الإنسان بتديّنه عمومًا، سواء أكان على المستوى العقدي، أو المستوي السلوكي، وهذا لا يمنع من إبداء الرأي والدفاع

---

(١) الكافي. ج٤، ص١٨٥.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي. شرح نهج البلاغة. ج٢، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص٢٠٢.

(٣) كنز العمال. ج١، ص١٢١.

عنه، ولكن من الخطأ تجهيل الآخرين وازدرائهم، وتحمّل مسؤولية تصنيفهم في درجات الثواب والعقاب، وإثابتهم ومعاقبتهم؛ إذ نصّت الآيات القرآنيّة على أنّ الحساب على الدين شأن إلهيٌّ خالص، قال تعالى:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾[سورة الشعراء، الآية: ١١٢].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[سورة الغاشية، الآية: ٢٦].

وأخيرًا نقف مع المحاورة التي جرت بين محمد بن مسلم الزهريّ وبين الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام؛ حينما دخل الزهريّ مهمومًا كئيبًا عليه، فبادره الإمام عليه السلام بالسؤال عن السرّ الذي يقف وراء همّه وكآبته وغمّه، فابدي له الزهري انزعاجه من الطّماعين والحسّاد ممن أحسن إليهم، وهكذا يستمر الحديث بينهما حتى يقول له الإمام عليه السلام:

«إِنْ عَرَضَ لَكَ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اَللَّـهُ بِأَنَّ لَكَ فَضْلًا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ اَلْقِبْلَةِ فَانْظُرْ إِنْ كَانَ أَكْبَرَ مِنْكَ فَقُلْ قَدْ سَبَقَنِي بِالْإِيمَانِ وَ اَلْعَمَلِ اَلصَّالِحِ فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَ مِنْكَ فَقُلْ قَدْ سَبَقْتُهُ بِالْمَعَاصِي وَاَلذُّنُوبِ فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَإِنْ كَانَ تِرْبَكَ فَقُلْ أَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَنْبِي وَفِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِهِ فَمَا لِي أَدَعُ يَقِينِي لِشَكِّي وَإِنْ رَأَيْتَ اَلْمُسْلِمِينَ يُعَظِّمُونَكَ وَيُوَقِّرُونَكَ وَيُبَجِّلُونَكَ فَقُلْ هَذَا فَضْلٌ أَخَذُوا بِهِ وَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ جَفَاءً وَانْقِبَاضًا فَقُلْ هَذَا لِذَنْبٍ أَحْدَثْتُهُ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ سَهَّلَ اَللَّـهُ عَلَيْكَ عَيْشَكَ وَكَثُرَ أَصْدِقَاؤُكَ وَفَرِحْتَ بِمَا يَكُونُ مِنْ بِرِّهِمْ وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ جَفَائِهِمْ»[١].

أجل؛ هكذا تربّي النصوص الدينيّة الإنسان المؤمن في التعامل مع الآخرين، وتطلب منه عدم الإعجاب بالنفس والمزايدة باسم الدين، هذه الظاهرة التي تُعدّ من أخطر الأمراض في ساحتنا الدينيّة، وينبغي للناس أن يحسنوا الظن ببعضهم بعضًا، وأن يديروا ما يختلفون عليه من أمور فقهيّة أو فكريّة بالحوار، وضمن الضوابط العلميّة والأخلاقيّة.

(١) أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي. الاحتجاج، ج٢، ص٣١٩.

إضاءة رابعة

خلق عظيم

القيادات الدينية وأخلاق التعامل

تحظى القيادات الدينية في أوساط المتديّنين بدرجةٍ متميزةٍ من الولاء والطاعة والتقدير؛ لأنّها تمثل الدين في نظر المتديّنين، فالولاء لهم ولاء للدين، ولأنّ القيادات الدينية هي المرجع في فهم تعاليم الدين، فالناس يرجعون إليها في أخذ تعاليم دينهم، كما أنّها المحور الذي يلتف الناس حوله في الكيان الديني، لكلّ ذلك يكون احترام الناس وتقديرهم وولاؤهم للقيادات الدينية.

وإذا كان الناس يبدون هذا الولاء والتقدير للقيادات الدينية بدافع ديني، فكيف ينبغي أن تتعامل هذه القيادات مع أتباعها؟

هل أنّ القائد الديني يتعامل مع أتباعه كما يتعامل القائد السياسي، من موقع السلطة والقوة؟!

أو كما يتعامل القائد القبلي (شيخ القبيلة) مع أفراد قبيلته؟!

لا شك أنّ منهج القيادات الدينية في التعامل مع الناس ينبغي أن يكون مختلفًا عن مناهج القيادات المادية الأخرى.

وفي رحاب السيرة النبوية الشريفة، نريد تسليط الأضواء على هذه المسألة المهمة، متمثلين بسيرة رسول الله في تعامله مع أتباعه وأصحابه.

كيف كان يتعامل ـ وهو النبي القائد ـ مع أتباعه الذين كانوا يؤمنون به ويوالونه ويعظّمونه ويطيعونه ويحترمونه؟

إنّ الله سبحانه وتعالى يوجه نبيّه ﷺ في عدد من الآيات نحو منهج خاصّ في التعامل مع الأتباع، خلافًا لطريقة القيادات المادية الأخرى.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٢١٥].

وتكرر مثل هذا التعبير في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٨].

وهذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبة واللطف، كما أنّ الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبة وشفقة، وتجعلها تحت أجنحتها لتكون مصونة من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرق!

فكذلك الأمر بالنسبة للنبي، أمره الله تعالى أن يخفض جناحه للمؤمنين، فيكون مشفقًا عليهم، متواضعًا لهم، غير متعالٍ عليهم.

وهذا التوجيه من الله تعالى لنبيّه ﷺ ينبغي أن يستلهم منه كلّ قائد ديني أسلوب تعامله مع الناس من حوله.

ويمكننا أن نستلهم من السيرة النبوية بعض معالم هذا المنهج النبوي في التعامل مع الأتباع.

أولًا: محورية القيم في مقابل الذات

القيادات الدنيوية غالبًا ما تسعى إلى تعظيم وتضخيم ذواتها أمام أتباعها، حتى تصل ـ في بعض الأحيان ـ إلى مرحلة الصنمية، وكأنّ الأتباع عليهم أن يعبدوه ويتخذوه صنمًا، فيخضعوا له في كلّ شيء!!

في المنهج الديني الأمر مختلف، فالقائد الرباني المرتبط بالرّب سبحانه وتعالى، لا يتخذ منهج تضخيم الذات، وإنما يركز على محورية القيم الإلهية التي يُؤْمِن بها المؤمنون، فيدعو الناس إلى تعظيم ربهم سبحانه وتعالى، وعبادته، وليس إلى عبادة شخص القائد، والآيات القرآنية تركز على هذا الجانب، عليكم أن تُطِيعُوا النبي وتوالوه، لكن على أساس القيم التي يبشّر بها، من خلال ارتباطه بالله سبحانه وتعالى، فقيمة النبي أو الإمام ليست قيمة ذاتية، وإنما هي من الله سبحانه وتعالى، فالتعظيم في الأساس هو تعظيم لله ، ولهذا نقرأ في القرآن الكريم أنّ النبي ﷺ يخاطب الناس:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٦].

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزمر، الآية: ١٣].

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٨].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [سورة الحاقة، الآية: ٤٤-٤٦].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧٩].

فالقائد الديني الحقيقي لا يمارس تضخم الذات أمام أتباعه، وإنّما يربطهم بتعظيم الله سبحانه وتعالى.

من هنا وردت النصوص عن رسول الله ﷺ أنه كان ينهى أصحابه عن الغلوّ فيه.

قال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَرْفَعُونِي فَوْقَ قِدْرِي، فَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي نَبِيًّا»[١].

وفي التشهد في الصلاة نقول: (وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله) استحضارًا لصفة العبودية في النبي قبل الإقرار برسالته.

هذا ما تؤكد عليه النصوص الدينية، فالقائد الديني لا يكون لديه تضخم في الذات، وإنّما يعزّز القيم في نفوس أتباعه، حتى يكون خضوعهم للقيم، واحترامهم لمقام القائد الديني من خلال ارتباطه بالقيم، وليس كحالة ذاتية.

ورد في السيرة النبوية حينما توفي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وصادف مع يوم وفاته كسوف الشمس، فقال البعض هذا الكسوف بسبب وفاته!!

فلما سمع النبي ﷺ بذلك صعد المنبر وخطب قائلًا: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللهَ»[٢].

ولو حدث ذلك لقائد آخر ربما استغلّ الظرف لتثبيت مكانته بين أتباعه، لكن النبي ﷺ لا يسيرُ بهذا المنحى.

فالقائد الديني لا يعيش تضخم الذات ولا يوحي لأتباعه بهذه الحالة، ولهذا تجد فقهاءنا الذين نقلّدهم يذكرون مسألة في (الرسالة العملية) تؤكد على التحرر من الارتباط الذاتي بشخص المرجع.

نصّ المسألة: (إذا قلّد مجتهدًا ثم شك في أنه كان جامعًا للشروط أم لا، وجب عليه الفحص، فإن تبيّن له أنه كان جامعًا للشروط بقي على تقليده، وإن تبيّن أنه كان

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. ج٦، ص١٠٦، حديث٢٥٥٠. ومثله في عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٠١.

(٢) صحيح البخاري. بَابُ الصَّلاَةِ فِي كُسُوفِ الشَّمْسِ، حديث ١٠٠٩. ومثله في وسائل الشيعة، ج٧، ص٤٨٥، حديث١٠، باب وجوبها لكسوف الشمس وخسوف القمر.

فاقدًا لها أو لم يتبيّن له شيء عدل إلى غيره)[١].

وهذا يعني عدم وجود علاقة ذاتيه شخصية مع المرجع، وإذا رأينا من يرتبط بشخص عالم دين أو داعية فوق إطار القيم والمبادئ فهي حالة بشرية غرائزية، أما التوجيه الديني فهو على خلاف ذلك.

ثانيًا: إثارة عقول الأتباع

حينما يلتف الناس حول قائد يثقون به لكفاءته، فإنهم قد ينبهرون به وبما يقدّم من أفكار، ويتخذ من مواقف، إلى درجة تجميد عقولهم، فيستغلّ بعض القادة المنحرفين هذه الحالة، كما يحكي القرآن الكريم عن فرعون ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [سورة غافر، الآية: ٢٩].

يوحي لهم أنّ عقله هو الأكمل وأنّ عقولهم ناقصة!

أمّا في القيادة الدينية فهذا أسلوب مرفوض، فمع أنّ النبي معصوم ومسدّد من قبل الله، لكن الله يأمره أن يستثير عقول أتباعه، يطلب منهم أن يفكروا، إنّ الله تعالى يأمره بقوله: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) والمشاورة تعني دفعهم لاستخدام عقولهم، وحثهم على التفكير وإبداء الرأي، وفي القرآن آيات كثيرة تستنهض الهمم للتفكير: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

الدين لا يطلب منك أن تجمّد عقلك أمام أيّ قائد، كائنًا من كان، بل نفس النبي هو الذي يأمرك أن تُبدي رأيك.

في رواية جميلة عن الإمام الرضا عليه السلام يتحدث عن أبيه موسى الكاظم قال حسن بن الجهم: كُنَّا عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا، فَذَكَرْنَا أَبَاهُ.

فَقَالَ: كَانَ عَقْلُهُ لَا يُوَازِنُ بِهِ الْعُقُولُ، وَرُبَّمَا شَاوَرَ الْأَسْوَدَ مِنْ سُودَانِهِ.

فَقِيلَ لَهُ: تُشَاوِرُ مِثْلَ هَذَا؟

(١) السيد علي الحسيني السيستاني. منهاج الصالحين، مسألة رقم١١.

قَالَ: إِنَّ اللَّـهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رُبَّمَا فَتَحَ على لِسَانِهِ.

قَالَ: فَكَانُوا رُبَّمَا أَشَارُوا عَلَيْهِ بِالشَّيْءِ فَيَعْمَلُ بِهِ[١].

وهكذا كان رسول الله ﷺ حتى قال أحد أصحابه: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ[٢].

كلما حدثت حادثة يجمع الناس ويطلب رأيهم (أشيروا عليّ).

بينما القائد من المنهج الآخر يستخفّ بعقول أتباعه، كما يقول الله تعالى عن فرعون ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾.

أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول لأصحابه: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ، أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ»[٣].

بعض الحالات التي نراها لا تتناسب مع التوجيه الديني الصحيح، ترى البعض يطلق عبارات غير مناسبة لمن يبدي رأيه، (أنت لا تفهم)، (اسكت في محضر العالم)!!!

وهذا أمر مرفوض، فالتوجيه الديني الصحيح كما قال الإمام علي عليه السلام حول مهمة الأنبياء: «وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[٤].

القائد الديني الحقيقي هو الذي يثير في الناس دفائن عقولهم، ويدفعهم للتفكير.

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٤٥، حديث ٣.

(٢) سنن الترمذي. أبواب الجهاد، باب ما جاء في المشورة، حديث ١٧١٤.

(٣) نهج البلاغة. خطبة رقم ٢١٦، ومن خطبة له خطبها بصفين.

(٤) نهج البلاغة. خطبة رقم ١، ومن خطبة له عليه السلام، يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم.

ثالثًا: المواساة وعدم التَّميّز

القائد الديني لا يجمع المكاسب والامتيازات له على حساب أتباعه ومن حوله، بل يواسيهم في شؤون الحياة، ولا يستأثر بالراحة دونهم والامتيازات عليهم.

وهذا ما يؤكده التاريخ في سيرة الرسول ﷺ حتى على مستوى البروتوكلات والتشريفات لم يكن النبي يعيش متميزًا بين أصحابه، كما كان القياصرة والأكاسرة يتميّزون عن سائر الشعب، كان النبي ﷺ يعيش بين أصحابه كأحدهم، كما ورد في السيرة أنه ﷺ كان يقوم احترامًا لبعض القادمين عليه، إلّا أنه يكره قيام الناس له، لشدّة تواضعه.

ولم يكن له مكان خاص أو مميز في جلوسه في مسجده أو بين أصحابه، فقد روى أنس بن مالك: بيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في المَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ علَى جَمَلٍ، فأناخَهُ في المَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قالَ لهمْ: أيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ والنبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتَّكِئٌ بيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ، فَقُلْنا: هذا الرَّجُلُ الأبْيَضُ المُتَّكِئُ. فقالَ له الرَّجُلُ: يا ابْنَ عبدِ المُطَّلِبِ فقالَ له النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قدْ أجَبْتُكَ. فقالَ الرَّجُلُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنِّي سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ في المَسْأَلَةِ، فلا تَجِدْ عَلَيَّ في نَفْسِكَ[1].

وعن زيد الزرّاد قال: سمعت أبا عبد الله (الصادق عليه السلام) يقول: «إنّ رسول الله خرج ذات يوم من بعض حجراته إذا قوم من أصحابه مجتمعون، فلما بصروا برسول الله قاموا.

قال لهم: اقعدوا ولا تفعلوا كما يفعل الأعاجم تعظيمًا»[2].

وعن أنس بن مالك قال: «لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانُوا

(١) صحيح البخاري. كتاب العلم، ص٢٥، حديث ٦٣.

(٢)الشيخ علي النمازي الشاهرودي. مستدرك سفينة البحار، ج٨، ص٦٣٢.

إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ»[١].

وقال أبو الدرداء كان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم، ويمشي في غمارهم!.

وعن أبي ذرٍّ الغفاري قال: رَأيتُ سَلمانَ وبِلالًا يُقبِلانِ إلَى النَّبِيِّ ﷺ إذِ انكَبَّ سَلمانُ عَلى قَدَمِ رَسولِ اللّـهِ يُقَبِّلُها، فزَجَرَهُ النّبِيُّ عَن ذلكَ، ثُمّ قالَ لَهُ: «يا سَلمانُ، لا تَصنَعْ بي ما تَصنَعُ الأعاجِمُ بِمُلوكِها، أنا عَبدٌ مِن عَبيدِ اللهِ»[٢].

ورى الطبري: أنّ النبي ﷺ «كان فِي بعض أَسْفَاره، فَأمر بإصلاح شاة، فَقَالَ رجل: يَا رَسُول الله: عَليّ ذَبحهَا، وَقَالَ آخر: عَليّ سلخها، وَقَالَ آخر: عَليّ طبخها، فَقَالَ: وَعليّ جمع الْحَطب. فَقَالُوا يَا رَسُول الله، نَحن نكفيك. فَقَالَ: قد علمت أَنكُمْ تكفوني، وَلَكِنِّي أكره أَن أتميّز عَلَيْكُم؛ فَإِنّ الله يكره من عَبده أَن يرَاهُ متميزًا بَين أَصْحَابه، وَقَامَ ﷺ وَجمع الْحَطب»[٣].

رابعًا: إكرام الأتباع وليس امتهانهم

بعض القادة إذا وجد أتباعًا يخدمونه ويحترمونه، يمتهنهم ويتعامل معهم وكأنهم خدم له فلا يراعي مشاعرهم وأحاسيسهم!!

رسول الله ﷺ كان في الاتجاه الآخر، كان يكرم ويحترم من يكون معه، ويشاركهم العمل والخدمة، كعمله معهم في بناء مسجد المدينة، لما أمرهم ببناء المسجد، لم يجلس جانبًا، بل شاركهم العمل.

ولما رآه أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ يَحمِلُ حَجَرًا عَلى بَطنِهِ، قال له: يا رَسولَ الله، أعطِني أحمِلهُ عَنكَ، قالَ: «لا، اِذهَب فَاحمِل غَيرَهُ»[٤].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. ج١، ص٦٩٨، حديث ٣٥٨.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٣، ص٦٣، حديث ٣.

(٣) أحمد محب الدين الطبري. خلاصة سير سيد البشر، ص٨٧.

(٤) الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي. إعلام الورى بأعلام الهدى، ص١٥٩.

وفي الطريق إلى بدر كان رسول الله وعليّ بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد يتعاقبون بعيرًا واحدًا، يركب كلّ واحد منهم مدة ثم يتركه للآخر، فأراد علي ومرثد أن يتنازلا عن حصتهما في ركوب البعير له، وقالا: نحن نمشي عنك. فقال لهم: «مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي عَلَى السَّيْرِ، وَلاَ أَنَا بِأَغْنَى مِنْكُمَا عَنِ الأَجْرِ»[١]. وأبى إلاّ أن تكون حصته في ركوب البعير كواحد منهما.

وقد شارك النبي ﷺ المسلمين في حفر الخندق كما صرحت به النصوص التاريخية، وكان يضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب بالمكتل، ويحمل التراب على ظهره، أو على عاتقه حتى إنّ التراب على ظهره وعكنه، وربما كان يحفر معهم حتى يعيا، ثم يجلس حتى يستريح.

وجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، نحن نكفيك.

فيقول: «أريد مشاركتكم في الأجر»[٢].

أما احترامه لمن يخدمه فكان في قمة الشفقة والرحمة والتواضع، روى بعض خدمه قال: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلاَ: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلاَ: أَلَّا صَنَعْتَ»[٣].

هذا غيض من فيض أخلاق رسول الله ﷺ مع أتباعه، نرجو أن يكون مدرسة لنا، وخاصة للعلماء والدعاة وطلبة علوم دينية، أن نستلهم من هذه الأخلاق، فنتعامل مع الناس بشيءٍ من هذه الأخلاق، وهذا السلوك الذي تعامل به رسول الله ﷺ.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. ج٥، ص٣٢٦، حديث ٢٢٥٧.
(٢) نصر بن مزاحم المنقري. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج٤، ص٧٢.
(٣) صحيح البخاري. كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، حديث ٥٧١٤.

ثمة تركيز إلهيٌّ لافت للنظر حول جانب محدّد من عظمة النبي الأكرم ﷺ وهو الجانب المتمثل في الأخلاق العظيمة التي تخلّق بها ﷺ.

فمما لا شك فيه أنّ رسول الله ﷺ كان عظيمًا في كّل جوانب الخير والكمال، فهو عظيم في عبادته ونسكه، وفي مكانته عند الله، كما في إنجازه التاريخي، وهو عظيم في علمه ومعرفته لاتصاله بالوحي، وعظيم في شجاعته وصموده كما تحكي ذلك سيرته في مواجهة الأعداء، وتحدي الصعاب.

غير أنه في مقام الإطراء والتقدير للنبي ﷺ لم يركز سبحانه وتعالى على شيء من تلك الجوانب، بقدر ما ركز من بين كلّ جوانب العظمة عنده ﷺ على جانب محدّد، وأولاه الأهمية القصوى، ألا وهو عظمته في جانب الأخلاق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وهنا يأتي السؤال عن مغزى الإشادة الإلهية بالجانب الأخلاقي عند نبيّه ﷺ على وجه التحديد؟

الأخلاق أولًا

أولًا: يبدو أنه تعالى أراد من الإشادة بأخلاق نبيّه ﷺ لفت النظر إلى أهمية العظمة في هذا المجال. وأنّ العظمة مهما بلغ شأوها في سائر المجالات، لا تداني فضل وأهمية العظمة في مجال الأخلاق. فلو أنّ إنسانًا كان عظيمًا في علمه ومعرفته، لكنه في الوقت ذاته كان سيئًا في أخلاقه، فإنّ تميّزه العلمي لا يعوّض بأيِّ حالٍ عن سوء أخلاقه، وكذلك الحال مع من يكون عظيمًا في عبادته ونسكه، إلّا أنه سيئ الخلق، عندها لا يكون لهذه العبادة أية قيمة تذكر.

وبذلك تغدو العظمة في مجال الأخلاق، هي الأهمّ من بين سائر المجالات الأخرى، وإذا كان هناك من هو جامع للعظمة في أكثر من مجال، فإنّ عظمته في مجال الأخلاق هي الأولى بالاهتمام والتركيز. لذلك ركّز الله سبحانه وتعالى على عظمة نبيّه ﷺ في هذا المجال، حتى إنّه ﷺ لخّص أهداف بعثته، وجوهر رسالته، في إتمام مكارم الأخلاق، في قوله ﷺ: «إنَّما بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخلاقِ»[١].

إنّ النصوص الدينية تشير بوضوح إلى أنه لا قيمة للعظمة في سائر الجوانب، في ظلّ تدنّي أخلاق المرء. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما يُوضَعُ في مِيزانِ امرئٍ يَومَ القِيامَةِ أفضَلُ مِن حُسنِ الخُلقِ»[٢]، إنّ الصلاة والصيام وسائر أشكال العبادة، لا تعدل بمجموعها خصلة هي حسن الخلق، فلا شيء على الإطلاق أفضل من الأخلاق الحسنة. وقال أمير المؤمنين عليّ بن طالب عليه السلام: «رُبَّ عَزيزٍ أذَلَّهُ خُلْقُهُ»[٣]، إنّ الإنسان قد يمتلك مقوّمات العزّة والعظمة، لولا أنّ أخلاقه السيئة تجعل منه ذليلًا وغير محترم ولا محبوبًا بين الناس. كما روي عن الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام أنه قال: «إنَّ أَحسَنَ الحَسَنِ الخُلُقُ الحَسَنِ»[٤]، فالتفوّق والتميّز في هذا المجال هو الأولى من

(١) بحار الأنوار. ج١٦، ص٢١٠، السنن الكبرى، البيهقي، ج١٠، ص١٩٢.
(٢) الكافي. ج٢، ص٩٩، (باب حسن الخلق)، حديث٢.
(٣) الإرشاد. ج١، ص٣٠٠.
(٤) الخصال. ص٢٩، أحسن الحسن، خصلة١٠٢.

التميّز في سائر المجالات الأخرى.

الاقتداء بالأخلاق النبوية

ثانيًا: توجيه الأمة إلى دراسة أخلاق نبيّها، والاقتداء بها. وقد جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. إنّ على الأمة أن تولي المجال الأخلاقي في سيرة نبيّها الأكرم، وأئمتها الأطهار، الاهتمام الأكبر، لا لغرض التبجيل والانبهار فحسب، ذلك أنّ كثيرًا من المسلمين درجوا على إبداء الإعجاب والانبهار، كلما ذكرت فضيلة أو مكرمة أو موقف أخلاقي لرسول الله ﷺ، وليس هذا هو المطلوب، بل المطلوب أولًا وأخيرًا الاقتداء بالنبي، والتأسّي بأخلاقه، بخلاف ما هو سائد عند بعض الأوساط التي ترى في أخلاق النبي مُثلًا عليا لا يمكن بلوغها، والجواب على هؤلاء؛ أوَلم يبعث الرسول ﷺ لكي يقتديَ به الناس!.

إنه ينبغي لكلّ فردٍ في الأمة أن يتأسّى بأخلاق رسول الله ﷺ، خاصة أولئك الذين يتبوؤون مواقع القيادة والتأثير، من الحكّام، والعلماء، والقادة الاجتماعيين والإداريين.

لقد تناولت كتب التاريخ والسيرة النبوية سيلًا من المرويات والمواقف حول عظمة أخلاق النبي الأكرم ﷺ. ومن تلك النماذج، ما رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللّهمّ كما حسَّنتَ خَلْقي فحسِّنْ خُلْقي»[1]، فبالقدر الذي يهتم فيه الإنسان بجماله وأناقة مظهره، عليه أن يهتمّ بجمال أخلاقه وأناقة جوهره المعنوي.

وعن أنس أنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، وفي لفظ: إحدى عشرة سنة، وأنا ابن ثمان سنين، في السفر والحضر، والله ما قال لي: أفّ قطّ، ولا لشيء صنعته لـمَ صنعت هذا هكذا، ولا لشيء لم أصنعه لـمَ لـمْ تصنع هذا هكذا؟ ولا لشيءٍ صَنعته: أسأت صنعته، أو لبئس ما صنعت، ولا عَاب عليّ شيئًا قطّ، ولا أمرني بأمر فتوانيت عنه، أو ضيّعته فلامني، ولا لامني أحدٌ من أهله إلّا قال دعوه، فلو قُدِّرَ

(١) يحيى بن شرف النووي. الأذكار النووية، ص٣٠٤.

أو قال قضي أن يكون كان»[١]، وهذا ما يظهر إلى أيِّ حدٍّ بلغت أخلاقه وسجاياه ﷺ بحيث لم يظهر التبرم ولا التأفّف من خادمه ولو لمرة واحدة طيلة عشر سنين، كما لم يكن معاتبًا ولا لوّامًا!، وفي ذلك رسالة لنا حول كيفية تعاملنا مع السّائقين والخدم العاملين في منازلنا.

ومما رُوي في عظمة أخلاقه ﷺ ما رواه أبو داوود عن أنس أنه قال: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا الْتَقَمَ أُذُنَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ، وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَخَذَ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ»[٢]، أي إنّه ﷺ لم يعرض قطّ، ولم ينح رأسه عن أحدٍ جاء يحدثه في أذنه سرًّا، حتى يكمل محدثه قول ما يريد، ولم يترك ﷺ يد أحد جاء يصحبه أو يسلم عليه، حتى يبادر الآخر لنزع يده من يد النبي.

مدرسة في التربية

ومما روي في عظمة أخلاق النبي الأكرم ﷺ ما جاء في رواية لأحد الأصحاب أنه قال: «بَيْنَا أَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّـهُ، قَالَ: فَحَدَّقَنِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَاهُ، مَا لَكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ قَالَ: فَضَرَبَ الْقَوْمُ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُسْكِتُونَنِي، قُلْتُ: مَا لَكُمْ تُسْكِتُونَنِي؟ لَكِنِّي سَكَتُّ، قَالَ: فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، وَاللَّـهِ مَا ضَرَبَنِي، وَلَا كَهَرَنِي، وَلَا سَبَّنِي، وَلَكِنْ قَالَ: «إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ»[٣].

وعن أنس قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ لا يَنْزَعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزَعُ، وَلا يَصْرِفُ وَجْهَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي

(١) سبل الهدى والرشاد. ج٧، ص٧.
(٢) سنن أبي داوود. كتاب الأدب. باب في حسن العشرة، ج٥، ص٢٧٣، حديث ٤٧٩٤.
(٣) صحيح سنن النسائي. كتاب السهو، باب الكلام في الصلاة، ج١، ص٣٩٢، حديث١٢١٧.

يَصْرِفُهُ، وَلَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ»[١]. وروي عن أنس أيضًا أنه قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّـهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[٢].

لقد كان رسول ﷺ يجيب دعوة العبد، ويعود المريض. وروى مسلم، قال الأصحاب بعد أن اشتدّ أذى المشركين على رسول الله ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»»[٣]. وعن أنس: «كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ إِذَا فَقَدَ الرَّجُلَ مِنْ إِخْوَانِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ سَأَلَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ غَائِبًا دَعَا لَهُ، وَإِنْ كَانَ شَاهِدًا زَارَهُ، وَإِنْ كَانَ مَرِيضًا عَادَهُ»[٤]. وهكذا تمتلئ كتب التاريخ والسيرة بتراث كبير ونماذج مفصّلة عن عظمة أخلاقه ﷺ.

على الأمّة أن تستقي من المعين الأخلاقي العظيم لنبيّها ﷺ. وذلك لأهمية التحلي بالأخلاق الكريمة، التي لا قيمة للإنسان بدونها، مهما كانت لديه من مقوّمات القوة، فكلّ المقومات لا تعوّض الإنسان عن الاهتمام بحسن الخلق، ورقي التعامل مع الآخرين. والحقيقة الأخرى، هي أنّ هذه الأخلاق العظيمة الواردة في سيرته ﷺ لا ينبغي أن تذكر لمجرّد الانبهار والتمجيد وحسب، وإنّما ينبغي أن تكون محورًا للتأسّي والاقتداء.

(١) سنن الترمذي. كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ج٣، ص٣٧٨، حديث٢٤٩٠.
(٢) صحيح البخاري. كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة، ج٤، ص٤٦، حديث ٥٨٠٩.
(٣) صحيح مسلم. كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث ٢٥٩٩.
(٤) كنز العمال. ج٧، ص١٥٣، حديث١٨٤٨٣.

فليتّسع صدرك

لقد امتنّ الله على النبيّ الأكرم ﷺ في محكم التنزيل بجملة من النعم، وعلى رأسها نعمة شرح الصدر. حيث ورد في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ومعلوم أن ورود الامتنان بهذه النعمة في صدر السورة الشريفة، لم يأتِ على نحو الاعتباط، بل يمكن القول إنّ سائر النعم الأخرى التي أسبغها الباري على رسوله، إنما انبثقت من هذه النعمة تحديدًا، أي نعمة شرح الصدر.

معينان لشرح الصدر

وهناك معنيان لمسألة «شرح الصدر» الواردة في الآية الكريمة، أولهما معنى فكريّ معرفيّ، والآخر معنى أخلاقيّ.

فأنْ يتخلّق المرء معرفيًّا بانشراح الصدر، فهذا يعني امتلاكه إمكانية كبيرة لاستيعاب الحقائق والمفاهيم والعلوم والمعارف، في مقابل ما يتّسم به البعض من ضيق الأفق وضعف الاستيعاب، من هنا فانشراح الصدر، معرفيًّا، يأتي بمعنى امتلاك القدرة على استيعاب الحقائق والمعارف.

أما المعنى الآخر لشرح الصدر الوارد في الآية الكريمة، وهو محلّ التركيز هنا، فهو يعني سعة ورحابة الصدر إزاء الصعاب والمشاكل، فالإنسان بحاجة ماسّة لإدراك مدى تفاوت الناس الذين يخالطهم ويعيش بينهم، إنْ على صعيد أفكارهم وأمزجتهم، أو على صعيد أخلاقهم وسلوكهم، من هنا يأتي السؤال عن السبيل الأمثل للتعامل مع هذا الطيف الواسع من الناس، سيمّا عندما يبلغ المرء نقطة الافتراق معهم في الرأي أو المزاج أو المصلحة. ذلك أنّ مسألة التوافق مع الآخرين المشابهين فكريًّا، ليست مدعاة للفخر والراحة، إنما الامتحان الحقيقي هو التوافق مع الآخرين في ظلّ وجود نقاط اختلاف عميقة معهم.

يتّسم بعض الناس بسعة الصدر في تحمّلهم للغير، فيما يكون البعض الآخر ضيقي الصدر، بحيث لا يتحملون التعامل مع من يختلفون معهم في الموقف أو الرأي أو المزاج أو المصلحة. إنّ سعة الصدر على صعيد العلاقات الاجتماعية، صفة قرينة للنجاح، فهذه الخصلة تجعل المرء قادرًا على التأثير في محيطه الاجتماعي، كما تعطيه القدرة على جذب الاحترام والتقدير من الآخرين.

في مقابل ذلك، حين يضيق صدر الإنسان بغيره فسيكون النّكد هو الطابع الأغلب لعلاقاته بمحيطه الاجتماعي، وتبعًا لذلك، لن يكون بمقدور هذا الصنف من الناس ممارسة أيِّ قدرٍ من التأثير على المحيطين به؛ لأنّ الناس لا يستجيبون لمن يسيء لهم ويبدي الانزعاج منهم.

استيعاب المحيط العائلي والاجتماعي

من هنا تتضح حاجة المرء الماسّة للتحلي بسعة الصدر في التعامل مع الآخرين.

ولعلّ أول الناس الذين يجدر التحلّي بسعة الصدر معهم هم أفراد العائلة، الزوجة والأولاد، فهؤلاء الناس لم يخلقوا مطابقين لنا في الرأي والمزاج، غالبًا، بل هم متفاوتون معنا في أمزجتهم وتوجّهاتهم، ولعلّ الامتحان الأهمّ يكمن في النجاح في إدارة الاختلاف ضمن المحيط العائلي بالتوسّل دائمًا بسعة الصدر.

كما ينسحب ذات الأمر على محيط العمل، فسعة الصدر مطلب أساس في التعامل مع الإدارة، وزملاء العمل، والمرؤوسين، وصولًا إلى المراجعين، فجميع هؤلاء بشر ولكلٍّ منهم مزاجه الخاص، سيّما وهناك بعض الأعمال التي تتطلب قدرة نفسية كبيرة من التحمل، كممارسة الطب والتمريض مثلًا، فالطاقم الطبي غالبًا ما يتعاملون مع المرضى الذين هم في قمة المعاناة النفسية والجسدية، مع اختلاف مشاربهم وأمزجتهم، وهنا تبرز أهمية التحلي بسعة الصدر في التعامل معهم.

والأمر نفسه يجري مع العاملين في الشأن الاجتماعي، فمن يفتقد سعة الصدر سيكون عديم التأثير، وأبعد ما يكون عن قيادة الناس، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «آلة الرياسة سعة الصدر»[1]، فهذه الخصلة هي التي تمكن المرء من حسن الإدارة وقيادة زمام المبادرة.

لقد كانت سعة الصدر عند النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هي القدرة الأبرز، والأداة الأهمّ، التي ضمنت له النجاح في تبليغ الرسالة. فقد بُعث في مجتمع جاهلي، يسوده الجهل، وتنتشر فيه العصبيات، وتحكمه الأعراف والتقاليد القاسية الجافة، وكانت مهمته صلى الله عليه وآله التعامل مع هؤلاء الناس، وتغييرهم وإصلاحهم، وما أصعبها من مهمة!، لكن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله امتلك الأهلية والقدرة على القيام بهذه المهمة، نتيجة سعة صدره، حيث يقول سبحانه مخاطبًا نبيّه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، فقد منحه سبحانه تعالى سعة الصدر، حتى شهد له بالنجاح في مهمته بقوله تعالى ممتدحًا نبيّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

الخلق النبوي الرفيع

إنّ من المهم أن نتناول في هذا المقام جملة من النماذج الأخلاقية الرفيعة لتعامل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، رغبة في الاقتداء والتأسّي، لا مجرّد إظهار الإعجاب والانبهار.

فقد روى بعض أصحاب النبي أنه كان صلى الله عليه وآله ذات يوم مرتديًا بُردًا غليظ الحاشية،

(١) نهج البلاغة. قصار الحكم، رقم ١٧٦.

فجاءه أعرابي وجذبه من ردائه بشدة، حتى أثرت حاشية البُرد في صفحة عاتقه ﷺ، ليس هذا وحسب، بل زاد الأعرابي، الذي كان هو نفسه محلّ الحاجة، بأن خاطب النبي على نحو جافٍّ خشن، قائلًا: يا محمد، احمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت ﷺ هنيئة ثم قال: المال مال الله، وأنا عبده، وهل أقاصّك يا أعرابي ما فعلت بي، فأجاب الأعرابي بالرفض، فسأله النبي عن سبب رفضه، فقال الأعرابي: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة، فضحك النبي ﷺ ثم أمر أن يحمل له الشعير على بعير، والتمر على بعير آخر[١].

وفي حادثة أخرى حضر أعرابي عند النبي ﷺ طالبًا حاجة، فأعطاه النبي حاجته، ثم خاطبه ﷺ بالقول، هل أحسنت إليك، فأجاب الأعرابي بمنتهى الجفاء والقسوة قائلًا: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام فدخل منزله، ثم أرسل إلى الأعرابي فدعاه إلى البيت، فأعطاه شيئًا، فقال: (أرضيت؟) فقال: لا، ثم أعطاه أيضًا، فقال: (أرضيت؟) فقال: نعم، نرضى، فقال: (إنك جئتنا، فسألتنا، فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس المسلمين شيءٍ من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب عن صدورهم ما فيها)[٢]، في إشارة إلى شكره النبيّ على عطائه، ففعل الأعرابي ذلك.

وفي حادثة ثالثة، رُوي عن العلاء الحضرمي أنّه قال للنبي ﷺ: إنّ لي أهل بيت أحسن إليهم فيسيئون، وأصلهم فيقطعون، فقال رسول الله ﷺ: اِدفع بالتي هي أحسن، وقرأ عليه الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣٤]، فقال العلاء: إني قلت شعرًا هو أحسن من هذا، في إشارة إلى القرآن الذي قرأه النبي عليه، فدعاه النبي لإلقاء شعره الذي زعم أنه أحسن من القرآن، فأنشده عدة أبيات من الشعر، فأظهر النبي ﷺ حينها جانبًا كبيرًا من سعة الصدر إزاء هذا الشاعر، مخاطبًا إيّاه بعد أن سمع شعره، قائلًا ﷺ: «إنّ من الشعر لحكمة وإنّ من

(١) الشيخ عباس القمي. سفينة البحار، الطبعة الأولى١٤١٤هـ، (دار الأسوة)، ص٦٨٢.
(٢) سبل الهدى والرشاد. ج٧، ص١١.

البيان لسحرًا، وإنّ شعرك لحسن، وإنّ كتاب الله أحسن»[1]، ليقدّم ﷺ بهذه العبارات الموجزة درسًا بليغًا له وللأجيال من بعده، في حسن الخلق وسعة الصدر، وعلى هذا المنوال تحفل السيرة النبوية بالكثير من القصص المماثلة.

سيرة للاقتداء

ونحن إذ نقرأ هذه القصص والمواقف النبوية العظيمة فإنّ علينا أن نأخذ منها العظة والعبرة في تعاملنا مع الآخرين. على أن نبدأ في ذلك بأنفسنا وتعاملنا داخل العائلة، وأن نتوسّل بسعة الصدر مع الزوجة والأولاد، وألّا نستثار عند أقلّ كلمة أو تصرف؛ لأنّ نتيجة ردّ الفعل على هذا النحو، هي استفحال سوء العلاقة الزوجية والأسرية. والأمر ذاته ينسحب على العاملين في الشأن العام، والعلاقة مع الأصدقاء، وزملاء العمل، والمرؤوسين، وكافة الناس من حولنا، ويجب أن نقتدي جميعًا برسول الله ﷺ في سعة صدره، فهذا هو ما يريده الله منّا حين قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

(١) بحار الأنوار. ج٦٨، ص٤١٥.

كما يحتاج جسم الإنسان لبيئة صحيّة يأمن من خلالها الأمراض والأسقام، وتساعد أجهزته وأعضاءه للقيام بدورها السليم، كذلك تحتاج نفسه إلى بيئة اجتماعية سليمة، من أجل أن تكون مشاعره وأحاسيسه سوية وفي المسار الإيجابي. وكما أن للميكروبات والجراثيم أثرًا سيئًا على جسم الإنسان، فكذلك للأجواء الاجتماعية السلبية أثر سيء على نفس الإنسان، بخلاف الأجواء الإيجابية التي تنعكس عليه بالراحة والرضا وتدفعه للسلوك المستقيم.

الاحترام حاجة إنسانية:

من أهم الأمور التي يحتاجها الإنسان في بيئته الاجتماعية هو احترام الآخرين له. إذا كان الناس يتبادلون الاحترام، فإن نفوسهم تكون مرتاحة، ومشاعرهم وأحاسيسهم تكون سوية، وإذا ما فقدوا الاحترام فيما بينهم، تكون النفوس معرضة لاضطرابات تدفع إلى

ردود فعل سلبية، وسلوك عدائي تجاه بعضهم بعضًا. من هنا تسعى المجتمعات الراقية إلى المحافظة على أجواء الاحترام داخل محيطها، ونجد في تعاليم الإسلام ما يؤكد على هذا الجانب. فالذين تعيش معهم بشر مثلك، وكما أنك تود أن تُحترم وتُقدر، فهم أيضًا يودون ذلك. وكما تنزعج أنت من أيّ إساءة وإهانة، فالآخرون كذلك. بالإضافة إلى أن تعاملك الحسن مع من يعيش معك يعزز هذا السلوك في المجتمع، فتضمن أن يتعامل الناس معك ومع عائلتك تعاملًا حسنًا.

النصوص الدينية الواردة في هذا الجانب كثيرة، منها ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أذلّ الناس من أهان الناس»[1]. من يسيء للآخرين يكشف عن نفسية غير سوية، بخلاف من يحترم الناس. الإسلام يؤدب المسلم على أن يتعامل مع الآخرين بالاحترام مهما اختلفت مواقعهم وألوانهم وتوجهاتهم. حتى الصغار فإن الإسلام أولاهم عناية فائقة، ووضع لهم حظًا وافرًا من الاحترام، فلا ينبغي الإساءة للصغير أو إهانته، كان رسول الله ﷺ يبدأ الأطفال بالسلام، ويوجه أصحابه لاحترام الأطفال، ولذلك تجد أن الطفل في بيوت الأئمة ﷺ ينادى بالكنية، فلا يكتفى بالاسم المجرد فقط (يا فلان) بل يقال له يا (أبا فلان) حتى يشعر بقيمته ومكانته. بينما تجد في بعض المجتمعات حتى اسم الطفل المجرد يشحون به عليه فيغيرونه إلى ما يشعره بالنقص.

هذه حالة متخلفة؛ لأن الطفل يعيش مرحلة التنشئة وبناء الشخصية، إذا تربى على الاحترام فسوف يحترم الآخرين. وأنت ترى كيف أن الطفل يلتقط كلماته من داخل بيته، فإذا سمع كلامًا بذيئًا فسوف يتعلمه ويتداوله، لذلك لا ينبغي للرجل إذا حصل بينه وبين زوجته خلاف أن يهينها وينهال عليها بالكلمات النابية سيما بمحضر أطفاله، لأن ذلك يوجد جرحًا كبيرًا في مشاعرهم وأحاسيسهم. وعلى الرجل أن

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٤٢.

يعلم أن إهانة المرأة خلاف الرجولة، روي عنه ﷺ أنه قال: «ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم»[١].

الكلمة الطيبة:

الإسلام يربينا أن ننظر للإنسان من خلال إنسانيته، فنتعامل معه بالحسنى مهما اختلف لونه وشكله وتوجهه وموقعيته، يقول الحديث الشريف عنه ﷺ: «من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها، ومجلس يكرمه، لم يزل في ظل من الله تعالى ممدود عليه بالرحمة ما كان في ذلك»[٢]، بكلمة طيبة تستطيع أن تدخل السرور على قلب أخيك، كما في الرواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكلمة الطيبة صدقة»[٣]، كما أن الابتسامة أيضًا لها دورها في نفسية الإنسان يقول ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[٤]، يتعجب الإنسان كيف يبلغ بالبعض البخل حتى بالابتسامة في وجه من يلقونه من الناس! علمًا بأن البحوث العلمية تشير إلى أن الابتسامة تصنع أثرها السحري في صحة الإنسان، حيث تساعد على تخفيف ضغط الدم، وتنشيط الدورة الدموية، واتزان نبض القلب، وما إلى ذلك، ولكنك تجد من يقابل الناس باكفهار وبرود وتجاهل.

أشعِر من يقابلك باهتمامك واحترامك له، حتى يقبل عليك، ويأنس بك وتأنس به. ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «عظموا أصحابكم ووقروهم ولا يتجهم بعضكم على بعض»[٥]، ينبغي أن نرتقي في تعاملنا مع بعضنا، وأن نحترم بعضنا بعضًا، سيما المجتمعات التي تعيش حالة من التهميش والانتقاص يفترض أن تعوض ذلك في تعاملها الداخلي، فإذا كان الآخر يسيء لأبناء المجتمع فلماذا يسيء أبناء المجتمع

(١) كنز العمال. ج١٦، ص٣٧١، حديث ٤٤٩٤٣.
(٢) مستدرك الوسائل. ج١٢، ص٤١٩، حديث ١٤٤٨٧.
(٣) وسائل الشيعة. ج٥، ص٢٣٤، حديث ٦٤٢١.
(٤) كنز العمال. ج٦، ص٤١٠، حديث ١٦٣٠٥.
(٥) بحار الأنوار. ج٧١، ص٢٥٤.

لبعضهم بعضًا؟

إكرام الناس:

اهتم رسول الله ﷺ وأهل بيته الكرام باحترام الآخرين وإكرامهم وأكدوا عليه قولًا وعملًا، وقد ورد عنه ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جليسه»[١]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من أتاه أخوه المسلم فأكرمه، فإنما أكرم الله عز وجل»[٢]. وعنه عليه السلام: «إنه من عظّم دين الله عظّم حق أخوانه، ومن استخف بدينه استخف بإخوانه»[٣].

من مظاهر الإكرام:

إفساح المكان للآخر: إذا جلست في مكان وجاءك أحد فتنازل له عن مكانك أو افسح له إلى جانبك، فذلك يشعره بالاحترام والمكانة فيسر بذلك، كما أنه سوف ينعكس بالإيجاب عليك، من حيث الراحة النفسية، ورضا الله عز وجل. رواية جميلة تقول إن رجلًا دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس وحده، فتزحزح رسول الله ﷺ عن مكانه له، فتعجب الرجل وقال: في المكان سعة يا رسول الله! فقال: «إن من حق المسلم على المسلم إذا أراد الجلوس أن يتزحزح له»[٤]. حركة بسيطة تشعر من يقدم عليك بالاهتمام. حتى في الطريق، كما في قيادة السيارة ينبغي أن نتحلى بالذوق الرفيع وأن نعطي فرصة لمرور الآخرين. وفي رواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أخذ بركاب رجل لا يرجوه ولا يخافه، غفر له»[٥].

كان رسول الله ﷺ يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه، وآثره بالوسادة التي تحته. جاء عن سلمان الفارسي، قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكئ على

(١) كنز العمال. ج٩، ص١٥٥، حديث ٢٥٤٩٠.
(٢) الكافي. ج٢، ص٢٠٦.
(٣) مستدرك الوسائل. ج٩، ص٥٠، حديث ١٠١٦٩.
(٤) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٢٢٧، حديث ١٦١٥٦.
(٥) كنز العمال. ج٩، ص١٥٦.

وسادة فألقاها عليّ ثم قال يا سلمان: «ما من مسلم دخل على أخيه المسلم فيلقي له الوسادة إكرامًا له إلّا غفر الله له»[١]، المغفرة والثواب ليست في العبادة فقط بل بما تفعل من خير مع الناس أيضًا.

كما جاء في صفة خلق رسول الله ﷺ: أنه كان أكثر الناس تبسمًا ما لم ينزل عليه قرآن ولم تجر موعظة، ما شتم أحدًا بشتمة، ولا لعن امرأة ولا خادمة بلعنة، ولا يأتيه أحد حرًا أو عبدًا أو أمة إلّا قام معه في حاجته، يبدأ من لقيه بالسلام ومن رامه بحاجة بادره حتى يكون هو المنصرف، وما مدّ أحد يده فيرسل يده حتى يرسلها، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا وخفض صلاته وأقبل عليه وقال: ألك حاجة؟

الترحيب:

الترحيب: بأن تلقي على القادم عليك تحية تشعره بسرورك بقدومه، كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قال لأخيه المؤمن مرحبًا، كتب الله له مرحبًا إلى يوم القيامة»[٢]. ليس من الخلق الإسلامي ألا تكترث بالقادم عليك أو أن تستقبله ببرود مشاعر، سيّما الإنسان المتديّن ينبغي أن يكون أكثر احترامًا للآخرين، يخبرني شخص أنه دخل على شخص متدين وله مكانة مرموقة، وكانت بيده سبحة وهو يلهج بالتسبيح، ثم يكمل الرجل متعجبًا: دخلت مع ولدي وجلسنا ولكنه لم يلتفت إلينا، بل ظل يلهج بتسبيحه!

هذا ليس من أخلاق الإسلام، إذ كان رسول الله ﷺ يخفف صلاته ليقبل على القادم إليه.

الإطعام:

ومن مظاهر الإكرام الإطعام: وهو من خلق الكرام، كما نقرأ في القرآن الكريم

(١) بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٣٥.
(٢) الكافي. ج٢، ص٢٠٦.

عن ضيف إبراهيم الخليل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [سورة الذاريات، الآيات: ٢٤-٢٦].

وهناك رواية جميلة تقول إن رسول الله ﷺ في إحدى الغزوات «مر به ركب وهو يصلي فوقفوا على أصحاب رسول الله ﷺ فسألوهم عن رسول الله ﷺ ودعوا وأثنوا وقالوا: لولا أنا عجال لانتظرنا رسول الله ﷺ فأقرؤوه السلام ومضوا، فانفتل رسول الله ﷺ مغضبًا ثم قال لهم: يقف عليكم الركب ويسألونكم عني ويبلغونني السلام ولا تعرضون عليهم الغداء»[1]!

(١) بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٦٣.

احترام الناس

لا شيء يُسعد الإنسان كشعوره باهتمام الآخرين به، فذلك ما يعزّز ثقته بنفسه، ورضاه عن ذاته، ويشدّه إلى الآخرين.

إنّ فرح الإنسان باحترام الآخرين له أكثر من فرحه بالمكاسب المادية، وما نراه من ارتياح الطفل حين تحتضنه أمّه، أو يقبّله أبوه، أو يضاحكه أحد، هو تعبير عن هذه الحاجة العاطفية التي تواكب الإنسان طوال حياته، وإن تغيّرت مظاهرها وصور متطلباتها.

ومن العادات الجديدة الحسنة حفلات التكريم للمبدعين والمتميزين، التي تترك أثرًا كبيرًا في نفوسهم، وتثري مشاعرهم وأحاسيسهم، وتحفّز الآخرين للإبداع والتفوق حتى يحظوا بتكريم مماثل.

وكذلك أعياد الميلاد العائلية التي تمنح الفرصة للعائلة لإبداء الحبّ والاهتمام بكلّ فردٍ من أفرادها بمناسبة عيد ميلاده.

ويؤكّد الإسلام أهمية احترام الآخرين، وإبداء التقدير لهم، وإظهار الاهتمام بهم، فكلّ فردٍ من البشر هو مخلوق لله، وهو محلّ تكريمه، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولا يحقّ لك أن تهين مَنْ كرّمه الله، وفي حديث عن النبي ﷺ يعبّر فيه عن الناس بأنهم (عيال الله) يقول ﷺ: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ مَنْ نَفَعَ عِيَالَ اللهِ»[١]، ومن الطبيعي ألاّ يرضى الله بإهانة أحدٍ من عياله.

وورد عنه ﷺ أنه قال: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ»[٢].

مظاهر الاحترام

وقد اهتمت التعاليم الدينية بالتأكيد على مفردات سلوكية لتبادل الاحترام بين الناس وفي طليعتها إلقاء التحية والسلام، حيث ينبغي للإنسان حين يقابل أحدًا أن يبدأه بالسلام، ويبادر بإلقاء التحية عليه، حتى وإن كان صغيرًا، فقد كان رسول الله ﷺ ملتزمًا السلام على الصبيان، وقال ﷺ: «خمس لا أدعهنّ حتى الممات: ... التسليم على الصبيان لتكون سنة من بعدي»[٣].

وعنه ﷺ: «إنّ أبخل الناس من بخل بالسلام»[٤].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام»[٥].

وإذا كان الابتداء بالسلام مستحبًّا فإنّ ردّ السلام واجب، ولا يجوز لك تجاهل من يلقي عليك السلام ويحييك، بل عليك أن تشكر له تحيته، وتردّ سلامه، بترحيب

---

(١) الكافي. ج٢ ص١٦٤، حديث٦.
(٢) صحيح مسلم. كتاب البر والصلة والآداب، حديث٤٦٥٠.
(٣) بحار الأنوار. ج٧٣، ص٦٧، حديث١.
(٤) كنز العمال. ج٢، ص٦٤، حديث٣١٣٣.
(٥) الكافي. ج٢، ص٦٤٤، حديث٣.

أفضل وأجمل، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

وعنه ﷺ: «السلام تطوع والردّ فريضة»[١].

بل لو كان الانسان منشغلًا بأداء الصلاة، فإنّ ذلك لا يعفيه من واجب ردّ السلام، فيجب ردّ السلام، بنفس الصيغة، ويأثم المصلي إذا لم يفعل ذلك.

البشاشة وحسن الاستقبال

حين يستقبلك إنسان بوجه طلق منشرح، ويقابلك بالبشاشة والترحيب، فإنّ ذلك يبعث البهجة والسرور في نفسك، ويشجّعك على التفاعل معه، وطرح ما لديك من أمور عليه، أما إذا استقبلك بوجه منقبض مكفهر، فإنك لن ترتاح ولن تتفاءل بلقائه.

إنّ حسن الاستقبال هو مؤشّر الاحترام والتقدير، وهو ما يصنع أرضية العلاقة السلمية والتعامل الإيجابي بين الناس، بينما يوحي الفتور والجفاف بعدم الاهتمام بالطرف الآخر، وضعف الرغبة في التواصل معه. لذلك ركزت التعاليم الدينية على هذا الجانب، حيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اِلق أخاك بوجهٍ منبسط»[٢].

وعنه ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَالْقَوْهُمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْبِشْرِ»[٣].

وتتأكّد أهمية حسن الاستقبال بالنسبة لمن هم في موقع التصدّي لحاجات الناس ومشاكلهم، فإنّ من يقصدهم يكون تحت ضغط حاجته ومشكلته، وحين يُستقبل بفتور ولا مبالاة، فإنّ ذلك يضاعف عليه الضغوط، ويملأ نفسه بالتشاؤم والانزعاج.

فالطبيب حين يستقبل مريضه، بصدر رحب، وطلاقة وجه، فإنّ ذلك يرفع معنويات المريض، ويجعله أكثر تجاوبًا مع برنامج العلاج، بعكس ما إذا كان الطبيب جافًّا فاترًا في استقباله للمريض.

---

(١) كنز العمال. ج٩، ص١٢٢، حديث ٢٥٢٩٤.
(٢) الكافي. ج٢، ص١٠٣، حديث٣.
(٣) الكافي. ج٢، ص١٠٣، حديث١.

وكذلك الموظف حين يستقبل المراجعين، فإنّ لطريقة استقباله أثرًا كبيرًا على نفوسهم، وينطبق ذات الأمر على علماء الدين الذين يجب أن يتحلّوا بأعلى قدرٍ من الأخلاق السامية في استقبال الناس، والتواضع لهم، ليجذبوا الناس إلى الدين بأخلاقهم، وليكونوا قدوة بسلوكهم.

ونشير أخيرًا إلى أهمية حسن الاستقبال للفقراء والمحتاجين، من قبل مسؤولي الجمعيات الخيرية، أو مكاتب العلماء، أو ذوي الخير من المحسنين، فإنّ الحاجة تُشعر صاحبها بالضعف، والسؤال فيه نوع من المذلّة، لكن حسن الاستقبال هو الذي يخفف الوطأة على الفقير والمحتاج، لذلك فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تزجره ولا ترفع صوتك عليه.

إنّ مراعاة مشاعر الفقراء والمحتاجين عندما يعرضون حاجتهم، أهمّ من إعطائهم المساعدة والدعم، وإذا رافق العطاء لهم شيء من الاهانة أو الجرح للمشاعر، فلا قيمة لذلك العطاء عند الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ فالاعتذار للفقير عن المساعدة بكلمة طيبة توحي بالاحترام والتقدير، خير من مساعدة يرافقها جرح لمشاعر الفقير وامتهان كرامته.

إظهار الاهتمام

حين يدخل المجلس شخص، فإنّ على الجالسين أن يظهروا الاهتمام به، فيفسحوا له في المكان، ويبدوا له التقدير، ولو بأقلّ حركة للاحتفاء به.

قال الصحابي الجليل سلمان الفارسي: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ فَأَلْقَاهَا إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا سَلْمَانُ؛ مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَخَلَ عَلَى أَخِيهِ اَلْمُسْلِمِ فَيُلْقِي لَهُ اَلْوِسَادَةَ إِكْرَامًا لَهُ إِلَّا غَفَرَ اَللَّـهُ لَهُ»[1].

(١) الشيخ رضي الدين نصر الحسن بن الفضل الطبرسي. مكارم الأخلاق، (الكويت: مكتبة الألفين)، ص٢٧.

وكان ﷺ يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته[١].

وكان ﷺ إذا جلس إليه أحد تزحزح له شيئًا، وذات مرة «دَخَلَ رَجُلٌ اَلْمَسْجِدَ وَهُوَ ﷺ جَالِسٌ وَحْدَهُ، فَتَزَحْزَحَ لَهُ، فَقَالَ اَلرَّجُلُ: فِي اَلْمَكَانِ سَعَةٌ يَا رَسُولَ اَللَّـهِ، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ حَقَّ اَلْمُسْلِمِ عَلَى اَلْمُسْلِمِ إِذَا رَآهُ يُرِيدُ اَلْجُلُوسَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَزَحْزَحَ لَهُ»[٢].

هكذا يربينا الإسلام ويعلّمنا على إبداء الاحترام والإكرام لكلّ الناس، وبذلك ننال رضا الله سبحانه، وننعم بعلاقات طيبة في محيطنا الاجتماعي.

(١) مناقب آل أبي طالب. ج١، ص١٢٧.
(٢) مكارم الأخلاق. ص٣١.

قيادة التحول الأخلاقي

في القرن السادس الميلادي كانت المجتمعات البشرية بشكل عام والجزيرة العربية بشكل خاص تعيش عصرًا من أسوأ عصور التدهور والانحطاط الأخلاقي.

فقد انحسرت آثار تعاليم الأنبياء والرسل، وعبث التحريف والتزوير فيما جاؤوا به للناس من شرائع وكتب، وأصبحت رسالات الأنبياء السابقين كاليهودية والمسيحية حالة من الكهنوت، تستغلها طبقة من رجال الدين الفاسدين من (الأحبار والرهبان)، الذين كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وكان القياصرة والأكاسرة في الروم والفرس، يحكمون الناس بالطغيان والظلم والاستبداد، يسحقون كرامة الناس ويذيقونهم الذل والفقر والحرمان، فلم تكن للإنسان قيمة ولا مكانة ولا احترام.

وفي الجزيرة العربية كان المجتمع عبارة عن قبائل متناثرة، يعيش الناس فيها بلا هدف، فيقتتلون على أتفه الأسباب، تسودهم الأساطير والخرافات، يعبدون الأصنام

والأوثان وتسيطر على نفوسهم الأنانية المفرطة والعصبية المقيتة، وتكثر بينهم الحروب والمعارك، صراعًا على المراعي، وتحصيلا للغنائم.

حتى قال شاعرهم:

وأحيانًا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وكان التفاخر والتباهي بين القبائل هو ما يشغل أذهانهم، بما يدفعهم إلى التعالي ويكرس التمييز والطبقية فيما بينهم.

ولأنّهم يعيشون حياة القتال والحرب، كانوا يقدسون القوة، أما الضعفاء فلا قيمة لهم ولا مكانة، ومن هنا كانت المرأة مهانة محتقرة ينظر إليها بدونية، لأنّها لم تكن جزءًا من معادلة القوة في الحرب، بل كانت ـ في كثير من الأحيان ـ تشكل عبئًا على القبيلة، لجهة حمايتها ومنع أسرها، مما يكلّف القبيلة، لذلك كانوا ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[سورة النحل، الآية: ٥٨].

في ظلّ هذه الأوضاع في الجزيرة العربية، وما ذكرناه على المستوى العالمي، وبالتحديد في سنة (٥٧٠ للميلاد) أشرق على البشرية نور نبينا محمد ﷺ في شهر ربيع الأول من عام الفيل، كما تشير الروايات.

حينما ابتعث رسول الله ﷺ إلى البشرية قاد حركة تحوّل أخلاقي، فوضع حدًّا للتدهور والانحطاط الذي كان سائدًا في المجتمعات البشرية وأسس لعصر جديد، فقد أعلن رسول الله ﷺ أن المهمة الأساس لرسالته وشريعته هي إتمام مكارم الأخلاق، كما في الحديث الشريف «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ اَلْأَخْلاَقِ»[1] و في رواية «لأتمم صالح الأخلاق»[2].

وإنّما تفيد الحصر، أي حصر مهمته ووظيفته وهدف رسالته الأساس في هذا

(١) معاني الأخبار. ص١٨٨، كنز العمال. ج٣، ص١٦، حديث ٥٢١٨.
(٢) كنز العمال. ج١١، ص٤٢٥، حديث ٣١٩٩٦.

الهدف (أن يتمم للناس مكارم الأخلاق).

أي إنه لا يبدأ من الصفر، فالأخلاق تنبع من فطرة الإنسان ووجدانه النقي السليم، كما أن عقل الإنسان السوي يدفعه إلى مكارم الأخلاق.

وهناك كلمة جميلة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول: «لَوْ كُنَّا لاَ نَرْجُو جَنَّةً وَلاَ نَخْشَى نَارًا وَلاَ ثَوَابا وَلاَ عِقَابًا لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَطْلُبَ مَكَارِمَ اَلْأَخْلاَقِ فَإِنَّهَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَى سَبِيلِ اَلنَّجَاحِ»[1].

الإنسان بعقله السوي يدرك أن مكارم الأخلاق تنفعه وتنجحه في إدارته لشؤون ذاته وإدارة حياته في مجتمعه البشري.

إن الأخلاق تنبع من الفطرة ويرشد إليها العقل، والأنبياء يأتون لتوجيه الإنسان إلى عقله، ومساعدته أمام ضغوط الشهوات والأهواء التي تنحرف به عن الفطرة وعن إرشاد العقل، فتبعده عن مكارم الأخلاق. كما أن الأنبياء يقومون بتبيين مصاديق القيم الأخلاقية وتطبيقاتها.

قبل رسول الله كان هناك رسل وأنبياء، ولكن بسبب الفترة الزمنية الفاصلة تلاشت آثار تلك الرسالات والشرائع وحرّفت، فجاء رسول الله ﷺ ليذكّر الناس بما كان في تلك الشرائع ويصدّقها ويكمّلها، وهذا ما تؤكد عليه آيات القران الكريم ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[سورة المائدة، الآية: ٤٨].

ومع تطورات الحياة البشرية هناك مصاديق وموارد جديدة تحتاج إلى تبيين تطبيق تلك القيم عليها وهذا هو دور رسالة رسول الله ﷺ «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ اَلْأَخْلاَقِ».

كما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن أهم صفة وميزة في شخصية رسول

(١) المستدرك على الصحيحين. ج ١١، ص١٩٣.

الله ﷺ وهي الجانب الأخلاقي مما يدلّ على أهمية هذا البعد في الرسالة الإسلامية، فحينما يصف الله تعالى نبيه ﷺ لا يتحدث عن علمه، ولا عن فضله، ولا عن جوانب الكمال المختلفة في شخصيته، وإنما يتحدث عن هذا الجانب الأخلاقي فيقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[سورة القلم، الآية: ٤].

و كأن هذه الصفة هي الأهم والأبرز التي ينبغي الالتفات إليها و الاهتمام بها، وبالفعل قام رسول الله ﷺ بجهد عظيم من أجل إعادة بناء ذلك المجتمع، وتشكيله على أنقاض ذلك المجتمع الجاهلي، الذي كان يعاني من التدهور والانحطاط الأخلاقي، ورغم صعوبة المواجهة والمعاناة، فقد تحقق على يدي النبي ﷺ إنجاز كبير، حيث أسس مجتمعًا جديدًا تتمثل فيه مكارم الأخلاق، التي كانت متجاهلة ومهملة في المجتمع قبل بعثة رسول الله ﷺ، والقرآن الكريم يشير إلى هذه التغييرات التي حصلت في المجتمع كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣].

حيث تشير الآية إلى أن التغيير قد تحقق، وأن حالة الاحتراب والاقتتال زالت، وحينما تصف الآيات القرآنية المجتمع الذي رباه رسول الله ﷺ تقول إحدى الآيات: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[سورة الحشر، الآية: ٩].

لقد تغيرت الحالة في ذلك المجتمع من سيادة الأنانية إلى خُلق الإيثار ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ والمجتمع الذي كان يعيش العصبية القبيلة، حيث كان الإنسان يقاتل مع قبيلته دون سؤال أو نقاش، تحت شعار (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) بحرفيته، هذا المجتمع تبدل حاله، إلى ما وصفه به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بقوله: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، نَقْتُلُ آبَاءَنا

وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذلِكَ إلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا»[1]، فلم يعد المعيار هو الانتماء إلى القبيلة، وإنّما الانتماء إلى الحق، فمن واجه الحق وحاربه ـ ولو كان من الآباء والإخوة ـ كان المسلمون يقاتلونه.

وهكذا تأسس مجتمع جديد على أساس قيم جديدة، ولا نقول إن ذلك المجتمع كان مجتمعًا مثاليًا ملائكيًا، هو مجتمع بشري تظهر فيه الأخطاء والثغرات، وتحصل فيه الانحرافات كأيّ مجتمع بشري، لكن الحالة العامة والصورة المجملة كانت إيجابية.

والسؤال: كيف استطاع رسول الله ﷺ أن ينجز هذا التغيير ويحقق هذا الهدف؟

وفي الجواب نشير إلى نقطتين:

الأولى: التعبئة الأخلاقية.

كان رسول الله ﷺ يكافح معتقدات الشرك ومظاهر الوثنية، ويدعو إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وفي ذات الوقت كان يحارب نزعات الشر وميول الفساد والانحراف داخل النفوس، ليغرس فيها بذور الفضيلة والصلاح، ويوجهها إلى مكارم الأخلاق. وهي مهمة التزكية التي تشير الآيات القرآنية إلى قيام النبي ﷺ بها كمهمة أساس في رسالته

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سورة الجمعة، الآية: ٢].

فالآية قدمت التزكية التي تشير إلى الجانب الأخلاقي على التعليم.

وفي آية أخرى يشير الله تعالى إلى الهدف الأساس من بعثة الأنبياء ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[سورة الحديد، الآية: ٢٥].

(١) نهج البلاغة. خطبة ٥٦.

وإنجازًا لهذه المهمة الأساس بذل النبي ﷺ جهده الأكبر في التعبئة الأخلاقية، بالتأكيد على محورية الأخلاق في الالتزام الديني، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خلقًا»[١]

والتركيز على الأخلاق لأنّها ثمرة العقيدة والعبادة. وفي حديث آخر عنه ﷺ «إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنكُم أخلاقًا»[٢].

وقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ إنَّ فلانةً تُكثِرُ من صلاتِها وصدقتِها وصيامِها غيرَ أنَّها تُؤذي جيرانَها بلسانِها قال هي في النَّارِ[٣].

ومن هذه النصوص يظهر أن النبي ﷺ كان يركز على التعبئة الأخلاقية، وهو ما حقق هذا الإنجاز العظيم ببناء مجتمع أخلاقي على أنقاض ذلك المجتمع الجاهلي.

الثانية: كان رسول الله ﷺ هو القدوة للناس في أخلاقه وسيرته، فاستقطبهم واجتذبهم بهذه الأخلاق، ورباهم بسيرته على الالتزام بها.

ونلتقط فيما يلي بعض المواقف والصور الرائعة التي تنقلها لنا السيرة النبوية من الخلق النبوي العظيم:

المشهد الأول:

تقول الرواية: أنَّ اليَهُودَ أَتَوُا النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالوا: السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَ: وعلَيْكُم فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ علَيْكُم، ولَعَنكُمُ اللَّهُ وغَضِبَ علَيْكُم، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَهْلًا يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بالرِّفْقِ، وإيَّاكِ والعُنْفَ، أوِ الفُحْشَ قَالَتْ: أوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا؟ قَالَ: أوَلَمْ تَسْمَعِي ما قُلتُ، رَدَدْتُ عليهم، فيُسْتَجَابُ لي فيهم، ولَا يُسْتَجَابُ لهمْ فِيَّ[٤].

---

(١) سنن أبي داود. ج٢، ص٦٣٢، حديث ٤٦٨٢.
(٢) صحيح الترمذي. حديث ٢٠١٨.
(٣) مجمع الزوائد. ج٨، ص ١٧١.
(٤) صحيح البخاري. ص١٨٥، حديث٦٤٠١.

بالرغم من أنهم تمنوا له الموت إلا أنه لم يرض بما فعلته عائشة حين ردت عليهم بالقول (بل عليكم السام واللعنة) فأمرها بالرفق واجتناب الفحش.

المشهد الثاني

بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ برَجُلٍ مِن بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ له ثُمَامَةُ بنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بسَارِيَةٍ مِن سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إلَيْهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَالَ: ما عِنْدَكَ يا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِندِي خَيْرٌ يا مُحَمَّدُ، إنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وإنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ علَى شَاكِرٍ، وإنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ منه ما شِئْتَ، فَتُرِكَ حتَّى كانَ الغَدُ، ثُمَّ قَالَ له: ما عِنْدَكَ يا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: ما قُلتُ لَكَ: إنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ علَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حتَّى كانَ بَعْدَ الغَدِ، فَقَالَ: ما عِنْدَكَ يا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِندِي ما قُلتُ لَكَ، فَقَالَ: أطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَانْطَلَقَ إلى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ، يا مُحَمَّدُ، واللَّهِ ما كانَ علَى الأرْضِ وجْهٌ أبْغَضَ إلَيَّ مِن وجْهِكَ، فقَدْ أصْبَحَ وجْهُكَ أحَبَّ الوُجُوهِ إلَيَّ، واللَّهِ ما كانَ مِن دِينٍ أبْغَضَ إلَيَّ مِن دِينِكَ، فأصْبَحَ دِينُكَ أحَبَّ الدِّينِ إلَيَّ، واللَّهِ ما كانَ مِن بَلَدٍ أبْغَضُ إلَيَّ مِن بَلَدِكَ، فأصْبَحَ بَلَدُكَ أحَبَّ البِلَادِ إلَيَّ، وإنَّ خَيْلَكَ أخَذَتْنِي وأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأَمَرَهُ أنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ له قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لَا، ولَكِنْ أسْلَمْتُ مع مُحَمَّدٍ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولَا واللَّهِ، لا يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

لو تأملنا هذه الرواية نجد أن ثمامة في المرتين الثانية والثالثة عندما سأله رسول الله ﷺ لم يذكر القتل، ذلك أنه عرف أن الجو العام لم يكن جو انتقام وقتل و لذلك لم يذكر القتل في جوابه.

نجد في الرواية معاني وصورًا عظيمة تدل على عظمة أخلاق رسول الله ﷺ،

(١) صحيح البخاري. ص١١٤، حديث ٤٣٧٢.

فقد أطلق سراح ثمامة بلا قيد أو شرط، وبسبب تلك الأخلاق العالية للرسول ﷺ نرى ثمامة قد رجع إلى المسجد بعد أن اغتسل بصورة طوعية، من تلقاء نفسه وأعلن إسلامه.

المشهد الثالث:

جاء في السيرة النبوية أن النبي ﷺ سخط على أحد أصحابه المجاهدين؛ لأنه تلفظ بكلام جارح لأحد المشركين ردًّا على استهزائه برسول اللّه ﷺ. وذلك في الطريق إلى بدر أولى معارك الإسلام الفاصلة، لقي المسلمون رجلًا من الأعراب، فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرًا، فقال له الناس: سلم على رسول اللّه ﷺ، قال: أوَفيكم رسول اللّه؟ قالوا: نعم، فسلّم عليه، ثم قال: إن كنت رسول اللّه فأخبرني عمّا في بطن ناقتي هذه. قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول اللّه، وأقبل عليّ فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها، ففي بطنها منك سخلة، فقال رسول اللّه ﷺ: مَهْ، أفحشت على الرجل، ثم أعرض عن سلمة [1].

هكذا لم يرضَ رسول اللّه ﷺ بصدور كلام بذيء وإن كان لمشرك مستهزئ بالرسول ﷺ.

(١) السيرة النبوية لابن هشام. ج٢، ص١٨٧.